الفصل الثامن

حلب وضواحيها

سبل الوصول ـ بالسكة الحديدية: من بيروت ٣٩٦كم، ـ من دمشق ٤١٠كم، ـ من طرابلس ٣٠٤كم، ـ من حمص ٢٠١كم، من الاسكندرونة ٢٧٥ كم من نصيبين ٤٤٢، ـ من مرسين ٣٦٤.

بالطرق: من حمص ٢٠٢كم، ـ من الاسكندرونة بالطريق الحديثة ١٤٧كم، وبالطريق القديمة ١٦٨ ـ من أنطاكية ١٠٦كم، ـ من اللاذقية ١٩٨كم، ـ من دير الزور ٣٤٣كم.

حلب ـ مركز ولاية تسمى باسمها وتتبع دولة الشام، ومقر مندوب المفوض السامي الفرنسي ووالي الولاية ومطران ماروني، وآخر للروم الكاثوليك، وللروم الأرثوذكس.. الخ، ومفتي وحاخام وعدة محاكم ومحكمة استئناف ـ وهي بعد دمشق أجل مدن الشام الداخلية، وهي واقعة في السهل المتوج الممتد من نهر العاصي حتى الفرات، وفي وسط قعرة تحدق بها الآكام والتلعات. وجفاف الجو في بقعتها جعل لها خاصة قاسية في اللون الكامد لأحجارها (ومنها لقبت في العربية بالشهباء) ونهرها المسمى قويقاً الذي يذهب جنوباً ويتلاشى في مستنقعات قنسرين هو نهر ضئيل يزداد ضآلة من استعمال مائه بسقي البساتين، وهذا ما جعل حلب محاطة بمنطقة بساتين ثرية بالخضارة كدمشق. ولا تخلو ضواحيها أيضاً من الخضارة القليلة، خاصة بوجود شجر الفستق (والفستق يكاد أن يكون محصوراً بحلب وله فيها تجارة)، أما منظر حلب العام فهو على خلاف ما يراه القادم مثلاً بالقطار من بيروت، ذو جاذبية غير يسيرة. ومما يزيد هذه الجاذبية وقلقها التي تشرف عليها من ذروة التل الشاهق، ومآذنها الطويلة ذات الأشباح المختلفة والبارزة في كل مكان من خلال السطوح المستوية.

وإقليم حلب رغم أنه أكثر تأثيراً من إقليم دمشق بحكم موقعها الأكثر انحرافاً للشمال وارتفاعها الضئيل (٣٢٠م) فهو صحي يناسب الأوروبيين. والوطنيون

معرضون لعلة خاصة تدعى (جعة حلب) وهي نوع من القروح تنمو على الأكثر في الوجه ثم تتلاشى خلال مدة طويلة قليلاً أو كثيراً بعد أن تترك مكانها ندبة عميقة.

والمدينة القديمة ذات شكل شبيه بالمربع مبنية على الضفة اليسرى لقويق الذي لا يخترقها إلا أن أرباضاً آهلة بالسكان كان قد خرجت من المدينة في كل الجهات. ولكن الأحياء الحديثة كالعزيزية والحميدية قد نمت خاصة في الجهة الغربية في اتجاه المحطات، ومثلها حي اليهود المسمى بالجميلية. وفي طرف المدينة شيد مهاجرو الأرمن حياً حقيراً بنوه من مواد البقعة كما عملوه في معسكرهم في بيروت.

وربما كان عدد سكان حلب نحو ٢٥٠ ألفاً، وهم أقل اختلاطاً من سكان دمشق، وبينهم عنصر كبير من الأرمن ومثله من الترك. واللغة السائدة هي العربية، ولكن التركية أيضاً منتشرة بكثرة بحكم قرب حلب من خط تقسيم هاتين اللغتين. ويتكلم قسم غير يسير من السكان الفرنسية وسكان حلب أذكياء ومخلصون. ولهم عناية خاصة بالتجارة وسعي دائم برهنوا بهما على كفاءة عظيمة، والمسلمون يؤلفون القسم الأعظم من السكان، ولكن النصارى يملكون زمام أكثر التجارة التي عليهم تعتمد ثروة حلب بحكم وجودها في موقع يؤلف الطرف الغربي الأقصى للطريق الآتية من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط. واليوم قد نقصت أهمية هذه التجارة نقصاً كبيراً، وذلك لأن سوق بلاد الترك قد سد في وجوه تجار حلب بسبب الوضع العدائي الذي أسكت حكومة أنقرة، ولأن حركة التجارة المحلية مصابة أيضاً بالوهن. ولكن منافذ تجارية جديدة تنفتح رويداً رويداً ومدينة حلب ستستعيد في برهة وجيزة فعاليتها السابقة؟ أما الصناعة فيعمل عدد كبير من العمال بنسج المنسوجات الحريرية القطنية. ومن الصناعات الخاصة بحلب هي صناعة خطوط الذهب أو النحاس المذهب المستعمل في صناعة التخريم البلدي.

وفي حلب خارج باب الفرج كثير من الفنادق وهي وسط من الإتقان، وكذا المطاعم وهذه جلها غير مرضٍ، وفيها أيضاً كثير من المقاهي وأحسنها تلك التي في جادة الخندق، وفي هذه الجادة عدد من المراقص والملاهي ودور السينما، وإقبال على هذه الأماكن شديد لاسيما من الطبقة العامة. وفيها أيضاً محطتان كبيرتان الأولى

لشركة دج، ت وهي في غربي المدينة وفي منتهى جادة الخندق. والثانية لشركة ج. ب، ث وهي في الشمال الغربي، وفيها كثير من المدارس، أجلها مدرسة التجهيز الرسمية، ومدرسة الصنائع الآلية الرسمية، والمدرسة العلمانية الفرنسية، ومدرسة الإخوان المريميين الفرنسية، ومدرسة الآباء الفرنسيسكان، ومدرسة الاليانس اليهودية، ومدارس للبنات بيد راهبات عديدة مختلفات النحلة، هذا عدا المدارس الحكومية الابتدائية العديدة، أما المعابد فاللنصارى كنيسة اللاتين في الشياف وكنائس لطائفة الروم الكاثوليك، والروم الأرثوذكس.. الخ وللمسلمين جامع النبي زكريا الكبير، جامع الفستق، وجامع البهرامية، جامع التوتة، جامع الأطروش، جامع الطواشي.. الخ. ولليهود الكنيس الكبير.

التاريخ: حلب إحدى أقدم مدن العالم الباقية حتى الآن، وقد ذكر اسمها فيما مضى بشكل خلاب في الحجج الحثية قبل الميلاد بألفي سنة، وبعد ذلك في النصوص البابلية والمصرية. وفي عهد السلوقيين سميت باسم بروئه وحازت نصيباً من الرقي، إلا أن الفرس قضوا عليه لما هاجموها وخربوها (في سنة ٥٤٠م)، ولما فتحها العرب دون مقاومة سنة ٦٣٧/١٦ ظلت حلب من المدن الثانوية لأن المركز الإداري لشمالي الشام كان وقتئذ قنسرين ولهذا ظل تاريخ حلب مندمجاً بتاريخ الشام كله.

وجاء بعد حين سيف الدولة ابن حمدان (٩٣٦/٣٢٥ ـ ٩٦٧/٣٥٧) واستطاع أن يؤسس في الشام الشمالية مملكة مستقلة جعل عاصمتها حلب، كانت مركزاً نشيطاً للحضارة الإسلامية. وكان يضطر للكفاح. تارة غالباً وتارة مغلوباً ضد الإمبراطور الكبير اليزنطي نيسفور فولاس الذي توفق للاستيلاء على حلب برهة من الزمن. ولما مات سيف الدولة، عمت الفوضى مملكته فسقطت حلب بسهولة في يد الأتابكيين ملوك الموصل. ولما استخلصها صلاح الدين من يد ابن نور الدين سلمها إلى ابنه الملك الظاهر غازي ١١٨٥/٥٨١ ـ ١٢١٨/٦١٥ فجعلها هذا دولة قوية وشيد فيها كثيراً من المباني الأثرية. وبعد أن استولى عليها المغول ونهبوها (سنة ١٢٥٨/٦٥٦) انتقلت حلب مع بلاد الشام كلها إلى يد مماليك مصر، فجعلوها مركزاً لنيابة عظيمة بالنظر إلى قربها من الحدود. ثم استولى عليها الترك سنة

١٥١٦/٩٢٢ فظلت حلب مركزاً لولاية ومركزاً عظيماً للتجارة الأوروبية منذ القرن ١٧/١١.

هذا وطراز الحكم التركي وسوء الإدارة المصرية (١٨٣١/١٢٢٧ - ١٨٤٠/١٢٥٦) أضرا بحلب وهي الآن عاصمة ولاية سورية الشمالية.

زيارة المدينة - تستدعي زيارة حلب وقتاً أقل بكثير من دمشق. فيوم واحد يكفي لذلك. فيمكن قبل الظهر أن تزور الأسواق والجامع الكبير، ويخصص بعد الظهر إلى زيارة القلعة والفردوس التي يذهب إليها بالمركبة.

وأسواق حلب تبدي مزايا محلية أكثر من أسواق دمشق: فهي أكثر ازدحاماً، ومن كثرة اشتباك شوارعها الصغيرة لا تستطيع المركبات النفوذ إليها ومن السهل جداً أن يدخل الغريب فيها.

ويكاد أن يكون جميعها معقوداً بعقود حجرية، لهذا تكون مظلمة رطبة إلى حد ما وفي جوها كل الروائح المختلفة.

ويبدأ الزائر مسيره من ساحة الساعة الكبرى (باب الفرج، فيسلك في الزاوية الجنوبية الشرقية من الساحة شارع حمام التل (وفي أول عطفة حي اليهود (وثمة تسمى بحسيتا) وفيه كنيس قديم، ويظل سائراً فيه حتى الباب ذي القوس الفارسي الذي يدل على أنه مدخل خان الحرير (ويمكن أن يقضي هذا القسم من التجوال في مركبة)، وينعطف نحو اليسار أمام سيل ماء وذلك في داخل امتداد شارع العقبة، فينفد بعد ذلك في الشارع الأول الأيمن، فيجد نفسه فوراً بين مدخل الجامع الكبير (وهو على اليمين) ومدخل المدرسة الحلوية التي تواجهه.

أسس الجامع الكبير في بدء العهد العربي في مكان المقبرة المحيطة بالكاتدرائية، وقد أعيد ترميمه مراراً بحيث لم يبق من بنائه الأول أي أثر. وهو في حالته الحاضرة يعود تاريخه على الأخص إلى القرن ١١/٥ و ١٢/٦. وأجمل قسم فيه هو المئذنة المرتفعة إلى ٤٢ متراً، وقد شيدت في القرن ١١/٥ من قبل السلجوقيين. ويلحظ الكتابات الجميلة الكوفية التي تزينها.

أما الحرم فعقوده ترتكز على دعائم مربعة وضخمة جداً، ولكنه أقل جمالاً بكثير من حرم الجامع الأموي في دمشق. إلا أنه يحتوي على بناء ظريف من الخشب

المنقوش في القرن ١٥/٩. وعلى يسار المحراب شبك من النحاس قد وضع أمامه شمعتان كبيرتان، وهذا الشبك يسد مدخل غرفة مبلطة بالقاشاني يزعمون أن فيها رأس زكريا أبو يوحنا المعمدان، وعليه سمي هذا الجامع.

والمدرسة الحلوية (وهي مدرسة قرآنية، (يطلب السائح الإذن للزيارة)، ليست سوى كاتدرائية حلب القديمة، التي ربما كان مؤسسها الإمبراطورة هيلانة أم قسطنطين، وفي أوائل القرن ١٢/٦ حولت إلى جامع انتقاماً من غارات الصليبيين على حلب.

وحرم هذه المدرسة لا يزال يحتفظ بقسم من البناء البيزنطي مع تيجان أعمدة جميلة عليها نقوش نبات الخرشوف وتحت إيوان الصحن محراب بديع جداً من الخشب المنقوش (١٢٤٥/٦٤٣).

وإذا رجع من حيث أتى وانعطف نحو اليمين يمر من أمام (بنك روما) وبعده ببضعة أمتار يرى على اليسار نموذجاً جميلاً لهذه الشوارع المعقودة التي تجعل لبعض أحياء حلب طابعاً خاصاً بارزاً . ثم يبلغ من فوره وأمام سيل ماء إلى شارع الحاج موسى. ثم ينعطف نحو اليمين ويسلك السوق الذي يعبق جوه برائحة التبناك إلى أن يبلغ الشارع الأول الذي على اليسار فيرى ثمة الواجهة الجميلة لجامع الفستق (من القرن ١٤/٨ وفي آخره يميز الواجهة السوداء والصفراء لخان الوزير (القرن ١٧/١١ وهو أجمل خانات حلب.

(كانت تجارة الترانزيت التي أغنت حلب فيما مضى توجب إنشاء هذه المستودعات العظيمة المسماة (خانات) لهذا ليس في أي مدينة في القطر الشامي مثل خانات حلب في كثرة العدد وضخامة البنيان وجماله).

ويعود أدراجه هابطاً من شارع خان الوزير وينعطف نحو اليسار في سوق أصلان دادا، الذي هو في امتداد شارع الحاج موسى. ثم يصل في مدة بضع دقائق إلى خان الصابون (القرن ١٦/١٠)، وواجهة هذا الخان مزينة بنافذة محاطة بإطار مؤلف من نقوش جميلة مؤلفة من أشكال متداخله متشابكة، ثم يسلك بعده شارع خان الصابون الذي يباع فيه المناديل والكوفيات الوطنية، ثم شارع العطارين ومن هذا ينفذ إلى سوق القطعية الذي اكتظت فيه حوانيت شوائي اللحوم وباعة الخبز

والمعجنات والخضروات. ويلحظ على اليمين الشوارع الصغيرة المتصلة بالجامع الكبير، وفيها الأحذية الحمراء (الصرامي) قد تراكمت في حوانيت صناعها. على اليسار خان الكرك وأمامه قبتان متهدمتان (من القرن ١٢/٦) وهو مكان الكرك قديماً، ويستعمل الآن سوقاً للنقد (بورصة) وإذا استمر ماشياً في الشارع وقطع سوق القصابين أعلى اليمين خان من القرن ١٦/١٠ له مصاريع من الحديد عليها كتابات، ثم يصل فوراً إلى جامع البهرامية (وهو على اليسار) ثم إلى دكاكين خشبية صغيرة لصباغين. وبعدها ببضعة أمتار ينتصب عند مصلبة واجهة جامع التوتة، وكورنيش هذا الجامع نقوش بديعة جداً من عهد الفاطميين (القرن ١٢/٦). ثم يقابل باب أنطاكية (القرن ١٣/٧) وهو مصدوف ببرجين مثمني الأضلاع. وبعد أن يجتاز الباب ينعطف نحو اليمين متتبعاً السور فيلاقي نفسه في ساحة باب الفرج بعد أن يكون قد مر من مصلبة باب جنين التي فيها سوق مزدحم يقام في العراء.

ولأجل الوصول إلى القلعة يغادر باب الفرج سالكاً جادة الخندق وصاعداً نحو السراي القديمة والبلدية.. إن قلعة حلب قد شيدت فوق تل كبقية قلاع بلاد الشام ويظن البعض أن هذا التل يمثل المدينة القديمة الأثرية، ولكن الواقع ليس كذلك. لأن كل هذه القلعة قد بنى فوق صخر. وسور هذه القلعة الذي أعيد بناؤه في القرن ١٦/١٠ قد تهدم معظمه بالمرة. إلا أن مدخلها المعدود من أجمل المباني العسكرية في العصور المتوسطة لا يزال سالماً. وكان البدء في ترميم هذه القلعة على عهد الملك الظاهر غازي في أواخر القرن ١٢/٦ فقد بنى هذا الملك على وجه منحدر تل القلعة بلاطاً من طرف الخندق إلى أسفل السور وذلك ليرد عدوان النقابيين، وصدّف الباب ببرجين عظيمين، ووصل الباب بالمدينة بجسر في قربه مصنع بارز أعيد بناؤه في القرن ١٠/١٦ مكلف بحمايته. وإذا عبر الزائر الجسر عليه أن يسلك خمس عطفات في دهليز المدخل، وفي هذا الدهليز ثلاثة أبواب مترادفة، منها بابان قد احتفظا حتى الآن بمصاريعهما القديمة المعمولة من الحديد المدقوق والمزين بنعال الخيل (القرن ١٣/٧)، وفي أعلى الباب الأول يرى الزائر ثعبانين متشابكين، ملتفين، وفي أعلى الباب الثاني أسدين متواجهين يتناطحان، وفي أعلى الباب الثالث أسدين آخرين قد دخل نصفهما في الجوار المشرف على هذا الباب. وكل هذه الصور كان يظن أن لها

مقدرة سحرية. وفي سنة ١٢٥٨/٦٥٦ لما استولى المغول على حلب دكوا أسوار القلعة، فرممها السلطان المملوكي خليل بعد حين. وإلى هذا الترميم تشير الكتابة الطويلة الموجودة في الواجهة، وقد ذكر السلطان فيها بألقاب (سيد الملوك والسلاطين، محي العدل في العالمين، اسكندر الزمان، فاتح العواصم).. وفي سنة ١٤٠٥/٨٠٨ بنى الوالي باشورتين في حدود الخندق وعقداً بين برجي المدخل، ورفع فوق السطح الذي حصل على العقد ردهة كبيرة مسقوفة بتسع قباب لا تزال مزينة - بتصاوير أخلاقية، وواجهة هذه الردهة مزخرفة أيضاً بنقوش جميلة. وكانت هذه الردهة تعد (قاعة العرش) ومدخلها الذي عبارة عن رتاج من الزخرف المقرنص) ينفتح على باحة صغيرة بديعة الشكل.

ووسط القلعة خراب بيد أنه يرى على اليمين وهو خارج من برج المدخل رتاجاً بديعاً للغاية أصفر اللون وأسوده وهو مسقوف بعقد مقرنص. وهذا الرتاج هو دون ريب باب حمام (القرن ١٤/٨)، وإلى أعلى ينفتح باب البهو الكبير.

وإذا عاد فسلك الطريق الصاعد من المدخل يصل إلى مسجد صغير بناه نور الدين سنة ١١٦٧/٥٦٣ لشرف النبي إبراهيم الذي يروون أنه أقام في حلب مدة فسميت هذه المدينة باسمه، وفوق ذلك بقليل يصل إلى جامع القلعة الكبير (١٢١٣/٦١٠)، وهو نصف خراب، ومن المفيد أن يصعد إلى المئذنة ففيها يشرف على منظر عام جميل لمدينة حلب، فتظهر قببها ومآذنها وأسطحتها وضواحيها، ويظهر في شمالها الغربي جبل (كرد طاغ) وفي غربها جبل الأعلى وفي الجنوب الشرقي بحيرة الجوف تلمع في الأفق البعيد.

وفي قرب طاحون الهواء الذي بناه المصريون خلال استيلائهم على بلاد الشام ينفتح بئر محفور في الصخر في القرن ١١ من قبل السلطان ملكشاه السلجوقي. ولا يقل عدد درجات هذا البئر عن ٢٢٠ درجة.

وفي الساحة التي أمام القلعة، حيث يقام كل يوم جمعة سوق عام مزدحم، يرى أمام مدخل القلعة ضريح الملك الظاهر غازي وهو مدفون إلى نصفه. وعلى مقربة منه قد بنيت سراي الحكومة الجديدة، وفي الطرف الآخر من الساحة تنتصب مدرسة

آق بوغا الأطروشي وفيها ضريحه، وكان حاكم حلب، (١٤٠٥/٨٠٨) وأخيراً على حافتي خندق القلعة يرى حمام قديم قبته مزينة بتصاوير (القرن ١٥/٩).

وإذا ترك القلعة واتجه نحو الجنوب يبلغ حمام الخصيان المسمى جامع الطواشي من القرن الثامن، ثم يسلك شارعاً حتى يبلغ باب المقام (من القرن ١٥/٩) ومنه يخرج إلى خارج المدينة. ثم يبلغ فوراً بتكية صغيرة ذات قبتين هي ضريح خير بك آخر حاكم من المماليك الشراكسة في حلب، وهو الذي تآمر على مولاه السلطان قانصو الغوري وسلم حلب إلى السلطان سليم العثماني (١٥١٦/٩٢٢) ثم بعد قليل يلحظ في الجنوب وسط المقابر مدرسة الفردوس التي تميز عن بعد بقبتها الإحدى عشرة ومآذنها الصغيرة الحديثة التي تعلو فوق إيوان، إن هذه المدرسة قد بنتها في القرن ١٣/٧ ضيفة خاتون زوجة الملك الظاهر غازي، وهي كانت في الوقت نفسه مدرسة ورباطاً وضريحاً. وواجهة هذه المدرسة مثقوبة برتاج جميل مقرنص ومزين بكتابة أنيقة جداً. وصحنها مع نافذة النور الكبرى التي في إيوانها، وحوض الماء المظلل بالعرائس وبصف خفيف من الأعمدة المحيطة به، ولعل هذا الصحن أجل الآثار الحميدة للفن السوري في العصور المتوسطة. أما الحرم فيحتوي على أجمل منبر في حلب، وهو مرصع بقطع الرخام المتعدد الألوان. وعلى مقربة من مدرسة الفردوس المدرسة الظاهرية، ولهذه أيضاً رتاج جميل، لكن داخلها خراب بالمرة.

ـ ولا تكمل زيارة حلب إذا لم يلج الزائر إلى داخل بعض بيوتها القديمة ذات النقوش والتزيينات الصالحة للتصوير، وإذا لم يتفحص المجاميع الأثرية القيمة الخصوصية كالتي لدى بعض محبي الآثار، ومنهم ماركويولي، وزيارة هذه المجاميع تحتاج نواحي خاصة.

ضواحي حلب

المدن الموات في الشام الأعلى

إن اكتشافات المركيز دوفوكي (١٢٧٧/١٨٦٠ - ١٢٧٨/١٨٦١) والبعثات الأميركية التي أعقبته (١٣١٧/١٨٩٩ - ١٣١٩/١٩٠١ - ١٣٢٣/١٩٠٥) عرفت أن في الشام الأعلى أكثر من مائة مدينة موات "التي مناظرها تنقل السائح إلى وسط حضارة ضائعة وتظهر له كل أسرارها" والتأثير الذي توجده في قلبه "تشبه تأثير بومبي"، على أن هذه أجدد. وفي الواقع إن كل هذه المدن.. تؤلف مجموعة كل شيء فيها قد ارتبط واشتبك وانتسب إلى طراز واحد وأسلوب واحد، وأخيراً إلى عهد واحد. وهذا العهد هو عهد النصرانية الأول الذي امتد من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي (الكمام لفوكي).

ولم يبق من المدن التي كانت مالئة أرض الشام في عصور النصرانية الأولى سوى هذه التي نذكرها، لأنها بقيت مهملة منذ غارات الفرس والفتوحات العربية في القرن السابع، وهي لم تتضرر إلا من تأثير الزلازل الأرضية ومن كوارث الدهر. وخرائب هذه المدن، التي لاتزال محفوظة حفظاً يدعو إلى الاستغراب قامت على سيف البادية في شرقي حماه وفي جبل الزاوية بين حماه وادلب وفي جبل باريشا وجبل الأعلى في الشمال الغربي من حلب. إلا أنها ستتلاشى حتماً كلما كثر عدد السكان كما حدث في كنيسة ترمانين إذا لم يؤسس ثمة حراسة صارمة.

وبين مجاميع هذه الخرائب اكتشف العلماء بعض الفروق في العهود والطروز. فمباني جبل الزاوية مثلاً هي أقدم من التي في جبل باريشا بنحو قرن وتتصل أكثر بالطراز الكلاسيكي. ولكن التصميم العام للمدن وللعمارات الممتازة قلما يختلف، وكل مدينة لها سور محيط بها عليه عدة أبراج للحراسة، وفيها شوارع مبلطة شيدت على طراز واحد أو طرازين ظاهرين تماماً. أما البيع، فأولها البازيليكات المتطاولة ذات الصحون الثلاثة التي حنيتها مجنحة بغرفتين مستطيلتي الشكل، البروتزيا في اليسار والدياكونيكون على اليمين) والحنية المذكورة كانت تبنى قبلاً على شكل نصف دائري، ثم جعلت أكثرها مؤخراً مربعاً في تصميم بديع ندر أن يكون

على شكل مركزي أو مسدسي الأضلاع. ومما تمتاز به مباني الفنادق أن لها أروقة تحيط بها من جهتيها أو من عدة جهاتها أبهاء عمومية واسعة. وكانوا يعرفون عرض البضائع التجارية في أسواق على شكل دهاليز متطاولة قليلة العمق تحد الشوارع. وكانت القصور كثيرة جداً وحول كل منها عدة باحات مسورة مستورة الداخل، كما هي حال الشرقيين، وفي داخل هذه القصور كان يوجد باحة متكاملة حولها مجموعتان من أماكن السكن، مزينتان في واجهتيهما الداخليتين بصفوف الأعمدة والغرف العديدة، وهاتان المجموعتان متقابلتان وجهاً وبينهما المباني المخصصة للخدمات المختلفة، من جهة، وجدار السور وباب المدخل من جهة أخرى. وفي أطراف المدينة كانت تمتد المقابر: وفي هذه أضرحة قبور من تصاميم مختلفة منقورة في الصخر، أو مدافن مبنية بشكل هيكل ذي مدخل مزين أو بشكل هرمي أو أضرحة ذات قباب من حجر، ثم هناك نواويس ضخمة موضوعة على سطح الأرض أو فوق قواعد، وهناك أعمدة مؤلفة من عدة أسطوانات منتصبة نحو السماء. وفوق كثير من المباني الكبيرة وفي جانب الأشعرة الدينية وطرر المسيح، كانت تبرز كتابات تدل على تاريخ البناء واسم صاحبه أو اسم الميت إذا كان في المدفن. ناهيك بالجمل المختصة بالطقوس الدينية، أو بالدعوات أو بالتمنيات وكلها تدلنا على اتجاه التفكير لدى بنائي تلك العمارات قبل أربعة عشر قرناً.

وكل هذه المباني الأثرية مشيدة بقطع منحوتة جميلة من الأحجار الكلسية الناعمة جداً المطلية بملاط سنجابي أو مذهب. وهي تدهش بجسامتها وفخامتها، وتثير العجب من كونها ذات زخرف أصلي ونافذ. وإذا عدلنا عن التنويه بالفسيفساء وبالقطع ذات الألوان المختلفة التي وجدت، فإن عتبات وقوائم الأبواب وحنايا بعض الخورسات في البيع والنقوش البارزة والكورنيشات في الواجهات مزينة بأوراق الأشجار وبخمائل مدلاة وبصفوف من البيض المزخرف الذي يمثل الأحجار المنقورة في بعلبك وتدمر.

ولم يؤسس هنا إلا الفن البيزنطي الذي أعاد لبلاد الشام تصاميمه وقواعد بنائه، وأماكن . هذا على الرغم من أعمال الأستاذ سترزيكوفسكي . ولكن بيزنطية مدينة إلى هذه البلاد دون ريب. عقائدها الدينية وزخارفها المنقوشة.

١. الخرائب التي تزار في الطريق الحديثة بين حلب والاسكندرونة.

٢. قلعة سمعان ودير سمعان

دعس = ٤٣كم، ١ ساعة و ٤٥ دقيقة.

يتبع الزائر أولاً الطريق الحديثة بين حلب والاسكندرونة، ثم يتركها عند الكم ٣ أبعد ١٤ دقيقة، قبل بنيامين، وثمة لحب يتفرع ويتجه نحو الشمال ثم الشمال الغربي باتجاه مستقيم نحو جبل الشيخ بركات الذي كان اسمه عند الأقدمين (جبل قريفة)، ومثلث هذا الجبل يعلو نحو ٩٠٧م ويشرف على كل تلك البقاع. في الدقيقة ٣٠ على اليمين، الخندق، حوش محصن، ثم كروم التين خاصة قرية كفر ديهة. في الدقيقة ٤٠ قرية بشانتا. في الساعة ٢ والدقيقة ١٥ على اليسار فوق منحدر أكمة (المشبك)، ثم خربة تحمل الاسم المذكور، وهي منعزلة في ذروة الأكمة.

هذه الخربة عبارة عن بازيليكا لا تزال على سلامتها التامة بحيث يكفي أن يوضع لها سقف ومذبح لتصبح صالحة للصلاة. والقسم نصف المدور المتمم لخورس الكنيسة ذو الخطوط المستقيمة هو ثقيل نوعاً ما لأن الحنية قد أقحمت في داخل سماكة الجدار الأخير. أما مجموع تصميم البناء فهو رشيق وجسم البناء طويل، ذرعه ١٨.٥ م في ١٣.٧٥ م، وهو منقسم على صفين ذوي خمسة أعمدة علو كل منها ٥م، وصف الشبابيك الذي في أعلى صحن هذه الكنيسة قد فتح على اليمين وعلى اليسار، وفيه تسعة شبابيك، وعلو سقف الكنيسة الذي كان من الخشب يبلغ ١٣م. وتيجان الأعمدة من طرز مختلفة. أما الزخارف فهي متوسطة في الجودة وبناء هذه الكنيسة هو في الجملة من أبدع نماذج الريازة الشامية في أواخر القرن الخامس.

في الساعة والدقيقة ٣٠ دارة عزة، قرية كبيرة إسلامية، مبنية فوق خرائب قديمة في مطاوي الجبل.

ومن دارة عزة يمكن لراكب الخيل أن يبلغ خلال ساعتين قمة جبل الشيخ بركات وفيها ضريح ولي وأطلال هيكل كان مخصصاً للإله.

وثمة لحب صالح للسيارات ينفصل نحو اليمين من دارة عزة ويبلغ خلال نحو ١٧كم الطريق الحديثة من حلب إلى الاسكندرونة ماراً بتل عدي (٧كم) وحرزة (١٠.٥كم) ودانا (١٥كم).

وينحدر لحب قلعة سمعان في شمال دارة عزة نحو سهل صغير متطاول، ثم يترك على اليسار قاطورا (وفيها دسكره ومقبرة رومانية، ومجموعتان من الأعمدة لكل منها عمودان قبوريان، ومدافن منقورة في الصخر، مع صور أشخاص وكتابات).

(ويلحظ في قاطورا بيت جميل يعود تاريخه إلى ١٠ آب سنة ٥١٠، ويتقدم الطبقة العليا منه دهليز محمول على أعمدة ودرابزينات مزينة. ولصف الأعمدة جهة مزينة بالزخارف والنتوءات تنتهي في جوانبها بزخارف حلزونية وتيجان الأعمدة مختلفة الطروز، وفي بعضها صلبان).

ثم يترك السائر على اليسار قرية دير سمعان (وسيأتي ذكرها).

وفي الساعة ١ والدقيقة ٤٥ قلعة سمعان، وثمة عقبة كأداء قصيرة المدى لابد من تسلقها تنتهي بين الدير في الشمال ومكان المعمار في الجنوب إلى الغرفة التي تشرفت بمقام القديس سمعان العمودي.

التاريخ: ولد سمعان سنة ٣٩٠م وبعد أن قضى أدواراً شتى من حياة النسك، جاء إلى هذا الدير واستقر فيه سنة ٤١٢، وقد ساقه الولع بالعزلة والشغف المتزايد بحياة النسك إلى أن يطلب من رئيسه إذناً بالسكنى في حجيرة موضوعة على قمة عمود، وكان علو هذا العمود يزداد تدريجياً من ١١ ـ ١٧ ـ ٢١ وأخيراً إلى ٣٠ ذراعاً. وهذا العمود الأخير كان يتألف من ثلاث اسطوانات تيمناً بالثالوث الأقدس. وقد نحت في نفس المكان، في صخر الجبل ونصب من قبل رفقاء القديس. وكان حول العمود محاطاً بجدار صغير من الحجر لوقاية مسكن القديس. وقد عاش سمعان ٧٢ سنة فوق هذه الأعمدة المختلفة، التي كانت محجة الزوار المتقاطرين لاستماع مواعظه. وأخيراً مات في ٢٧ أيلول سنة ٤٥٩ وقد دفن بادئ ذي بدء في قمة مكانه الأخير ثم نقل باحتفال عظيم إلى إنطاكية ودفن في كنيسة قسطنطين ولم يحل موت سمعان دون استمرار الحج الذي بدأ في حياته. وأخيراً حدا النفي بمريدي هذا القديس، إلى

أن بنوا هذا البناء التذكاري الحامل لاسم القدس وقد زار افاكريوس هذا البناء سنة ٥٦٠ م ووصفه وصفاً مفصلاً ينطبق تماماً على الخرائب الحاضرة).

كان دير سمعان وهو في شمالي الأكمة محاطاً بسور محصن بأبراج وهو يحتوي على بازيليكا القديس سمعان وعلى مباني رهبانية مع كنيسة لكل منها وعلى كايللا قبورية.

والبازيليكا شيدت في أواخر القرن الخامس، وهي بناء أثري أصلي (ويمكن أن يقال عنها دون مبالغة إنها حلية ثمينة في جيد الريازة الخاصة ببلاد الشام المتوسطة وإحدى الآثار البارعة في الجمال في الفن النصراني (قاله ديهل).

وهي تجمع نموذجين الكنيسة المستعملة في تلك الحقبة: البازيليكا ذات الصحون الثلاثة المتطاولة والبناء المدور الشكل أو المسدسي الأضلاع القائم على تصميم مركزي. وقد انتخب كمركز للبناء ذات العمود الذي استقر فيه القديس سمعان. وقد أحاط المهندس المعمار العمود المذكور بشكل مثمن الأضلاع والزوايا ذي سماء مكشوفة، طول قطر الخارجي ٣٠.٥م، وجعل فيه عقوداً على شكل أقواس علوها ٩.٥م، ثم شعب فوق هذا المثمن أربع بازيليكات مصفوفة على شكل صليب. فالشرقية منها المنحرفة انحرافاً محسوساً عن محور البازيليكا الغربية لكي تقترب من الشرق الحقيقي والمنتهية بحنية بارزة، هي التي تؤلف الكنيسة الأصلية وهي المخصصة لذكرى القديس العمودي. أما بقية البازيليكات فهي عبارة عن خراشيم واسعة مخصصة لاحتواء جموع الحجاج.

ويدخل إلى الدير كما كان في الماضي من الرواق الأنيق الذي في الجنوب، ولهذا الرواق ثلاث فجوات غير متساوية يعلوها فرونتونات مثلثية الشكل، وقد كانت نقاط اتصال هذه الفرونتونات تستند على كمرات محمولة هي الأخرى على دعائم بارزة. وكان هذا البناء يحتوي على كل العناصر التي لبوابات كنائسنا الرومانية. والانحناء الذي أعطوه إلى الزخارف ذات الشكل الخرشوفي في تيجان الأعمدة وجعلها كأنها منحنية بفعل الرياح إنما هو حادث جديد ذو عبرة قد اقتبست منه بعد الزيارة البيزنطية والريازة الصليبية في باب كنيسة القيامة.

وبعد أن يجتاز الزائر باب البازيليكا ذا الفجوات الأربع يجد بين الأطلال المهدومة المثمن المركزي والقاعدة التي كانت لعمود القديس وهي لا تزال منظورة. وهذه القاعدة عبارة عن مكعب من الحجر منحوت نحتاً دقيقاً في الصخر تبلغ مساحتها نحو أربعة أمتار مربعة، وهي تعادل دون ريب للمساحة التي كانت لسطح تاج العمود الذي كان القديس مستقراً عليه من علو عشرة أمتار.

والبازيليكا الشرقية الذي لها جدار خارجي يفصلها عن المثمن هي أطول من الأذرع الثلاثة للصليب وطولها من الخارج يبلغ ٤٣,٢٠م وقد زال منها صف الأعمدة، لكنها لا تزال محتفظة بحنيتها الثلاثية التي استندت استناداً صحيحاً إلى الشرق. والقسم نصف المدور المتمم للحوزى في هذه الحنية الذي يمكن بلوغها إذا دار الزائر دوراناً تاماً حول البناء من جهة الغرب والشمال، فقد كان مزيناً بصفين من العويمدات الراكب بعضها فوق بعض كما هو الحال في قلب لوزة ومما يؤسف له أن الأعمدة والتي كانت قائمة سنة ١٨٩٥/١٢١٣ قد تهدمت الآن بالمرة.

والمنحنيات الغربية والشمالية من الصليب كان طولهما - كما هو الحال في البازيليكا الجنوبية - نحو ثلاثين متراً. وقد كان النظر يمتد من الصومعة التي في طرف البازيليكا الغربية نحو وادي نهر عفرين وعلى كرد طاغ ولا يزال بالإمكان التمتع بهذا المنظر من الباحة المكشوفة التي أمام الدير في شمالي البازيليكا، ويرى أيضاً على هذه الباحة المكشوفة الكايللا الخاصة بالأموات المنحوت نصفها في الصخر والبرج الزاوية الذي يمكن أن يطل الناظر بنظرة واحدة على مجموع بازيليكا القديس سمعان المؤثرة والجديرة بالتصوير).

وينبغي للزائر أن يعود أدراجه كيما يزور المباني الرهبانية القائمة شرقي البازيليكا الجنوبية.

تتجه هذه المباني نحو باحة داخلية متطاولة - لها أروقة ذات ثلاث طبقات، وقد استطالت بالكنيسة الديرية وهي تشغل الجهتين. وفي وسط هذا الميدان الممتد أمام باب الكنيسة الكبير وقرب الكنيسة الجنوبية مكعب من الأحجار المحززة من درج كأنه دون ريب قاعدة عمود يسكنه بعض المؤتمين بالقديس العمودي.

والدير كان مغلقاً في وجه جموع الحجاج في الأيام العادية على الأقل. وهذه الجموع بعد أن تنتشر في المعبد الواسع كانت تبلغ فنادق الدير التي في الجنوب، وهي مارة من قرب مكان العماد ومن السكة المقدسة.

ومكان العماد هذا هو بنية تشرف عن بعد ٢٠٠م من الدهليز الأمامي للكنيسة على الردف الجنوبي للأكمة وكان لهذه البنية بريج منارة مثمن الأضلاع مبني فوق قاعدة مربعة، وكان على رأس هذا البريج مخروط من الخشب المنجر. وفي الجنوب الغربي لهذه البنية باب ضخم للغاية كان يوصل منه إلى الطريق المقدسة التي كان فيها قوس نصر.

ويوصل إلى دير سمعان من عقبة كأداء تستغرق ١٠ دق وكان هذا الدير يدعى فيما مضى في السريانية تل نيشة ومعناه تل النساء، وفي اليونانية تلانيسوس، وتعزى مكانة هذا الدير وربما أيضاً يعزى أصله، إلى الزيارات والحجات التي بدأت قبل موت سمعان العمودي بـ ١٥ سنة واستمرت إلى أواخر القرن السابع. وبعد أن كان عدد مباني الدير اثنين أو ثلاثة أضاف إليها الرهبان بادئ ذي بدء أماكن الضيافة ثم ألحقوا بهذه نُزلاً خاصة. وثمة كتابة يدعو كاتبها لصاحب إحدى هذه النزل "بالصحة والمتعة" وليس ثمة سوق، إلا صف من الدكاكين في جنوبي الخرائب. كما أنه وليس هناك أي دسكرة خاصة، إلا أن تكون تلك البنية العالية ذات الآزاج الثلاثية الواقعة وسط الخرائب فلعلها نزل أنيق خاص.

وماعدا هذا البناء الأثري فإن العمارات التي فيها فائدة تقوم في أربعة أركان هذه الخطة. وفي النقطة التي تبلغ الطريق المقدسة الخرائب يمتد سبيل أثري نحو الجنوب فيبلغ الأروقة المتشابكة التي تدل كتابة وجدت فيها على أنها عائدة إلى منزل، ثم يبلغ السبيل المذكور صف الحوانيت الصغيرة الخشبية التي في السوق. وفي الجنوب الشرقي ووسط هوة في الأكمة تظهر للممعن الآزاج المثيرة لمنزلين، ثم ينبغي للزائر أن يعود أدراجه ويسير محاذياً كل الطرف الأيمن للبلدة إلى أن يبلغ في الشمال الشرقي الكنيسة الشمالية التي الدياكونيكوم فيها يرتفع كالبرج قرب باب جيد الزخرف ومن ثم ينحرف نحو الغرب ماراً بين الأطلال فيبلغ البنية الثلاثية الآزاج التي تقدم ذكرها، ثم الكنائس التي تعرف بسهولة، وهي في الشمال الغربي وفي

الجنوب الغربي وكل من هذه الكنائس كان مخصصاً بحسب جسامته إلى حضور عدد من الزوار، على أنها كانت تحسب قسماً من الأديرة التي تلتحق بها أيضاً النزل. والدير الشمالي الغربي يشغل مستطيلاً ذرعه ٧٠م في ٥٠، والكنيسة التي سعتها ٢٢م في ١٦ قد انقسمت إلى صفين كل منها ذو خمسة أعمدة، وهي تنتهي بحنية مدورة عمقها ٤.١٨م هذا وبين الدياكونيكوم والبروتزيا وفي وسط كل منهما وقبل الأعمدة الأخيرة قد حفرت شقوق عميقة، لعله كان يقحم فيها المغطي للقسم الخاص بالنساء. وفي الأسفل نحو الشرق يوجد القسم المؤلف من آزاج مغطاة تحيط بباحة، وهو مقبري (السور المقبري) ومربع الشكل وهو بناء فريد المثال. ويلج إليه الزائر من الباحة الداخلية الكائنة في شمالي الكنيسة ومن ثلاث فجوات كما وهنا تستند على أعمدة كبيرة ذات تيجان كورنثية. وفي الجهات الثلاث الأخرى ذو طبقتين، قد ثقبت فيه خمس فتحات في كل من جبهاته، وقد بنى من الدعائم ومن جسور في الحجر الكلسي. وفي الطابق الأسفل في الجدار النهائي قد حفروا ٥ ـ ٦ وذلك حسب الجهات. والدير الجنوبي الغربي قد امتاز بالخاصة بكنيسة يبلغ طولها نحو ١٧م في ٨ م وهي ذات صحن واحد وحنية مدورة، أما علاقة هذا البناء فهو مثير للعجب. ففي شمالي الكنيسة وغربها باحة محاطة بسور ذي أزاج مغطاة بجمع بناء رهباني إلى فندقين، وفي الشرق وخارج السور المذكور مقلع أحجار حولوه إلى صهريج، وبعده بمسافة قرب البيادر انحناء مقعر لعقد قائم فوق ضريح، جدير أن يقف فيه الزائر ويستريح برهة.

ويجتاز الزائر الزاوية الشمالية الشرقية من القرية ليلاقي سيارته في أسفل قلعة سمعان.

إن جبل سمعان يحتوي على عدة خرائب نصرانية أخرى، إلا أن الوصول إليها عسير في مجازات كأداء لا تقطعها إلا البغال. فالخيالة الأشداء أو المشاة المتمرنون يمكنهم أن يسترشدوا بالدليل الآتي الذي يمر بأماكن تحوي على كل الخرائب، وفيه فائدة اتصاله بالطريق القديمة بين حلب والاسكندرونة حيث يمكن للسيارة أن تنتظر السائح.

فمن قلعة سمعان يتجه نحو الشرق فيبلغ في الكم ٥ تقريباً فافرتين (فيها كنيسة تاريخها سنة ٣٧٢م، ثم ينحرف نحو الشمال ويتجه نحو (في الكم ٨) برج حيدر ومن ثم في (الكم ١٠) كفر نابو، وفي الكم ١٣ باراد.

ومن باراد يعود نحو الجنوبي الشرقي فيبلغ بعد (الكم ١٧) برج القاص ثم ذوق الكبير (وفي الكم ٢٠ تقريباً) ومن ثم يلحق بعد عناءان (في الكم ٣٠،٥) وحوريتان (وهي في الكم ٣٤) يلحق الطريق القديمة المذكورة وإذا أراد يستمر سائراً من باراد نحو الشمال فيمر من قيمار وصوغانات ودير محيش فيلاقي في جبول لحباً صالحاً للسيارات يوصله إلى كفر الطون .

٢ ـ جبل باريشا

١٠٥ كم في طريق السيارة، ٣،٥ ساعة سيراً على الأقدام، وينبغي أن يوصى على الخيل وعلى دليل من سرمدا (ومن الحيطة أن يأخذ معه من حلب سرجاً وركائب) ويبعث بوقوفها في برج المدخر . أما في الربيع فالمشاة المتمرنون يستطيعون أن يطوفوا على أرجلهم مستصحبين الخريطة والبوصلة.

٥٠ كم من حلب إلى برج المدخر (وهو كنيسة خربة)، وهو على مقربة ويسار طريق حلب ـ الاسكندرونة وبعد باب الهوا .

ويلج المجاز في الوادي المتعامد على طريق السيارات وهو ينفتح في الشمال الغربي من الخربة. ثم يدور هذا الوادي فوراً نحو اليسار. في الدقيقة ٢٠ باعودة تظهر في الغرب حينما يبلغ السائر العرفة. وقد كانت هذه السوق الأعظم لهذه الكورة في جوار السكة الرومانية. ولا تزال شوارعها ظاهرة، وحول هذه الشوارع أروقة ذات طبقتين تتقدم أمام أزاج قليلة العمق صالحة لعرض البضاعة. وفي غربي هذه الخطة الأثرية وعلى السبيل الصاعد إلى بابسقا بنية يذكر وضعها بتلك التي يزعمون في سر جيللة أنها (قهوة) وفي الجبهة الغربية عتبة باب غريبة الشكل.

في الدقيقة ٣٥ بابسقا ـ التي كانت مركزاً أنيقاً للتجار الأغنياء. وفي الجنوب الشرقي من بابسقا حمامات مهمة، وفي شمالها الغربي، عتبات كنيسة من القرن الخامس نقشت فيها أشكال هندسية وضفائر. وكان المهندس المعمار هنا هو الراهب مركيانوس كيريوس الذي عمل في قصر البنات ودار قيطا. ويلمح الناظر

على بعد ٥ كم في الجنوب الغربي مدينة خربة اسمها باقرحا، وفي الغرب قرية خربة أخرى اسمها دار قيطا.

وينبغي أن يهبط الزائر إلى قعر وهدة ثم يصعد دون سبيل مخطط. وفي الساعة ١ والدقيقة ٣٥ باقيرحا التي تُرى فيها قصور ودساكر وأروقة ولاسيما كنيستان وإحدى هاتين الكنيستين التي في الطرف الشرقي من الخرائب تشرف على باقرحا كلها من جبهتها، ولا يكاد ينقصها إلا حجر واحد. والبنية التي يعود تاريخها إلى سنة ٥٤٩ كان يتقدمها في مخطط مكان مغطى ذو أربع دعائم. أما الكنيسة الغربية فلم يبق سوى مكان عماد مربع الشكل، وثمة في جوارها قمة بارزة تشرف عن بعد على سهل سرمدا وتدعى اليوم برج باقرحا، وقد كان فيها هيكل وثني لا يزال محفوظاً منه الباب الفخم المخصص إلى الكبير، وقسم من السللا (٣٣٩/١١/٨ الأعظمية).

في الساعة ١ والدقيقة ٣٥ برج ديروني وهو عبارة عن كايللا منعزلة تكاد تكون تامة السلامة.

في الساعة ٢ والدقيقة ٠٥ دار قيطا، تمتد خرائبها فوق المنحدرات الأخيرة لأحد أرداف جبل باريشا. وهي تشرف على سهل العمق وبحيرة إنطاكية، وعن بعد شاسع على الباشورات الوعرة لجبل اللكام.

تحتوي الحارة الشمالية على فندق تاريخه سنة ٤٣٦ كما يظهر من كتابة عليه، وجدرانه العالية تبدي مثالاً غريباً للعمارة ذات الأضلاع الكثيرة، وفي قربه كنيسة القديسين بولص وموسى التي بدأوا بإنشائها سنة ٤١٨ وهذه كانت بازيليكا ذات أعمدة تماثل التي في بابسقا وهي لابد أن تكون من صنع المهندس المعمار نفسه، وعتبة أحد أبواب الجدار الجنوبي مزين بزخرف بارز وبإطارات غاية في الرشاقة وفي الباحة الجنوبية مكان عماد من القرن السادس يجذب النظر فيها القبة البارزة لجرن المعمودية المنقور قسم منه في الصخر، وذلك لأجل التعميد بالغطس. وإلى بعد نحو الجنوب برج مراقبة تاريخه سنة ٥٥١م ثم مجموعة من الأروقة ذات الطبقتين وقد كانت سوقاً للتجارة. وفي الجنوب الشرقي من الأطلال بازيليكا القديس سرجيوس ولا يزال قسم من الجوف الذي ما بين كورنيشات الفرونتون

والذي يعلو القنطرة الكبيرة فوق الخورس . رافعاً رأسه نحو السماء، أما الحنية فمربعة وقد كانت مجنحة في شمالها ببروز بشكل البرج، وكان ثمة مكان عماد مجاوراً إلى الدياكونيكوم (مكان الشماسة)، وكان قدام الكنيسة مكان مغطى ذو أربع دعائم. وإذا شاء الزائر في طول البقية من الأروقة والدساكر الواقعة على حد البلدة من الجنوب يبلغ في الجنوب الغربي كنيسة الثالوث وتصميمها يكاد أن يكون مربعاً وعهدها في القرن السادس، وثمة بضعة أشجار وصهاريج قد تكون أحياناً جافة تستدعي الوقوف والتريث.

في الساعة ٢ والدقيقة ٤٠ تيزين العتيقة (أو خربة تيزين) فيها كنيسة تاريخها ٥٥٨ لا يزال الطابق الأول من واجهتها وجدارها الجنوبي سالمين. وتصميم هذه الكنيسة يماثل الذي لكنيسة الثالوث في دار قيطا، والأبواب الكبيرة في الواجهتين الغربية والجنوبية قد نقشا بزخارف على شكل ورق الخرشوف وأحيطت بنقوش بارزة ملتفة على شكل الحلزون.

في الساعة ٣ والدقيقة ١٠ قصر ابليسو. وهنا كايللا صغيرة في الجهة الشرقية تشرف على الوادي المتمعج الذي تخترقه السكة الرومانية، وعلى الطريق الحديثة بين حلب والاسكندرونة ويعزى سبب سلامة هذه الكايللا بتمامها حتى الآن دون ريب إلى أن ليس في بنائها أي عمود. وحنيتها مربعة الشكل، والبروتوزيا التي كانت مغطاة قبلاً ببرج وكذلك الدياكونيكون يتجهان مباشرة نحو الخورس الذي كان يحف به قبلاً داربزين فاصل بينه وبين صحن الكنيسة وفي الخارج، قد زينت الشبابيك والأبواب الكبيرة بنقوش بارزة تنتهي أحياناً بأشكال حلزونية. وعلى بعد قليل نحو الشرق مجموعة عمارات تحتوي على كنيسة مجنحة بمكان عماد تدل كتابة سريانية فيها على أن تاريخها سنة ٥٤١.

في الـ ٣ والدقيقة ٢٥ عين دلفة، (مخفر درك، عين ماء..) وهي على طريق السيارات تؤخذ فيها السيارة المنتظرة ويرجع بها إلى حلب (٥٥ كم) من طريق قصر البنات..

٣ ـ الجبل الأعلى (جبل السماق)

٧٣ كم، طريق حلب ـ حارم. ومن حارم ٢,٥ ساعة على الخيل حتى قلب لوزة. ولابد من أن يوصى على الخيل في حارم على أن تكون من المعتادة على تسلق الجبال.

٧٣ كم من حلب إلى حارم عن طريق بني شهر وشيخ علي .

يمر طريق الدواب من أمام رأس النبع الأصلي في حارم، وهو في شرقي هذه البليدة، ثم يصعد بسرعة نحو منحدرات جبل الأعلى . في الساعة ١ و ٢٠ دقيقة ينابل، قرية درزية بين خرائب جديرة بالتصوير منها دساكر لإحداها طابقين وفوق جدرانها أقسام عالية مثلثة الشكل مستدقة . وفي جنوبي القرية عمود مقبري. ثم يتوقل الطريق أحياناً عقبات كالأدراج المنقورة في الصخر ولا يزال يصعد إلى أن يمر قرب خربة بريش ويترك في الشرق أطلال قرقبيزة، وفيها كنيسة ودسكرة.

في الساعة ٢,٥ قلب لوزة، وهي قرية درزية، سكانها نحو ١٥٠، بنيت في طرف الرابية وفي أسفل كنيسة من أجمل ما وجد في بلاد الشام.

إن ذرع هذه الكنيسة ٢٥م في ١٥. وهي مقسمة على ثلاثة صحون بصفين من العقود، الثلاثة ذات المدى الهائل. فهي إذن بازيليكا ذات دعائم وحنايا تشبه التي في رويحة. وثمة أمام الكنيسة دهليز فارتكس وهذا الدهليز مجنح بأبراج ذات طبقتين بينها ينفتح حنية عريضة ومقعرة. والقسم نصف الدائري المتمم للحوزى مزين برتبتين من الأعمدة الراكب بعضها فوق بعض بدون كورنيش متوسط بين الرتبتين.. والقسم نصف الدائري، وكذلك صدر الكنيسة هنا مشابهان برسومهما وتزييناتهما إلى القسم نصف الدائري وصدر الكنيسة الموجودين في دير القديس سمعان العمودي .

والقسم الأعلى في الصحن الكبير من هذه الكنيسة قد فتحت فيه نوافذ بينها عويمدات موضوعة على شكل الشرفات البارزة، كانت تحمل الأفاريز المخصصة لحمل هيكل البناء. ذي القطع المنفسحة والسقف كان مغطى في الواقع بالخشب، وأما القسم الأسفل فكان على العكس، يمتد عليه غطاء ثقيل من البلاط المنحوت من الحجر الكلسي طوله خمسة أمتار ويؤلف في الخارج كورنيشاً. ولا يزال فوق السور الجنوبي قسم من هذا الغطاء.

وربما كانت هذه الكنيسة البديعة الجمال من أواسط القرن السادس. وهي لم تكتفِ بإلقاء وحيها على معماري البازيليكات ذات الحنايا بل أيضاً على البنائين المتأخرين مثل بوسان معمار كنيسة فورفيمار الشهيرة بتقاطر الزوار إليها، وهي قرب مدينة ليون في فرنسا. ومثل المعمار الإيطالي الذي بنى أخيراً بازيليكا جبل الطور (فلسطين).

ويمكن أن يعود الزائر إلى حارم من نفس الطريق خلال ٢.٥ ساعة.

ومن قلب لوزة يتيسر القيام بعدة نزهات. إن في جبل الأعلى وإن في جبل باريشا وهما طودان يؤلفان حقولاً حقيقية من الخرائب، لكن الوصول إليها على غاية من الصعوبة، ولذلك سيكتفي على وصف دليل يمكن الخيالة والرجالة ذوي الشغف أن يبلغوا في الجنوب لحبا صالحاً للسيارات التي يرتبطون معها بموعد.

فمن قلب لوزة مجاز يتجه نحو الجنوب يمكن من بلوغ بهو (نحو ٢ كم) وفيها كنيسة تغرى بالنظر. ثم بعد قصر الدير (٤.٥ كم) كفر كيلة حيث يوجد كنيسة من القرن الخامس أو السادس، جديرة بالنظر لاحتوائها على مدرج مربع الشكل يحيط بسور الكنيسة ولواحقها، وللتزيينات الموجودة في أبوابها الجانبية، ومن كفر كيلة يمكن أن يتجه نحو الغرب ويصل بعد ١.٥ كم إلى بشندلايا حيث يزور فيها قبر طيباريوس كلوديوس صوصاندروس، وهو مدفن تحت الأرض غاية في الجمال منقور في الصخر، ومثله الباحة التي تتقدمه والمنحدر الذي يوصل به إليها. ومدخل هذا القبر مؤلف من أربع دعائم ضخمة وجيدة الحجر اثنتان منها قد وقفت على الصخر وثمة كتابة يونانية على الأحجار الضخمة المحمولة على الأعمدة يفهم منها أن هذا القبر انتهى عمله ٢٤ نيسان ١٣٤. والفريز بأشكال الأكاليل ورؤوس الثيران المسلوخة. وغرفة القبر منقورة في الصخر محاطة بثلاثة شباكي كبيرة مستطيلة وناووس موضوع في الصدر ومقحم في كتلة الصخر والكتابة المذكورة على باب المدخل قد استنسخت على نوع من المسلات المنتصبة إلى جانب المدفن. وهذه المسلة الوحيدة الحجر ذات علو قدره نحو سبعة أمتار وطول كل من أضلاعها ٩٠ سنتمتراً، وفيها غير الكتابة رسوم اثنين من الموتى المنقوشة أشكالها في صدر المشكاتين.

ومن كفر كيلة يعود أدراجه حتى قصر الدير ومن ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي ويمر بسردين ومازاتا (نحو ١٠,٥ كم) فيصل إلى قوقنايا.

يرى في قوقنايا كثيراً من القور، نخص بالذكر منها مدفن أرضي جدير بالنظر وهو مسدود بغطاء ذي قواعد عديدة من التي تكون في أعلى الفرونتونات وتحمل زخارف أو تماثيل مختلفة، وتتألف من غرفة تحت الأرض مع دنان قبورية، وثمة إفريزان بارزان في منتصف علو الغرفة كانا يستعملان لوضع المصابيح وفي الوقت نفسه لدوس الأرجل حينما كانوا يقصدون الهبوط إلى حفر القبور. وأحد الأركوسولات عليه كتابة يونانية تاريخها سنة ٣٩٩م. وثمة قبران آخران أحدهما لايزال تام السلامة، كانا مؤلفين من هرم صغير محمول على دعائم وهو يغطى نواويس معروضة للهواء الطلق. وفي قوقنايا غير هذا دور ومنازل عديدة من نفس طراز البناء وتصميمه الموجود في البارة إلا أنها تختلف عن تلك بأن طابقها الأسفل ليس محمولاً على أقواس بل على دعائم مربعة. والنوافذ والأبواب هنا مستطيلة الشكل ومؤلفة من أحجار واحدة محمولة على عضائد نقوش خفيفة البروز قد كتب عليها كتابة يونانية تاريخها ٤٧٩م.

وبيوت الناس المترفين في قوقنايا ذات رواقين ودرابزينات وتيجان أعمدة مختلفة ويلحظ فيها أيضاً بيت مبني بالرخام بقطع ضخمة جداً. وطابقه الأسفل محمول على دعائم وأعمدة وله درج خارجي منحوت في بلاطة صخرية واحدة كان يوصل الصاعدين إلى الطابق الأعلى المؤلف من غرفة واحدة فقط.

ومن قوقنايا يستأنف المسير نحو الجنوب حتى يصل في (الكم ١٢ تقريباً) إلى الدوير، حيث ينحرف نحو الشرق ليبلغ بعد نحو ١٢,٨٠٠ كم قصر النبات، ثم في (الكم ١٣,٥ تقريباً) باقوزا وفيها كثير من البيوت المحفوظ معظمها حفظاً حسناً، وفيها بقايا كنيسة جميلة مبنية على منحدر أكمة.

إن هذه الكنيسة يعود تاريخها إلى القرن السادس، ولها في مدخلها مكان مغطى ذو عمودين في مداخلها الجانبية وأمكنة مغطاة صغيرة. والسور الذي في الصحن الأكبر منها ذو ثلاثة نوافذ ويؤلف بروزاً نصف دائري.

ثم يظل مستمراً في سيره نحو الشرق دائماً فيبلغ (في الكم ١٥ تقريباً) دير سيتا وفيها بضعة بيوت جميلة خربة، في منتصفها قامت ضيعة عربية صغيرة. وعلى مدخل أحد البيوت المذكورة قد برزت كتابة تاريخها سنة ٤١٢م.

يزار في دير سيتا أطلال كنيسة يميل شكلها نحو الاستطالة، واتجاهها من الشرق إلى الغرب، وقد كانت فيما مضى منقسمة إلى ثلاثة صحون تفصل بينها أعمدة ذات ثلاثة أساكيب، وكانت منتهية في الشرق. بصدر نصف دائري، وكانت مجنحة بغرف مستطيلة الشكل، ذرعها ٦م في ٤م. وبنية هذه الكنيسة ذات طول ٤٥م وعرض ١٨م.

والواجهة الشرقية التي وراء الصدر تتألف من جدار قائم مزين بمجموعة من الأعمدة عددها ١٢ محمولة على أفاريز ذات طنوف وتحمل هي أيضاً بدورها كورنيش الجهة السفلى من الكنيسة، والواجهات الجانبية مثقوبة بعدد كبير من الأبواب والنوافذ جبهة أقواسها المزخرفة قد نحتت في جوف حجر واحد، وزخرفت بنصبة تحف بكل التأليف حسب طريقة خاصة بهذه الانحاء. وقد كانت النوافذ تغلق ببلاطات مجزأة حسب الزي المستعمل في بلاد حوران، والأرض الداخلية في الكنيسة هي أعلى من الأرض الخارجية بمترين. وكل صحن الكنيسة قد تهدم. وثمة عدد من تيجان الأعمدة الكورنثية ذات الأسلوب الجميل قد تمددت بين الأطلال. وربما كان بناء هذه الكنيسة في القرن السادس. وأخيراً نذكر من مباني دير سيتا (مكان عماد) ذا شكل مثمن الأضلاع طول جوانبه نحو ٤.٥م وثمة رواق داخلي أصبح الآن متهدماً كان يحيط بالجرن المتوسط المدفون تحت الأنقاض. والواجهات الثلاث لمكان العماد المذكور لا تزال قائمة قد فتح فيها أبواب ينفذ منها الداخل إلى باحة مبلطة ومحاطة بأروقة وهذه الباحة كانت الدركاه، وفيه كان طلب العماد يرفض الشيطان والعالم ومباهجه وذلك قبل أن يتلقى التعميد الغطس وسط الحوض.

ومن دير سيتا يصعد نحو الشمال الشرقي فيبلغ كفر حاروت، ومنها يصل (في الكم ٢٢ تقريباً) إلى قوللي حيث يجد لحباً صالحاً للسيارة، يمر بخرابو وجنية

فيبلغ (في الكم ١٧) في قرية تارب الطريق الحديثة بين حلب والاسكندرونة. ومن تارب إلى حلب ٣٥ كم.

ب. خرائب تزار على طريق حلب. اللاذقية

البارة، سر جيللة

جولة فيها طواف بالسيارة نحو ٢٠٠ كم (ذهاب وإياب حتى مرعيان ومن ثم خمس ساعات على الخيل).

٨١ كم من حلب إلى أورم الجوز.

وعلى بعد ١٥٠م من هذه القرية وفي قرب صهريج ماء يفترق نحو اليسار لحب صالح للسيارات يفضي خلال ٣٥ دقيقة إلى قرية مرعيان، وهي إسلامية وفيها مسجد وينبوع ماء.

ومن مرعيان يمكن خلال ٣٠ دقيقة على الخيل أن يبلغ الكهوف الأثرية التي كانت تتخذ مساكن تحت الأرض، وهي قرب قرية المغارة. والمجاز يصعد وهدة ويترك الرعيان على اليسار وينفذ بين الأطلال، وفي حرف الأكمة التي تسد الوادي الضيق في الشمال تنفتح أفواه الكهوف المقبرية المتصلة ببعضها بممرات حلزونية، ويلحظ فيها الروافد المنحوتة وسط الحجر. وفي أعلى هذه الكهوف قبر من الطراز نفسه منحوت في الصخر. إن هذا البناء الأثري يمكن أن يعود إلى القرن الثالث الميلادي، والبقعة هنا هي دون ريب (المغارة) التي بحث عنها اشرابون. وعلى بعد ٥٠م إلى الغرب وفي أسفل المكان قبر جميل من القرن الخامس له خلية شاهقة مرتفعة.

يترك السيارة في مرعيان ويصعد إليها على الخيل. في الساعة ١,٥ قرية احسم. في الساعة ٢,٢٠ صهاريج البارا وهي على بعد ١٥ دقيقة إلى الغرب من القرية.

وفي قرب الصهاريج المذكورة ونحو الجهة الجنوبية الشرقية ينتصب الحرم الأسود لحصن عربي من العصور المتوسطة يدعى (قلعة أبو سفيان) والذاهب نحوه يترك على يساره بضعة أطلال لكنيسة (منها حنيتان محاورهما عمودية على بعضها). إن حصن أبي سفيان مبني من قطع رخام قديمة، وقد كان محاطاً بسور مستطيل الشكل محكم بأبراج مربعة بارزة، والدونجون كان ذا سور خاص به. وهذا أيضاً مرصد سهل، يميز الناظر وجوده على اليسار ونحو شرقي قرية البارة،

وأمام الزائر وعلى اليمين تمتد خرائب مختلطة، حيث يلحظ بينها خاصة الحنايا المبنية في وسط الغرف لتحمل السقوف الحجرية. وتجاه الزائر وعلى بعد قليل وادٍ ضيق مستوٍ متجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وفي ضفته الأخرى تمتد المدينة الأثرية المسماة (كفر البارة) أو (الكفر).

إن خرائب الكفر محاطة بالبساتين ومنفصلة على بعضها بطرق قديمة مبلطة ومحاطة بجدران، وهي جديرة بالتصوير لكنها عسيرة الزيارة. ويمكن الذهاب على خط مستقيم من الحصن العربي إلى أحد المقابر الهرمية الشكل الواقع في أقصى الشمال وهو يظهر وسط المقابر على الحدود الجنوبية للكفر.

وحينما يجتاز الزائر الوادي الصغير المستوى يترك على اليسار بقايا بازيليكا ذات تصميم أصلي. وحينما يصل إلى الهرم الشمالي يمكن أن يدور نحو اليسار ويسير على طول خر في الجنوب الغربي من المدينة، ذلك لكي يزور المقبرة، وفي قرب الهرم الثالث الذي لم يبق منه إلا قاعدة كثيرة الزخارف، وفي الضفة الثانية للخر المذكور حوش مزرعة غريب الشكل يسمى (دير حوباط) لا يزال على سلامته التامة. ومن هناك إذا عاد أدراجه نحو الشمال الشرقي في اتجاه القرية يمر بفيلات جميلة، ثم يمر بالضفة الأخرى من الوادي المستوى فيجد في طريقه غابة من الدعائم الحجرية التي يظن أنها كانت فيما مضى تدعم أسوار بساتين.

إن زيارة الأطلال المكتظة التي تبدي وسط البارة القديمة نواة صناعية للمدينة تحتاج لنشاط رياضي، ولا يصادف الزائر فيها إلا بصعوبة . المكبس الذي على فتحته قد برزت كتابة تشهر الخمر المصنوع في مواطنه.

وكذلك من الصعب العثور على كنيستين (غير اللتين ذكرناهما) والحمامات في شرقي الوادي المستوي التي أشار إليها بعض السياح. لأن خرائب البارة تفتك فيها معاول القرويين المجاورين.

(من البارة الحاس وخربة الحاس، سيأتي ذكره، وقد شرع في تمديد لحب من البارة إلى المعرة ماراً بكفر نبل والحاس).

في الدقيقة ٣٠ بعد مغادرة البارة، وعلى طريق معرة النعمان خرائب باعورة وهي على اليمين . وفي الدقيقة ٥٠ سرجيللة، وهي خرائب يقطنها رعاة الماعز في فصل الشتاء فقط.

إن هذه البقعة الأثرية كانت قد شيدت على شكل طبقات على أصداف واد صغير حيث يمتد النظر بدون تحديد نحو السهل الشرقي. وفي وهدة الوادي الصغير المذكور قد بنيت حمامات لاتزال محفوظة حفظاً يدعو للعجب، ومنظر البنية المحجوبة وراء جدار عابس، ويلحظ خاصة صدور كنائس بارزة على الضفتين الشرقية والجنوبية، وهي تشبه أن تكون حماماً بخارياً أو مكان التعرق، أو أن تكون مكان التبرد الذي يغتسل فيه بالماء البارد نهائياً. ولأجل الوصول إلى تلك الصدور كان يتحتم على طالب الحمام أن يجتاز باب المدخل الوحيد وهو في جنوبي جدار السور، ثم يبلغ البهو الكبير المتوسط، وفيه سدة محمولة على أربعة أعمدة. وفوق البهو المذكور مكان الشلح وأبهاء الاستحمام. أما مجاري الماء المفتوحة في تلك الجدران لاتزال ظاهرة العيان. وثمة صهريج ماء واسع مغطى بألواح حجرية طويلة محمولة على عمودين وحنايا عديدة لا تزال موجودة نحو الجنوب.

ولم يعثر المنقبون هنا على الموقد. وفي البهو المتوسط عثرت البعثة الأميركية سنة ١٩٠٠ على فسيفساء إلا أن هذه الفسيفساء خربت بعد حين. وفي محيط دائرة هذه الحمامات رسوم حيوانات يطارد بعضها بعضاً. قد نقشت وسط زخارف بارزة على شكل الأوراق، وثمة كتابة فيها تاريخ سنة ٤٧٣ واسم المحسنين.

وعلى مقربة من الحمامات تنتصب بنية ذات وراندتين، رشيقة جداً، وقد كانت مكان اجتماع، وقد حسبتها البعثة الأميركية سنة ١٣١٨/١٩٠٠ مقهى. والضفة الغربية من الوادي الصغير قد خصصت إلى المقبرة. (وفيها ضريح على شكل هيكل، وأغطية قبور ذات ستة مساند وزخارف. وعلى المنحدرات الشرقية أو الشمالية الشرقية ومن الحمامات فصاعداً تمتد على شكل طبقات كنيسة خراب بالمرة وفيلات مختلفة إحداها في الجنوب الشرقي لا تزال محتفظة باللوجيل ذات الطابقين أمام الواجهة.

ومن سرجيللة يرجع أدراجه إلى مرعيان (ولابد من دليل) في الدقيقة ٣٥ يترك على يساره في ١ لشرق دير سميل (وفيه خرائب وقرية) ـ في الدقيقة ٤٠ اللوزة وهي قرية صغيرة مبنية وسط هذه الخرائب. وثمة فيلا لا تكاد تكون غير محسوسة، وأخرى في حالة أقل سلامة، وقبور. وهذا المكان هو دون ريب المقبرة القديمة التي كانت للصليبيين. في الساعة ١.٥٠ اخسم ـ في الساعة ٢ مرعيان ومنها تؤخذ السيارة.

ج ـ خرائب تزار في طريق حلب ـ حمص

١ ـ من معرة النعمان إلى الحاس والبارة

جولة تحتاج إلى ثلاثة أيام تقريباً ـ وللمبيت يطلب من مخاتير الحاس أو البارة، هذا إذا لم يكن لديه خيمة. من حلب إلى معرة النعمان ٨٨ كم.

اليوم الأول ـ (من المعرة إلى الحاس وخربة الحاس (لحب صالح للسيارات طوله ٨ كم حتى الحاس) ـ في الكم ٤ كفر روما، وهي قرية سكانها ٣٦٠ مسلمون وفيها أطلال أثرية أخصها جسر غريب جداً إذ إن له عوض القناطر بلاطات طولها ٤.٢٥م محمولة على عشر دعائم.

في الكم ٨ الحاس، قرية مسلمة (فيها مسجد من العصور المتوسطة وأطلال قد عبث فيها كثيراً) ويمكن قضاء الليل فيها. وفي الجنوب الغربي من القرية وعلى بعد بضع دقائق رسوم ضريح كان له طابقان ذوا أعمدة كورنثية تحمل هرماً. وكان هذا القبر ينسب إلى أيوب وانطونيوس ولدي ديوجن، وفيها بقايا بازيليكا ذات نوافذ واسعة سعة خارقة وكثيرة العدد (من القرن السادس).

ومن الحاس يمكن للماشي أو الراكب أن يصل خلال ٣٠ دقيقة إلى خربة فارس ثم خلال ٥٥ دقيقة إلى خربة الحاس.

وهي حقل واسع ملآن بالخرائب عرف من بينها سبع كنائس وكنيسة قديمة من تخطيط البازيليكات طولها في الداخل ٢٠ متراً في عرض ١٣ ويكون عرض الصحن الأكبر ٦.٦٠م. وفي جهة الحنية البروتزيا والدياكزيكوم وقد كانا على شكل الأبراج. وكانت أرض هذه الكنيسة مصفحة بفسيفساء تمثل طواويس بين أغصان العنب، وإلى جانب هذه الكنيسة بيت من بيوت المدن الفنية يحتوي على مسكنين على أطراف باحة مستطيلة تحف بها أعمدة دورية. هذا واللحب الصالح

للسيارات ينتهي في وقتنا بكفر بليل وهي قرية كبيرة سكانها ١٢١٥ مسلمون، ومن المأمول أن ينتهي تمديده حتى البارة.

وإذا وصل راكب الخيل سيره نحو الغرب يبلغ كنصفرا (وفيها خرائب).

اليوم الثاني ـ من الحاس إلى البارة (والرجوع إلى معرة النعمان).

١ ـ المسافة الأولى: ساعة ١ إلى بيترسا ـ ١,٥ إلى مجليا وفيها خرائب ذات شأن. من بينها حمامات وكنيسة صغيرة غريبة. فالمكان المغطى داخلها كثير الأضلاع وله حنية عميقة نصف دائرية، ويشغل المكان المذكور خمس جهات لشكل مثمن الزوايا محمول على أعمدة تحيط بصحن يحيط بخورس. في الساعة ١,٥٠ البارة. المسافة الثانية ـ ٥٠ دقيقة إلى ربيا وفيها مقبرة هرمية ومكان عماد ذو باب جميل. وكان في ربيا على عهد الصليبيين موقع عسكري، وهنا هلك باغيسيان الذي دافع عن إنطاكية دفاعاً هائلاً ضد الصليبيين.

في الساعة ١ والدقيقة ٢٥ باعودا (خرائب..) في الساعة ٢ البارة ومن البارة يمكن الوصول راكباً إلى مرعيان واورم الجوز.

اليوم الثالث: الرجوع إلى معرة النعمان ـ ٥٠ دقيقة إلى سرجيللا ـ ٢ ساعة و ١٠ دقائق إلى معرات.

٢ ـ من بابيللا إلى جرارة ودانا ورويحة

ينبغي بادئ ذي بدء أن ترسل الخيل من المعرة إلى بابيلا.

في الكم ٧٦ من حلب، وعلى طريق حماه وحمص وقبل معرة النعمان، يبلغ السائر على اليمين الطريق بنية حديثة وعلى اليسار دعائم وعتبات وبقايا مبانٍ قديمة مبعثرة على الأرض. هذه هي خرائب بابيللا. وإذا ترك السائح الطريق وسار نحو اليمين أي غرباً يبلغ آخر الحقول المزروعة ويتجه نحو خرائب تظهر اسمها جرادة.

وخلال ٣٠ دقيقة من المسير على الأقدام يبلغ المقرة التي في غربها. ذلك إلى الشمال يبلغ جدار السور الذي يحميه برج مراقبة ذو ست طبقات، علوه نحو ٢٨ م ومساحة تصميمه خمسة أمتار مربعة ونصف، وثمة مجموعة من الفيلات الجميلة لا تزال تامة السلامة وبرجان جميلان.

ومن جرادة يمكن أن يصل إن شاء إلى دانة وهي إلى الجنوب الغربي وعلى بعد ١,٣٠ ساعة وفيها خرائب كنيسة ومبان غربية أحدها ذو هرم ورواق، وإن شاء إلى رويحة وهي إلى الشمال الغربي وعلى بعد ١,٣٠ ساعة أيضاً، وهي مدينة أثرية وحقل خرائب ممتدة، في وسط رويحة ساحة مربعة ضلعها ٤٠م، تحيط بها أروقة ذات طابقين، وهي تؤلف ساحة المدينة الكبرى أو السوق العام. وحول هذه الساحة كلها أطلال حي العمال، وهي خراب بالمرة وذات شوارع صغيرة ضيقة. وفي غربي هذه الكتلة المركزية ينتصب الجدار الشرقي للكنيسة القديمة (من القرن ٤) ذات تصميم بازيليكي مع حديقة مسورة بجدران. وفي جنوبي السوق سكة عريضة تحف بجبل بينها الفيلات، ونحو الطريق الشرقي هذه السكة قبر على شكل الهيكل ذي العمودين تاريخه سنة ٣٨٤م وفي شرقي السوق سكة أخرى، تحف بها فيلات أنيقة، تاريخ أحدها سنة ٣٩٠م. وينبغي أن يتفرج الزائر خاصة في شمالي السوق على كنيسة بيزوس التي تعود إلى أواخر القرن الخامس أو أوائل السادس. وهي بازيليكا ذات دهليز مغطى قبال صحنها، ومساحتها ٣١,٧٠م في ١٧,٧٦م، وهي منقسمة إلى ثلاثة صحون بينها صفان لكل منهما ثلاث قناطر عظيمة. مستندة على دعائم. وهذا الوضع حديث، لأن البازيليكات الأولى كانت ذات أعمدة وكنائس رويحة وقلب لوزة فالكنائس ذات الحنايا المعروفة. وقبر بيزوس الذي سميت الكنيسة باسمه ذو بنية صغيرة قد سقف بقبة حجرية. وهو في القسم الجنوبي من الحظيرة المستطيلة الشكل المحيطة بالكنيسة. وفي القسم الشمالي قبر على شكل هيكل ذي عمودين.

ومن رويحة يرجع إلى بابيلا عن طريق رويحة (طريق حلب). ويمكن أيضاً أن يواصل السير على الخيل حتى ريحا فبعد سير ساعة وربع منطيف، وفي الساعة ٢ كفر لاثا التي يصطاف فيه بضعة مئات من أهالي حلب تحت الخيام.

وكفر لاثا كانت مدينة محصنة في العصور المتوسطة، ضبطها طنكرد من الإسماعيلية سنة ١١١٠ ثم استردها نور الدين سنة ١١٥١ من الإفرنج.

وفي كفر لاثا طريق صالح للسيارات يفضي إلى ريحا ومنها يذهب إلى حلب (٧٩ كم).

من حلب إلى قنسرين

٥٨ كم ـ الطريق المعبدة من حلب إلى الزربة ومن ثم لحب صالح في الفصول الجافة يستعيد الطريق المعبدة القديمة من حلب إلى حمص المارة بخان طومان، حتى الزربة وهي في الكم ٢٤ من حلب، ففي الزربة يسلك على اليسار لحباً صالحاً للسيارة في الفصول الجافة، وهو يمر في الكم ٢٨ ببرقوم.

في الكم ٣٤ قنسرين، وهي في سفح جبل النبي عيص، وفي ذروة هذا الجبل (وعليها إشارة إدارة المساحة علوها (٤٢٤م) ولي اسمه النبي عيص بني مقامة فوق أطلال كنيسة قديمة ـ وهذا الجبل يشرف على بطائح المطخ التي تنصب فيها وتتلاشى مياه نهر القويق القادم من حلب.

التاريخ: قنسرين كلمة آرامية تعنى (عش النسر) كانت مدينة ذات شأن، أسسها سلوكس نيكاتور وسماها والكلمة الثانية لكي يميزها عن سميتها التي في البقاع (مجدل عنجر)، ومكانة قنسرين كانت ناشئة من بقائها حتى القرن ١٣م، (٧ هجري) محطة للقوافل الذاهبة من حلب إلى الجنوب أو إلى إنطاكية، (وبين حلب وإنطاكيةرصيف روماني يمر بقنسرين ذكرناه..) وقنسرين كانت مشرفة على سهل واسع متموج يدعى باسمها شالسيديا وكان هذا السهل يحسب أخصب سهول الشام. وفي زمن القديس جروم الذي زارها سنة ٣٧٥ كانت مدينة ذات مكانة غير يسيرة غنية بغلاتها الزراعية وصادراتها التجارية وكان حصنها يحرس الأهلين المتحضرين من غارات البر والصحراء. وفي سنة ٥٥٠ ـ ٥٥٥م أعاد ديوستينا نوس بناء سورها. ولكن قنسرين خربت سنة ٦٢٩ من قبل أبي عبيدة. ومن ذلك العهد عمل العرب كالرومان فجعلوها مركز قيادة عسكرية وأنشأوا فيها ولاية الحدود التي دعوها جند قنسرين. وفي سنة ٣٥٢هـ /٩٦٣م نقل سيف الدولة أهل قنسرين إلى حلب، لأن جيوش الروم كانت قد خربت أكثر من نصفها، ومن ذلك الحين انقلبت قنسرين إلى قرية حقيرة وأضاعت نهائياً كل مكانتها وانقطع طريق القوافل عن المرور بها.

(إن ضيعة قنسرين الحالية واقعة في وهدة من الأرض بين أكمتين: الأولى تل النبي عيص في الشمال وتل شالسيس قنسرين في الجنوب. وبيوتهما مؤلفة من قباب مخروطية (كما هي الحال في كل بيوت قرى هذه الانحاء).

وخرائب شالسيس القديمة، التي نقب عنها سنة ١٣٣٧/١٩١٩ تحيط بضيعة العيص من الجنوب (حيث القلعة) وبالمدينة السفلى من الشرق وبالمقبرة من الشمال. والمقبرة كانت مبنية على تل يشرف من علو ٣٠م على مستنقع المطخ وذروته تؤلف هضبة مسطحة. وكان هذا التل محاطاً بأسوار لاتزال أسسها ظاهرة لاسيما في الجهة الغربية، وربما كان قسم من هذه الأسوار قد بني في زمن تأسيس المدينة اليونانية، وهذا السور كان محصناً بأبراج زوايا وبباشورات مستطيلة الشكل. وفي داخل السور آثار أسس البيوت وتخطيط الشوارع لاتزال ظاهرة.

وكان ينفصل من الواجهة الشرقية جدار ضخم مستقيم الخطوط ويتجه من الغرب إلى الشرق ويهبط المنحدر. وهذا الجدار كان يؤلف الحد الجنوبي للمدينة السفلى. وهذه المدينة كانت تمتد حتى المنحدرات الأولى لأكمة النبي عيص. وكذلك الأمر كان ينفصل من الواجهة الشمالية جدار ضخم آخر ويتجه إلى الشمال حتى سفح أكمة النبي عيص. ولا تزال آثار مداميكه السفلى ظاهرة. وربما كان هذا الجدار يعود كالجدار الأول إلى سور المدينة السفلى الذي محيت أقسامه الأخرى. وهو دون ريب السور الذي بناه يوستينانوس.

وفي كل الصدف الجنوبي من أكمة النبي عيص الصخرية قد حفرت مقالع جسيمة جداً في أسفلها قد امتدت مقبرة واسعة. وقد ثقبت الصخور فأصبحت كالغربال من مداخل الكهوف المقبرية التي لا تعد ولا تحصى. واستغلال هذه المقالع ربما كان حدث قبل وجود هذه المدافن.

ومن قنسرين ـ في الفصول الجافة ـ يمكن أيضاً العودة إلى طريق حلب ـ حمص القديمة عند مرتفعات القصيبية (بعد ٧ كم) وذلك إما باجتياز الحقول التي في جنوبي أكمة النبي عيص مباشرة، أو (بعد ٩ كم) عن طريق بانص وتل حدية. أما البعد بين القصيبية وحلب فهو ٢٢ كم.

من حلب إلى سفيرة ومسكنة وخناصرة وأسرية والأندرين.

لحب: ٢٥ كم من حلب إلى سفيرة، ١٢٠ كم إلى مسكنة، نحو ٤٠ كم إلى خناصرة، في لحوب صالحة للسيارات في الفصول الجافة.

يغادر حلب من جنوبها الشرقي (في طريق مسكنة ـ دير الزور)، وفي الكم ٨ بعد حلب ينحرف نحو اليمين ويسلك لحباً، يتجه نحو النيرب (١٠ كم)، وهي قرية شيدت دورها الحديثة من أتربة تل كان يغطي المدينة الأثرية، ولا يزال قسم منه موجوداً في طرف القرية الجنوبي.

في هذه القرية كانوا قد اكتشفوا سنة ١٣٠٩/١٨٩١ نصبين مقبريين عليهما كتابات آرامية، استحصلها المسيو كلرمون كانو، وهما الآن في متحف اللوفر في باريز. وفي سنتي ١٣٤٥/١٩٢٧ ـ ١٣٤٦/١٩٢٨ نقبت بعثة المدرسة الأثرية الفرنسية في القدس فتوصلت لكشف مقبرة أكثر قبورها تعود إلى القرن ٦.٧ قبل الميلاد. ووجدت أيضاً نحو ٢٧ لوحاً مكتوباً.

(رقم بالحرف المسماري وباللغة البابلية الحديثة يعود عهدها إلى مابين السنة الأولى من حكم بختنصر الثاني (٦٠٥) ق.م وبين حكم قمبيز (٥٥٨ ـ ٥٢١) ق.م وأكثر هذه الرقم عبارة عن عقود ومقاولات. وكتابات النصب ونصوص الرقم فيها تلميح إلى إله قمري معبود اسمه سحر. ولم تتمكن البعثة من العثور على أطلال مدينة. ولم يبق ثمة سوى بقايا مبهمة لركام أقدم من المقبرة.

في الكم ٢٥ سفيرة، قرية كبيرة، سكانها ٤٠٠٠ كلهم مسلمون، قاعدة ناحية ذات شأن كبير (١٢٠ قرية) تتبع قضاء جبل سمعان).

يظن أن تل سفيرة في مكان القديمة ففي أوائل سنة ١٣٤٦/١٩٢٨ وجدوا في سفح هذا التل القسم الأعلى من تمثال من الحجر الحري ملتحفاً بفوطة على الطراز المصري، وعليه كتابة مسمارية يعودة تاريخها إلى القرن ١٥ تقريباً قبل الميلاد (وهو في متحف حلب) وعلى أثر هذه اللقية شرع المسيو بروسه يسبر غور هذا التل سبراً أصولياً. فعثر على مقابر في الطبقات السفلى وعلى مقربة من كهف مقبري غريب الشكل فيه عين ماء، وعشرون هيكلاً عظمياً. وعلى بعد بضعة أمتار إلى الشرق عثر في عمق خمسة أمتار من التراب المتهدم على أطلال سالمة لباب كبير محصن مبني برخام من أحجار الحري المنحوتة التي يبلغ طولها نحو ٢.٥ متر. إن هذا الأثر

الريازي العسكري هو من طراز معروف في حفريات زنجيرلي ولكنه من حجم أكبر بكثير، والدهليز الذي فيه الباب ذو ثلاثة مواقع متسعة ومتتابعة وله طول ٢٤ متراً، وعرض البناء الأثري يبلغ ١٤ متراً. وهذا الباب واقع في شمالي سور شكله مستدير وهو مؤلف من جدار من الآجر غير المشوي (اللبن). ويبلغ عرضه نحو أربعة أمتار. ولهذا السور الهائل أبراج نصف دائرية تبرز ضمنه ويبتعد بعضها عن بعض نحو ٤٠ متراً. وهذه هي المرة الأولى التي يكتشف فيها في بلاد الشام مدينة محصنة من النموذج الآشوري الحثي. وخرائب سفيرة تؤلف في الوقت نفسه أكثر الأماكن الباقية من الألف الثانية قبل الميلاد من حيث السلامة.

من سفيرة إلى مسكنة (٩٥ كم، لحب صالح للسيارات) ـ يتجه اللحب نحو الجنوب الشرقي ويتبع الضفة الجنوبية لبحيرة الجبول المالحة ومملحة الجبول الواسعة التي ملحها يستعمل من قبل الحكومة السورية في فصل الصيف، منذ أن يتبخر قسم من مائها. واللحب المذكور يغادر على يساره في السهل وعلى مقربة منه التل المسطح الذي يدعى الملوحة وقد اندثرت أطلاله. وعلى بعد نحو مئة متر في غربي هذا المكان الأثري تظهر أطلال مزار الشيخ سيف، وهي قد بنيت من أحجار أثرية لكنيسة بيزنطية قديمة.

ثم يجتاز اللحب قرية أبو جرين وهي في حضيض تل قريب جداً من الطرف الغربي للبحيرة، ثم يترك على يساره (بعد ٣ كم) عقربوز وهي ضيعة في غربي تل، ثم بعد ١ كم إلى الشرق أبو دريخة وهي أيضاً في قرب تل ثم بعد ٣ كم جلهوم في حضيض تل مخروطي صغير.

ثم يقترب اللحب إلى مروج رحبة تحيط بالبحيرة، وفي حقلة يوجد "سراي" تحتوي على بهو خراب مبني بأعمدة أثرية وإزاء حقلة تقريباً وعلى الضفة الشمالية للبحيرة تظهر قرية الجبول ومستودع الملح، وهي القديمة. ثم يمر اللحب بين قرية حقلة وتلها الوسط في حجمه، ثم يبتعد عن البحيرة فيبلغ في الجنوب الشرقي وعلى بعد ٣ كم قرية أم العمود (وهي تبعد ٤٩ كم عن حلب) ثم يعود لمحاذاة شاطىء البحيرة فيدوس في مروره ـ الأوحال اللامعة لبلورات الملح.

وبعد ٧ ـ ٨ كم من أم العمود يقترب اللحب من الجبل، ثم يدور نحو الجنوب ويجتاز في حضيض عرفة من الصخور المتفككة الحاملة لجدران، وهي أطلال قلعة تدعى بوز الخنزير. وبعد مقبرة صغيرة يجتاز خرشوماً حجرياً يمتد نحو الشرق ويترك على اليمين وعلى بعد ٢ كم قرية جبين ثم قرية مويح ـ على اليمين لحب يتجه نحو الجنوب ويفضي إلى خناصرة.

(إن هذا اللحب يتجه سوياً نحو الجنوب فيبلغ رسم النقل. وعلى بعد ٢ كم من هذه القرية وفي وسط واد عميق يأتي من الغرب تظهر أطلال مدينة صغيرة تدعى المعلق مع بقايا ثلاث كنائس وأربعة كايلات ومجاز يشبه الشارع يحده قناة. وأضخم الكنائس المذكورة واقعة في أسفل مكان من القرية وعلى الضفة اليمنى للوادي وهي تكاد تكون في منتصف سور مستطيل الشكل ثم يحيط اللحب بحضيض جبل الأحص ويمر بقريتي الشلالة والراهب (وفي هذه زخارف بيزنطية) وبعد هذه يبلغ خناصرة، الواقعة على سيف بادية الشام (سيأتي وصفها).

إن لحب مسكنة يجتاز وصلاً جافاً في الطرف الأقصى الجنوبي للخليج الذي تحاذيه بحيرة الجبول، ويترك على اليمين ضيع أسماؤها حاودلون وأبو رعد.

وعلى بعد ٦ كم من مفرق طريق خناصرة يترك على اليمين اللحب الذي يفضي إلى قرية جب العلي. وهي المقر الشتوي لاحدى بطون قبيلة عنزة، ويلحظ فوق نشز ووسط سور خرائب جميلة لكنيسة ذات أعمدة تدعى خربة جب علي.

ثم يدور نحو الشمال الشرقي ويظل الطريق في منتصف المسافة بين الجبل والبحيرة فيبلغ قرية زبد (٧٥ كم عن حلب) وهي على صدف جبل الشبيت وفي مخرج واد صغير واسع أقفر ويرى في هذه القرية أطلال ثلاث كنائس على الأقل. فالتي في الشمال الشرقي لايزال قسم منها قائماً، والتي في الشمال الغربي قد أحيطت بسور محصن.

ومن زبد إلى مسكنة يجتاز اللحب براري فيحاً قفراء لا يرى فيها قرى ولا مساكن للبشر، يبلغ مسكنة وهي على بعد ١٢٠ كم عن حلب.

من سفيرة إلى خناصرة (نحو ٤٠ كم، لحب) ـ يستعير لحباً يتبع مسلك القوافل القديم. فهذا اللحب يسير بادىء ذي بدء سوياً نحو الجنوب وهو يجتاز السهل، حتى

يبلغ مزار الشيخ براق، وهذا قد بني على أسس جدران كنيسة بيزنطية قديمة، وعلى بعد ١٠٠م من يمين الطريق يوجد أطلال قرية بيزنطية مع كنيسة ثانية.

ثم يترك على اليسار ضيعة اسمها المدينة. ثم يتسلق اللحب وهو صاعد طريقاً حجرياً ويصل إلى زينان وهي وسط واد صغير ثم إلى عقربا، وفي أعلى هذه القرية يلحظ نشزاً عليه سور غريب جداً مدور الشكل من النوع البلاجي. ثم يترك الطريق على يمينه واد اسمه وادي أبو عبدة يتغلغل وسط الجبل نحو الجنوب الغربي وينفذ في خر يصعد صعوداً متمعجاً إلى أن يبلغ النجد المتوسط لجبل الأحص فيصل فوراً إلى برج حسين الظاهر وهو حصن صغير بيزنطي مستطيل الشكل مبني بأحجار حرية.

ويترك اللحب على يساره قرى الصالحية وجب أنطاش ورسم عميش والحوير (وهنا صهاريج، وأساطين أعمدة وعتبات.. الخ) وإزاء الحوير يترك اللحب ويليه نحو الجنوب الغربي فيجد وسط الحقول فوق نشز قرية نبادي وفيها أطلال كنيسة اكتشفوا فيها منبراً عليه كتابات بالسريانية القديمة.

ثم يترك اللحب على يمينه الفيسان وفيها أسس جدران كنيسة وكفر حوت (وفيها أطلال قديمة) وسويان (كذا أطلال أثرية) وبرج عزاوي (أطلال كنيسة بيزنطية مع باب كامل ذو زخرف جميل) وسرج فارع (حوض ماء قسم منه أثري).

ثم يهبط اللحب من متعرجات رديئة إلى منخفض يمتد إلى أن يبلغ الرملة وهي في الجنوب أقصى من جبل الأحص، ثم يترك هذا المنخفض أو الوادي ويسير نحو الشرق فيبلغ منخفضاً ثانياً يتجه أيضاً نحو الجنوب. وفي هذا المنخفض قرية اسمها جب الأعمى . وبعد اجتياز ثنية صغيرة يفضي إلى واد واسع ثم يترك على يساره قرى الحبس والهربكية، ثم يبلغ بساتين خناصرة (وهي القديمة) وهي على السيف الشمالي لبادية الشام (٣٩/١٢/٢٢).

ليس اليوم ثمة مايدل على مكانة معينة لـ(كوناسرا) القديمة سوى بقايا من الريازة قد اضمحلت بالمرة. فالشراكسة الذين سكنوا فيها منذ ٤٠ سنة قوم نشيطون، قد شيدوا قرية جديدة تتضخم يوماً بعد يوم، واستعملوا لتشييدها الأحجار المنحوتة التي عثروا عليها في الجدران القديمة.

ومما يستحق النظر هنا عتبتان غير ملموستان عليهما كتابات يونانية. الأولى معروفة من زمن قديم، موجودة قرب باب السور الذي يفتح على لحب سفيرة وفي قريه أطلال كنيسة كبيرة تلفت النظر ومخفر الدرك الحالي يشغل بناء أثرياً صغيراً الغالب عليه أنه بيزنطي. ولا يزال الطابق الأسفل منه المعقود والمبني بأحجار ذات نحت حسن، مع صحن كنيسة متعارض، على أتم السلامة. وفي الشمال الشرقي من هذا المكان وعلى بعد قليل توجد العتبة الثانية التي اكتشفت حديثاً. وأطلال سور المدينة أيضاً لا يزال واضحاً، ودورته تدل على سعة المدينة القديمة.

من خناصرة إلى الحمام وإلى السرية . (نحو ٥٦ كم، لحب) يجتاز اللحب سور المدينة القديم في جانب مخفر الدرك ثم يسير سوياً نحو الجنوب الشرقي فيبلغ (في الكم ٦.٥) القرباطية ومن هذه القرية يمتد لحب يقترب من الجنوب الشرقي لحضيض جبل الشبيت ويمر بالحمام ويبلغ في الكم (٥٠) خرائب السرية.

السرية هي القديمة، كانت تشرف على الطريق الآخذ من الرصافة إلى مسلمية. ولا شيء يستطيع أن يجيد الدلالة على أن الصناعة البشرية كانت حولت بادية الشام مثل وجود هيكل روماني جميل في هذا المكان. إن هذا الهيكل ينتصب فوق نشز يغطي بقايا المدينة القديمة المدفونة والمندثرة ويظهر أنه كان من طراز شائع.. ولو أن السيللا التي فيه وحدها قد انفردت عنه. والجدار الشرقي من هذه السيللا قد أشغلت كلها تقريباً ببوابة عريضة عالية ومزينة زينة ثرية (فريز زهور، زافرة من كل من جهات العتبة) وفي أعلى البوابة يرى قوس تفريغ واسع هو الآخر أيضاً مزين. وفي كل من جهات المدخل يوجد عمارة مربعة الشكل على شكل الأبراج. فالتي على اليمين تحتوي على مدرج حلزوني يصعد إلى سقف الهيكل. وجدران هذا البناء قريه محمولة في خارجها على دعائم وتفاصيل التزيينات تدل على أن هذا الهيكل يعود عهده إلى نفس العهد العظيم الذي بنيت فيه بعلبك أي القرن الثالث الميلادي.

ومن السرية إلى السخنة (نحو الرقة، أو نحو دير الزور).

من خناصرة إلى الاندرين: يذهب من خناصرة إلى القرباطية. ولكن بعد هذه القرية لا يوجد أي لحب نحو الآندرين. إلا أن البرية صالحة للسيارات في الفصول

الجافة. ولهذا يبدأ السير سوياً نحو الجنوب وذلك كيما يجتنب المرور بالمنخفض المسمى (شوط) وهو مستنقع مالح ثم يجد بعد هذا بقعة ذات تموجات ضئيلة تتخللها ذروع قليلة مبعثرة للبدو، ثم يتجه نحو تل معشورت وهو المكان البارز الوحيد في تلك المنبسطات الشاسعة واسمه (تل زبيد) وفيه أطلال أثرية. هذا إلى أن يلمح في الجنوب أطلال الآندرين الجليلة ويبلغها في آخر المرحلة.

وبعد الآندرين بمسافة يمكن أن يبلغ في الجنوب خرائب قصر ابن وردان ومن ثم إما أن يسلك طريق حماه مباشرة أو أن يسلك طريق حمص المار بسلمية والمشرفة.

من حلب إلى جرابلس

لحب ١١٤ كم من بلدة الباب رأساً، ١٢٥ كم من الباب ومنبج. وفي كليهما لحوب صالحة للسيارات في الفصول الجافة. والعمل متواصل في إتمام طريق حلب. الباب.

يغادر حلب من طرفها الشمال الشرقي. في الكم ١ يترك على اليمين تكية الشيخ أبو بكر، ثم الثكنات العسكرية التركية، وعلى يسار الطريق الذي يفضي (في الكم ١١) إلى المسلمية وفي هذه معسكر الطيارات وملتقى هام لسكك حديد استانبول ونصيبين). في الكم ٣ يترك على اليمين الطريق المسماة (حول المدينة) إلى أن يلاقي طريق دير الزور.

في الكم ٩ نقيرين، قرية ذات قباب مخروطية. ثم يجتاز الطريق سهلاً مطرد المناظر بعثرت فيه عدة قرى في الكم ٢٦ سرحة. في الكم ٢٩ مدونة. في الكم ٣٤ يلمح عن بعد مئذنة مزار الشيخ عقيل المشرفة على الباب.

ثم يقترب من الواحة النضرة المؤلفة من نهر الذهب ويكشف فوراً قرية التاتف وسط الواحة المذكورة، وهي مركز اصطياف ليهود حلب.

في الكم ٤١ الباب (فيها فندقان، مركز بريد و ٣ مراتب) قرية كبيرة، سكانها ٩٠٠٠، مسلمون منهم ٣٠٠ أرمن. علوها عن سطح البحر ٣٧٠م، مركز قضاء.

وحين الخروج من الباب يترك على اليمين (نحو الشمال الشرقي) طريق منبج. ويلمح على اليمين قرية بزاعة وسط الكروم. في الكم ٥٠ قرية قباسين.

في الكم ٥٦ يترك على اليسار تل البرشة ثم في الكم ٥٩ قارلي قويو (البئر المثلج) ـ في الكم ٦٧ قرية خاليصة ـ في الكم ٧١ على اليسار أكمة عليها اشارة رصد المساحة ـ في الكم ٧٣ قرية طاشلي هويوك ـ في الكم ٨٢ يبلغ وادي نهر الساجور النضر، وهو أحد روافد الفرات فيجتازه عند ضيعة اسمها للوا (وفيها طاحون قديم).

ثم ينحرف اللحب نحو الشرق ـ في الكم ٨٩ بوظ هيوك ـ في الكم ٩٣ زوغارا ـ على اليسار يلمح السكة الحديدية لشركة ب، ح، ق وتمديداتها (أوسكة بغداد) وهي تؤلف الحد الفاصل بين بلاد الشام وبلاد الترك، ومن ثم يوازيها في السير عن كثب.

في الكم ٩٧ على اليسار محطة هولمن ـ في الكم ١٠١ قارا قويو (البئر الأسود) ـ في الكم ١٠٤ طوغو نوق في الكم ١٠٨ يجتاز اللحب أكام طباشيرية جرداء ثم يظهر وادي الفرات ـ في الكم ١٠٩ ككليجك ـ في الكم ١١٣ يلمح على اليسار محطة جرابلس ـ في الكم ١١٤ سراية جرابلس.

جرابلس (فندق سنترال وفندق البلدية، إدارة بريد) بليدة صغيرة سكانها ٣٠٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم أرمن تعلو ٣٠٠م، مركز قضاء ومحكمة بداية ونقطة جمرك ومخفر درك.

ولأجل زيارة نقوش قرقميش الواقعة ضمن الحدود التركية ينبغي أن يحمل السائح جواز سفر أو تذكرة مرور من قنصل تركيا في حلب ويذهب بادىء بدء من دار حكومة جرابلس نحو المحطة ويبرز الجواز إلى الضابط التركي، فيضع هذا احد أتباعه تحت أمر السياح ليرافقهم. فيعود إلى جرابلس ويسلك لحبا يتجه نحو الشمال ويبلغ بعد ١ كم السكة الحديدية في نقطة تقع في وسط المسافة بين الجسر الحديدي والمحطة. وهنا يترك السيارة ويجتاز السكة الحديدية فيصل فوراً إلى مدخل خرائب قرقميش.

التاريخ ـ كانت قرقميش هي العاصمة القديمة لاتحاد الممالك الحثية في مطلع القرن الأول قبل الميلاد. وذلك حينما غزت شعوب البحر وقرصنت المملكة الحثية العظيمة التي كانت في آسيا الصغرى (حول سنة ١١٨٠ ق.م) وعهد قرقميش إذن

يعود لعهد المملكة الحثية المذكورة، ولكن لم تكن في ذلك سوى مدينة ممتازة. ولما اتحدت عاصمة اتحاد المماليك الحثية شرعت تتعرض لهجمات الآشوريين الذين استولوا عليها وحرموها كل استقلال في عهد السرجونيين (القرن ٨ ق.م)، وقد كشفت الحفريات التي أجرتها بعثة المتحف البريطاني قبل الحرب العظمى عن مبانٍ لتلك العهود المختلفة. وقد عرفوا خاصة أسوار المدينة الثلاثة مع الأقسام المضافة إليها بالتتابع. وحسب العادات الحثية تكون هذه الأقسام عبارة عن أبواب المدينة وأسس المباني المزينة بالصور المنقوشة البارزة. وهذه الصور عبارة عن مناظر ميتولوجية واستعراض جنود أو بطانة الملك، ووجدوا أيضاً تثمال إله وكل هذه الصور منقوشة أو منحوتة على الحجر الحري وهي غليظة، وتذكر الفن الآشوري، إلا أن كثيراً منها هي أقدم من تلك وكلها تحفظ للبهجة خاصة فريدة في بابها. ومن حسن الحظ أن هذه المباني الأثرية قد نشر عنها كتاب بعنوان (قرقميش) بقلم الأثريين كارت وفولاي في مجلدين، طبع المتحف البريطاني في لندن، سنة ١٩١٤ و ١٩٢١، لأنها قد فتك فيها خلال سني الحرب ومن ذلك الحين رفع الترك أجل الصور المنقوشة ونقلوها إلى متحف أنقرة.

(إن قرقميش ذات الشهرة التاريخية الذائعة، والواقعة في بقعة ينحرف فيها الفرات انحرافاً قوياً نحو الغرب ويقترب كثيراً من البحر المتوسط، قد لفتت أنظار علماء الآثار نحوها منذ زمن بعيد ففي سنة ١٨٧٦ كان المنقب الإنكليزي سميث أول من طبق اسم قرقميش على جرابلس. وساق بعد المتحف البريطاني على حسابه عدة بعثات للتنقيب أخصها بعثة هوكارت وفولناي المذكورة في سني ١٩٠٨ - ١٩١١، فأكدت تلك التسمية وأظهرت للعيان في هذه الأرض عدداً عظيماً من الآثار التي أثبتت وجود مدينة حثية ذات مكانة سامية مبنية على ضفة الفرات اليمنى.

ومدينة قرقميش كانت تنقسم إلى قسمين مختلفين: المدينة الداخلية والمدينة الخارجية وقد كشفوا آثاراً ذات شأن من حصونهما.

فالمدينة الداخلية كانت محدودة من الشرق الشمالي بالفرات: ففي الشرق كان لها سور يمتد على طول الفرات وقد فتح فيه باب. وفي الشمال الشرقي كانت تحيط المدينة الداخلية بالاكروبول أو القلعة الرابضة فوق مرتفع علوه نحو ١٢٠ قدماً

ويشرف على مجرى الفرات. وهذه القلعة هي في الأصل حثية لكنها جدد بناؤها من قبل سرجون سنة ١٧٨ ق.م وبعد القلعة كان السور يتصل نحو الشمال ببرج يدعى برج الطاحون وبقلعة أخرى تدعى القلعة الشمالية الغربية . وفي الغرب والجنوب كان هذا السور يفصل المدينة الداخلية عن المدينة الخارجية وكان فيه بابان أحدهما غربي والثاني جنوبي.

والمدينة الخارجية تمتد في غربي وجنوبي المدينة الداخلية. وكان يحيط بها سور يتصل بالأسوار الغربية والجنوبية للمدينة الداخلية. وكان لهذا السور أيضاً بابان أحدهما غربي والثاني جنوبي.

وكان في منتصف المدينة الداخلية وفي حضيض القلعة قصر. وكان يوصل إلى هذا القصر من شارع أو مدخل فخم على جانبيه رخام من الأحجار المنقوشة. وكان في هذا القصر غرف وباحات عديدة بينها هيكل. وكان يمتد على يمينه مدرج عظيم يأخذ إلى أقسام البناء الأخرى. والزائر الذي جاز الشارع المذكور يجد نفسه وسط باحة يحدها من اليسار أطلال القصر الرخيمة بمجموعة من النقوش البارزة المصطف بعضها في جانب بعض. ويجد الزائر إزاءه أيضاً وفي منتهى الباحة وصدرها بقايا المدرج.

والرخام المنقوشة التي هي وحدها السبب في لفت الأنظار نحو قرقميش والتي تحسب من أجمل النماذج المعروفة في الفن الحثي، ذات أحجام مختلفة تتراوح بين ١.١٠م على ٦٥ سم وبين ١.٧٥م على ١.١٢ ويظن أن النقوش القديمة من القرن ١٢ أو ١٣ ق.م والحديثة منها من القرن ١١ أو ٩، وهذه النقوش من مادتين مختلفتين، بعضها من الحجر الكلسي الأسمر وبعضها من الحجر الحري الغامق. وكثيراً ما يتراوح الرخام ذو اللون الفاتح مع الرخام ذي ا للون الغامق، فكأن المعمار قد تعمد التباين في الألوان. وكثير من هذه الرخام كان قد رفع من مكانه ونقل إلى المتحف البريطاني في لندن. ولا يبعد أن يأتي يوم، ترفع هذه الرخام الباقية وتنقل. ورفعها ونقلها أفضل من إبقائها عرضة للعوامل الجوية.

وبين النقوش البارزة التي كانت موجودة في مكانها سنة ١٩٣٠ نعد : استعراض الخدم الحاملين على أكتافهم معزى اوتيوس جبل (وهي جد بالية لطراوة الحجر).

رسم يمثل شخصاً راكباً ذلولاً (وجد بالياً) طائرا عنقاء يهاجمان ثوراً فتياً مجنحاً واقفاً في مستواهما (ينقص القسم العالي والأيسر) جنيان لهما افخاذ الثيران على رأسيهما إكليل الآلهة الحثين ذو قبة مدورة وقرون مع ضفيرتين من الشعر الحلزوني ويظهران من الأمام متكئين على رماح كأنهما حراس بعض أبواب المدينة، ولزيادة الهيبة حاز كل منهما في قربه على معاون ذي منظر مرعب، وهو شيطان ذو رأس ومسلح بعصا منحنية ذات عقد (وهذا التمثال من الحجر الحري الأسود ولكنه مكسر إلى عدة قطع).

- أسد واضع رجله على رأس ثور، وفوقه عجل صغير (بالٍ كثيراً ومثقوب). صيد الأسود، مركبة حربية خفيفة يجرها حصانان ويسوقها رجل جاوز رأسه درابزين صندوق المركبة والأسد المتحفز للهجوم (وهذا أيضاً مكسر من عدة أماكن) وثمة محارب شاب ذو قميص طويل مشدود الوسط بمنطقة وشعر كثير مسترسل على عنقه بضفائر مشدودة - استعراض أشخاص منهم اثنان لابسان قمصان وآخر في الوسط لابس ثوباً مع خمائل مدورة، وأسفل البلاط مزخرف بخط كحروف السين الإفرنجية المتداخلة. (ولم يبق من هذا الا القسم الأسفل) راميا أقواس راكبان مركبة حربية يقودان حصاناً تحته تمدد رجل مضروب بسهم على حجر حري أسود - رضامان ضخمان عليهما كتابات عريضة هيروغليفية - إلهان أحدهما مجنح وواقف على ظهر أسد كبير جاثم. قواعد أعمدة مقتربة من ثيران أو أسود.. الخ.. الخ..

وبعد الانتهاء من الزيارة يمكن أن يبلغ في جهة الشمال الشرقي ضفاف الفرات، وهو سائر في محاذاة الجهة الجنوبية الشرقية للقلعة. وهناك يصادف أنقاضاً ذات شأن يونانية - رومانية. ويحتمل أن تكون هذه مكان الفوروم أي مساحة اجتماع الشعب (ساحة الندوة) وعلى جوانب القلعة، وفي قمتها الشرقية يجد أيضاً عدداً كبيراً من الرخام زخارفها تشبه التي في بعلبك وهذه الرخام بقايا هيكل ذي شأن من القرن ٢ أو ٣ وهي قد استعملت مراراً أخرى في عهود البيزنطينيين والعرب.

ومن الضفاف المرتفعة للفرات يتمتع الناظر بمشهد جميل على منحنى النهر. ومن ثم يسير في محاذاة هذا المنحنى نحو الجنوب الشرقي فيبلغ الجسر الحديدي الكبير

ذي العشر قناطر (طوله ٨٠٠م) الذي تمر فوقه سكة حديد حلب الموصل ثم يسلك السكة الحديدية متجهاً نحو المحطة إلى أن يلاقي المكان الذي أوقف السيارة فيه.

(ومن جرابلس يمكن أن يصل في لحب رديء في محاذاة الفرات إلى تل الأحمر (٢٢ كم).

ومن جرابلس يمكن أن يعود إلى حلب عن طريق منبج، ومن هذه إلى الباب حيث يتبع المسلك الذي وصفناه آنفاً.

إن لحب منبج يتجه نحو الجنوب ويسير في وادي الفرات (أما في الشتاء فهذا القسم يصبح تحت المياه الطاغية) في الكم ٦ جملى. في الكم ٨ عمارنة. ثم ينحرف اللحب نحو الغرب ويتسلق آكاماً طباشيرية. في الكم ١٢ عين البيضا، وهنا عين ماء وقرية. ثم يهبط الطريق فوراً نحو وادي الساجور ويعبر هذا النهر في الكم ٢٤ فوق جسر حجري.

في الكم ٣٧ منبج. هي القديمة واقعة فوق هضبة صخرية على علو ٤٤٧م سكانها ٢٠٠٠، منهم ٨٠٠ شركس و ١٠٠ أرمن، وهي مركز قضاء ومحكمة صلح وفيها مخفر درك وبساتين جميلة.

التاريخ: إن اسم منبج الحالي هو الذي استعمله سكان بلاد الشام منذ أقدم العصور أما اسم هيرابوليس اليوناني فقد كان إضافياً ولم يطل زمنه ومعناه (المدينة المقدسة) وقد ألف المؤرخ لوسيان اليوناني (من القرن الثاني ومن بلدة سميساط ومن أرباب مذهب الشك في كل شيء) كتاباً على الربة السورية) جعله منظوماً وعلى أسلوب هيرودوت، حفظ لنا فيه تفصيلات عديدة عن معبد هيرابوليس الذي كان في تلك الحقبة من أجل المعابد في بلاد الشام، وقد كان يعبد فيه إله سماء العاصفة المسمى هاداد وآلهة الماء المسماة استراكاتيس وكانت الأعياد تجلب عدداً عظيماً من قوافل الحجاج، وقد كانوا في هذه الأعياد يضحون بالأطفال الذين كانوا يضعونهم ضمن أكياس ويلقون بهم من أعلى مدخل المعبد إلى البحيرة. وظلت تقام هذه الأعياد حتى عهد الرومان وكان في المعبد راهب كبير يساعده عدد وفير من الكهنة، وكان في عداد هؤلاء الكهنة خاصة جماعة الرهبان الخصيان الذين كانوا يخصون أنفسهم في خلال نشوة بعض الطقوس. وكان فريق من هؤلاء

الرهبان الخصيان يطوف في أرجاء البلاد مثل الرهبان الشحاذين الذين نسئوا بعدهم، ويجمعون النذور والصدقات . وقد ذهلت عقول اليونان من طقوس منبج الغريبة وانتشرت عبادة آستراكاتيس انتشاراً زائداً في أوروبا وذلك تارة بمساعي الأجراء اليونان الذين كانوا مستخدمين عند الملوك الشاميين فشاهدوا تلك العبادة في مكانها، وتارة بمساعي التجار الشاميين الذين كانوا يصلون إلى بلاد الغرب. وقد وجدوا في دلوس أصغر جزر الارخبيل اليوناني ملحقاً حقيقياً لمعبد هيرابوليس يدير شؤونه رهبان قدموا من هيرابوليس ، وقد كانت مكانة هيرابوليس الحربية في عهد الدولة الرومانية لأنها كانت موقعاً حربياً لجيوش الرومان، فقد كانت تخرج هذه الجيوش من ساحل سلوقية وتزحف نحو البلاد التي وراء الفرات. وأسوار هيرابوليس التي بقي منها بعض آثار يظهر أنها كانت تعود لعهد يوستنيانوس، وقد ذكرها يوكوب المؤرخ اليوناني المتوفى سنة ٥٦٢، ولم يجسر كيخسرو على مهاجمتها).

لم يبق من مدينة منبج القديمة سوى السور. لأن أطلال المدينة قد استعملت منذ عصور عديدة وبعثرت. ولكن ليس ثمة أي ريب في أن مستنقع منبج هي البحيرة المقدسة التي كان يحفظون فيها أسماكاً مقدسة تحمل حلياً، وفي وسط هذه البحيرة كان يبرز مذبح من الرخام كان يصل إليه الحجاج سباحة ليقدموا له نذورهم. وكانوا يقيمون حفلات غاية في البهرجة يسيرون بها نحو البحيرة حاملين أصنام المعبد. ومما يذكر أيضاً في منبج مسجدها الجامع المبني في سنة ١١٥٦/٥٥١ من قبل صلاح الدين. وأمام السراي قد جمعوا بضعة أنصاب مقبرية مزينة بنسور وهي رمز الشمس حيث كان السوريون يفتكرون بعودة الروح بعد الموت. أما بقية المباني الأثرية فقد نقلت إلى متحف حلب نخص بالذكر منها نقشاً بارزاً كبيراً من الحجر الحري يمثل الراهب الأعلى لمنبج يقدم نذور البخور: وثوبه يشبه ثوب كاهن أورشليم الأعلى فهو مزين بخمائل جرسية الشكل.

ضواحي منبج: قلعة النجم . يخرج من منبج لحب صالح للسيارات يتجه نحو الشرق ويبلغ (بعد ٢٩ كم) قلعة النجم وهي على ضفة الفرات اليمنى. وهذه القلعة

عربية من القرن ١٣/٧م مبنية بالحجر فوق مرتفع يشرف على النهر في موقع جميل جداً.

التاريخ: إن مكانة هذا الموقع كانت تنشأ من أنه كان يحكم على الجسر الذي يعبرون النهر عليه. وكان هذا الجسر يتصل بطريق القوافل الآتي من بلاد مابين النهرين إلى بلاد الشام. وقد ظن بعضهم أن في هذا المكان كانت القلعة المذكورة بين المسالك الرومانية. فقلعة النجم إذن كانت قائمة فوق رأس جسر منبج، وقد لعبت هذه القلعة والجسر معاً أدواراً في تاريخ حروب المسلمين. وقد تعاورت هذه القلعة أياد كثيرة إلى أن أخذها نور الدين (١١٤٦/٥٤١ ـ ١١٧٣/٥٦٩) ورممها ثم رممها الملك ظاهر غازي الأيوبي ترميماً ثانياً مهماً للغاية، وذلك في سني ١٢٠٨/٦٠٥ ـ ١٢١٥/٦١٢، وهذا الملك هو الذي رمم قلعة حلب أيضاً.

وإذا كانت قلعة النجم رأس جسر منبج فقد تبعت عهد الانحطاط الذي أصاب مدينة منبج وفي القرن ١٤ كان معظمها خراباً. وفي سنة ١٨٢٠ عصت قبيلة عربية على الدولة العثمانية وأبت دفع الضرائب ولجأت إلى هذه القلعة، فقصفت وقتئذ بالمدافع.

إن قلعة النجم هي رخام من الصخور منفرد ومرتفع نحو ١٦٠ قدماً، تتوجه ضرائب القلعة الجديرة بالتصوير، وهو واقف فوق النهر مباشرة وقفة عمودية، بينما أن الصعود إليه جد عسير في الجهات الثلاث الأخرى ولا تزال كل أقسام القلعة قائمة ومحفوظة حفظاً حسناً. ويميز الزائر فيها طبقتين تحتوي على ابهاء كبيرة قليلاً وكثيراً، ويذكر أيضاً ممرات أرضية عديدة هي على ما زعم العرب تفضي من تحت الفرات إلى الضفة اليسرى. وفي أعلى الباب الأصلي المجنح ببرجين كتابة باسم الملك الظاهر غازي.

٢ ـ تل الأحمر: ويخرج أيضاً من منبج لحب ثانٍ صالح للسيارات يبلغ بعد ٢٥ كم إلى تل الأحمر وهو على ضفة الفرات اليسرى، وقد كان في مكان ممر ذي شأن في طريق القوافل القادمة من أورفا إلى حلب، إلا أنه أصبح ضيعة حقيرة نصف أهلها أكراد ونصفهم أعراب يشرف عليها تل حاكم على ضفة الفرات اليسرى.

يترك الزائر السيارة في الصفة اليمنى . هذا إذا لم يكن قصده الاستمرار في السير نحو عين العرب، والعبور يتم بركوب زوارق منبسطة الأسفل يكتظ فيها البشر والبهائم مختلطين. ويمكن للسيارات الخفيفة والمرتفعة فقط أن تنتقل في هذه الزوارق دون أي خطر.. وتفرغ الزوارق حملها بادىء بدء في جزيرة متألفة بين فرعين من الفرات فيجتازها في أسفل المنحدرات الأخيرة الغربية من التل.

التاريخ: إن تل الأحمر هو القديم إن هذه المدينة قد ذكرت في النصوص المسمارية لكن المعلمة الإسلامية تقول إنه في مكان (بيره جك)، انظر مادة بيره جك، والحق ان الأوصاف المندرجة هنا تنطبق كلها على بيره جك لا على تل الأحمر في الألف الثالث قبل الميلاد ومنذ زمن جودتها كانت تفد السفن الصاعدة من مدن الفرات السفلى فتصل إلى تل بارسيبا لتحمل خشب البناء المجلوب بالأطواف من أنحاء جبال طوروس. وفي الألف الثانية سقطت هذه المدينة في يد الحثيين الذين كانت تمتد سيادتهم من تلك الحقبة على كل المملكة الميتانية، ولما خلفت الدولة الآشورية دولة الحثيين أوصل الملوك الآشوريون حدود بلادهم الغربية إلى الفرات وافتتح وقتئذ سلمنازار الثالث في المعلمة الثاني تل برسيبا وبدل اسمها كارشولما ناشاريدو أي قصر سلمنازار وصارت هذه المدينة من ذلك العهد تابعة لمقاطعة حران الآشورية. وقد كانت خاصة نقطة مرور ذات مكانة ومركزاً لسوق الجيوش من الدرجة الأولى، ومن هنا كانت تعبر جيوش الآشوريين وتزحف للغارة على بلاد الشام ونهبها.

إن مكان (تل الأحمر) الأثري يظهر بشكل تل مرتفع نحو ٢٥ متراً ويمتد بانحدار لطيف نحو الغرب. وفي جهاته الثلاث منخفضات ضئيلة تكاد لا ترى تدل على أسوار الدفاع القديمة، بينما نهر الفرات يؤمن الدفاع عن جهتها الجنوبية. وقد قوطعت الأسوار بثغرتين تؤلفان بابي المدينة الشمالي الغربي والشمال الشرقي. والباب الشمالي الشرقي قد احتفظ بالأسدين اللذين كانا على جانبيه. إلا أنهما قد صارا الآن مكسرين. وثمة على جناحيهما كتابة برزت بالخط المسماري تحدث عن أنهما نصبا من قبل شامري هداد خليفة سلمنازار الأول بمناسبة الحرب التي انتهت بالانتصار على الأرمن. وقد أجرى من عهد قريب السيدان تورو دانكن ودونو،

حفريات فأظهرا في قمة التل قصراً آشورياً من عهد ساركويند مع رسوم مائية ملونة على الجدران.

ومن تل الأحمر يمكن الوصول (خلال ٢٢ كم) إلى جرابلس من لحب رديء مواز للحفريات. ويمكن أيضاً أن يبلغ (خلال ٣٥ كم) عين العرب من لحب سوي صالح للسيارات في الفصول الجافة).

بعد منبج يجتاز اللحب قرى متتابعة ففي الكم ٤٥ عسيلة وفي الكم ٤٧ طحنة وفي الكم ٥٥ موسجية الكبيرة وفي الكم ٦١ عريمة.

ويصل في الكم ٧٩ إلى بزاعة، وهي قرية كبيرة ذات دور على شكل القباب المخروطية، وفيها مسجد ذو مئذنة، وهي محاطة بكروم العنب وتروي أراضيها بمياه نهر الذهب.

في الكم ٨٤ الباب، يصادف اللحب الذي تقدم وصفه ومنه يصل إلى حلب (في الكم ١٢٥)

من حلب إلى الإسكندرونة

في السكة الحديدية ٢٧٥ كم، وهي خط شركة بوزانتي - حلب - نصيبين وتمديدها - لكن السفر في هذا الطريق لا يستحب، لبعد الشقة وضرورة الانتقال في محطة طوبراق قلعة أما في السيارة، فيمكن السفر إلى الاسكندرونة في طريقين - الجديدة السورية أو القديمة الطويلة.

١ - الطريق الجديدة

١٤٧ كم، طريق معبدة حسنة.

يخرج من حلب من حي الجميلة وهو في الغرب الجنوبي - في الكم ١ يترك على اليسار طريق حمص القديمة المارة بخان طومان ثم يجتاز السكة الحديدية الذاهبة إلى حماه وحمص ورياق.

ثم تصعد الطريق عقبة سهلة تفضي إلى نجد فيه إذا التفت المسافر إلى ورائه منظر عام جميل نحو مدينة حلب وقلعتها، في الكم ٢ وعلى اليمين ميل كبير يشير

إلى طريق يدعى (طريق حول المدينة) يتصل في شمالي هذا المكان مع طرق الإسكندرونة القديمة، ويتصل أيضاً في شرقي ذلك المكان بطريق دير الزور .

في الكم ٣ على اليمين دعس يفضي بعد ٤٠ كم إلى (قلعة سمعان) أو دير القديس سمعان العمودي .

في الكم ٦ على اليمين بنيامين ضيعة ذات قباب مخروطية . في الكم ٩ بعد عقبة صغيرة يهبط الطريق ثانية فيشرف السائر على آفاق واسعة للسهول الممتدة. ـ وفي قعر أرض بطحاء قرية خان العسل يرى فيها قرب يبنوع ماء أطلال خان قديم على بابه كتابة عربية . ثم يجتاز السهل ذي المنظر المطرد.

في الكم ٢٢ قرية أورم الكبرى، تقع هذه القرية في بقعة مرتفعة تشرف على مساحات واسعة، مما جعل لها في العصور القديمة بعض الشأن. فكل الأراضي الممتدة حولها تحتوي على صهاريج قديمة منحوتة في الصخر. وفي شرقي القرية قد قامت عمارة مستطيلة الشكل مبنية برخام عريضة قد نحتت وربعت نحتاً وترييعاً دقيقين ولا ريب في أن هذه العمارة كانت ضريحاً مبنياً على هيئة الأبراج.

في الكم ٣١ خربة الشيخ علي، على اليمين وفوق أكمة بقايا برج مبني برخام ضخمة منحوتة نحتاً دقيقاً وحوله بقايا جدران عائدة لمساكن مبنية بالحجر، ذات صهاريج ومعاصر. وفي ذروة الأكمة قد قام قبر ولي (لعله خليفة قديس نصراني كان اسمه حنا ليتاربا وهو عمودي مشهور في القرن السابع)، وفي قربه كان يوجد دير.

في الكم ٣٥ (يثرب الأثارب) قرية جديرة بالتصوير مبنية حول تل صناعي علوه خمسون متراً في ذروته ترى بقايا برج من العصور المتوسطة وبيوت الأثارب بشكل مربعات حجرية تعلوها قبعات من التراب المدقوق. كانت يثرب فيما مضى تقع على مفترق طرق ذي مكانة كبرى، فلا غرو أن تكون مذكورة في القوائم المصرية المرتبة في عهد الأسرة ١٨ باسم تيرابو. وسماها الرومان بعد ليتاربا. ويوجد في يثرب أطلال أثرية عديدة. وفي العصور المتوسطة سماها مؤرخو الصليبيين سرب. وفي عهدهم كانت في طليعة الحصون الصليبية المقابلة لحلب، وقد استولى عليها طنكرد سنة ١١١٠/٥٠٤، ثم استردها ايلغازي سنة ١١١٩/٥١٣ ثم استردها منه

بودوين فوراً. وأخيراً في سنة ١١٣٠/٥٢٥ استولى عليها عماد الدين زنكي نهائياً ودكها دكاً.

يترك على اليسار دعساً صالحاً للسيارات يتصل (في الكم ٣٨) بالطريق الذاهب من إدلب إلى حارم والمار (في الكم ٤) بحينه وفي الكم ١٣ بخرانو وفي الكم ١٨ بمعرة الإخوان وفي الكم ٢٦ بكيتة. إن هذا الدعس مغر بحكم أنه يلف حول جبل باريشا من جهته الجنوبية ويمكن أن يسلكه السائح ويزور الخرائب الجنوبية في هذا الطود لكريرسيتا وغيره.

في الكم ٣٧ على اليسار ووسط الزيتون قرية كفر كرمين وفيها خرائب أثرية.

ثم يترك الطريق السهل ويدخل بين آكام صخرية تعد اليمنى طريقاً يتجه نحو ترمانين (بعد ٦ كم).. ـ في الكم ٤١ على يمين الطريق يلمح السكة الرومانية المبلطة بالحجارة (الرصيف) التي كانت تربط إنطاكية بحلب مارة بقنسرين.

إن الرصيف الروماني في هذا المكان سالم هنا سلامة تدعو للإعجاب خلال طول يزيد عن ١٢٠٠ متر. وهو يتألف من رخام ضخمة من الحجر الكلسي الصلد ومصفوفة فوق الصخور. وبعض هذه الرخام يبلغ طوله أكثر من مترين وعرضه ٨٠ سنتميتراً وثخنه ١.٢٠ متراً. وقد كانت هذه الصخور فيما مضى مخططة لمنع انزلاق ارجل الدواب المارة، ثم صقل سطحها بكثرة الاستعمال وحدثت حفر عميقة في بعض أماكنها بفعل المياه ولكن ما من رخامة منها كسرت أو نقلت من مكانها قط، ولم يفك ارتباطها القوي بتاتاً. وهذا الرصيف يعلو عن مستوى الأرض الصخرية التي يجتازها بما لايقل عن نصف متر. ولابد أن حوافي الطريق كانت فيما مضى أوطأ من مستوى الأرض، إلا أن هذه الحوافي قد زالت الآن بالمرة. ويظهر أنه بسبب انحناء هذه الطريق أرادوا بناءه هنا بمتانة خاصة. ويصعب تعيين تاريخ هذا الطريق. بيد أنه ليس من المستبعد نسبته إلى ذلك العهد الكبير الذي بنيت خلاله السكك الرومانية، أي في أوائل القرن الثاني الميلادي. وهو أيضاً عهد أكبر الحملات العسكرية الهامة التي قام بها الرومان في شرقي بلاد الشام (٣٠/١٢/٣٩).

في الكم ٤٢ يعبر السكة الرومانية ويتركها على اليسار ويلحظ أنها تتضاءل ثمة فوراً، لأن رخامها عبثت به الأيدي. ـ في الكم ٤٣ على يسار الطريق يلمح قرية

(تل عقبرين)، وهي قديمة وذات خرائب اكتشفت ومنها كتابة يونانية وفي العصور المتوسطة بنى فيها الصليبيون قلعة.

(بين خرائب تل عقربين يلحظ بناية تنتصب طبقاتها الأربع فوق القرية ولها نوافذ ذات زخارف جميلة، ثم فوق هضبة كبيرة بناية أخرى ذات نوافذ مزدوجة علوها أربعة أمتار ومنفصل بعضها عن بعض بنصف عمود أنيق، ثم في الجنوب الشرقي من القرية كنيسة (كايلا) كل جدارها الجنوبي منحوت في الصخر وثمة كتابة سريانية.

من تل عقبرين إلى دانا وترمانين (٢ ـ ٧ كم، في دعس صالح للسيارات).

في الكم ٢ دانا ـ قرية فيها مجموعة من القبور المنحوتة في الصخر، يعلوها بناء غريب الشكل، محمول على أربعة أعمدة إيونية ومتوج بهرم صغير أصبح الآن خراباً. وعلى إحدى المشاكي المقبرية المحفورة تحت الأقواس الموجوة في الهواء الطلق التي تحيط بالبناء المذكور استطاع المسيو دي فوكي أن يقرأ تاريخ هذا البناء فإذا به ٣ مارس ٣٢٤ ميلادية. وعلى رغم أن القرية الحديثة قد بنيت بأحجار القرية القديمة، لايزال يوجد بين جدران القرية الحديثة كثير من الأطلال التي تجلب الأنظار نخص الذكر منها حنية كنيسة مبنية بأحجار جميلة ثم بنية أخرى قد شوه شكلها.

وفي دانا يلحق السكة القديمة التي كانت تبتعد بعد باب الهوا عن السكة الرومانية الكبرى الذاهبة من انطاكية إلى حلب المارة بقنسرين، وذلك لكي تبلغ حلب مباشرة في طول المرتفعات الصخرية لجبل سمعان مارة بدانا وترمانين ودير أمان وإرحاب (وفي هذه خرائب واسعة) وتوقات وعين حارة (وفي هذه خرائب) وكفر مسبيل.

في الكم ٤.٥ حزرة (وفيها خرائب)، يترك على اليسار دعس يتجه نحو تل عدي وسيأتي ذكره.

ثم ينحرف نحو اليمين ـ في الكم ٧ ترمانين، في أعلى هذه القرية يلحظ أيضاً بيت مزين بنقوش على شكل الورود وبالصلبان، وبيت آخر مزين بعويمدات على شكل الحزم. وفي غربي القرية كهوف مقبرية ذات أدراج من الحجر. على بعد كم للشمال الشرقي (نحو ٢٥ دق، دعس غير صالح للسيارات) واد صغير فيه خرائب دير

مانين أو خربة الترس. وهي تتألف من بناء كبير لعله فندق للزوار، وهو ذو طابقين، وأمامه باحة مبلطة ببلاطات كبيرة وفيها حوضان، وكان في طرف هذا المكان بازيليكا مشهورة ذات أعمدة، وهي من القرن السادس، إلا أنها قد اندثرت بالكلية. قال ياقوت عن هذا الدير. هو بين حلب وإنطاكية مطل على بقعة عرف بسرمد وهو دير حسن كبير وهو الآن خراب وآثار باقية.

ويرجع من ترمانين إلى حزرة ومن هذه يمكن أن يبلغ، في دعس صالح أيضاً للسيارات، طوله ٣ كم إلى تل عدا، وفي هذا خرائب. ومن تل عدا طريق يفضي بعد ١ كم إلى دير تل عدي، وهو مكان دير كبير كان اسمه تلاءا وكان يعد في العصور المتوسطة من أشهر أديرة بلاد الشام، وفي هذا الدير سنة ٤٠٠م شرع القديس سمعان العمودي بالترهب والنسك ودامت مكانة هذا الدير حتى بعد الفتح الإسلامي، إذ كشفوا فيه كتابة سريانية تاريخها سنة ٩٤١ ميلادية. وقد استولى طنكرد على هذا المكان سنة ٤٩٨/١١٠٤.

وسيمد الدعس بعد الآن حتى قرية دارة عزة حيث يلاقي فيها الدعس القادم من حلب إلى قلعة سمعان .

في الكم ٤٥ يلمح على اليسار وعلى بعد شاسع مباني سرمدا الأثرية التي يوصل إليها في دعس رديء. عرفت سرمدا منذ عهد الفتوحات المصرية، فقد ذكرت في قوائم تحوتمس الثالث وظلت تعد من الأماكن الحصينة حتى زمن الحروب الصليبية. فقد ذكرها مؤرخو الصليبيين باسم ميت.

إن البناء المقبري في سرمدا يتألف من عمودين كورنثيين، مزدوجين ومرفوعين فوق قاعدة عالية وذلك قرب مدخل قبرين تحت الأرض. ويعود تاريخ البناء إلى سنة ١٣٢ ميلادية.

في الكم ٤٧ على يمين الطريق خرائب غامضة الشكل، بينها أحجار منتصبة، تعود لفندق من زمن النصرانية. في الكم ٤٨ باب الهوا. إن الطريق المعبدة الحديثة مدت هنا فوق السكة الرومانية نفسها وهي ممر من تحت قوس يشبه أقواس النصر مؤلف من بقايا جدارين يحملان قوساً كبيراً. ولا ريب في أن هذين الجدارين لم يتجاوزا قط حجمهما الحالي. بيد أن أحدهما كان أطول من الآخر، لأنه قد وجد

الزخرف النهائي الذي يتممه ومن المستحيل أن يعرف تاريخ هذا البناء ولا السبب الذي أقيم من أجله.

وقبل هذا البناء يلحظ على اليسار خرائب كنيسة لايزال باقياً منها باب ذو عتبة مستقيمة وزخرف على شكل البرعمة. ومخطط الحنية ووراء الكنيسة رواق محمول على عمودين. وعلى يمين الطريق يلمح بقايا فندق مع صهريج منحوت في الصخر يوصل إليه بدرج (٩٣٩/١٢/٣٠ الساعة ٥ مساء).

في الكم ٤٩ على اليسار، على العرف الصخري المشرف على الطريق يلمح الخرائب النصرانية في قرية باعورة . وفي الكم ٥٠ برج المدخر. وفي يسار الطريق، يلمح بقايا كنيسة بقي منها بابان الشمالي والجنوبي لهما عتبات مستقيمة مزينة. وعلى الباب الشمالي وفي أعلى العتبة يوجد قوس تفريغ مبني من حجر واحد. ويظهر أن الحجّار الذي بناه أراد أن يعبث فرسم عليه خطوط الأحجار والثقوب التي تؤلف الأقواس المبنية ويخيل للرائي أنه مؤلف من عدة أحجار.

ثم يترك على اليسار طريقاً يفضي إلى الخرائب النصرانية في جبل باريشا .

في الكم ٥٢ يترك على اليمين كومة أحجار غير مهندمة، لا ريب في أنها مكان مخفر ثم يجتاز مضيقاً كان فيما مضى يغلق كل مساء بباب علوه خمسة أمتار (وقد أوصل الترك إلى هنا حدود لواء الاسكندرونة الذي استولوا عليه في سنة ١٩٣٩.

في الكم ٥٣ يلحظ على يسار الطريق مقطع صخري يعود عهده دون ريب إلى البنائين الرومان. وعلى اليمين وعلى حافة الطريق كتابتان مزدوجتان قد برزتا على الصخر. فالأولى تشيد بمجد ماركوس أوليوس والثانية تحدد التخوم بين قريتين. وبعد ٢٠٠ متر إلى الأمام الخرائب النصرانية العائدة لقصر البنات.

إن هذا القصر هو المسمى في النصوص المسمارية باسم دوربانيتي، وفي عهد الصليبيين سمي ، استولى عليه طنكرد سنة ١٠٩٨/٤٩٢. ولما كان هذا البناء مشرفاً على السكة الرومانية وعلى المضيق القاطع لجبل باريشا، كان معهداً دينياً عظيماً في القرن الخامس الميلادي، ومخصصاً لإيواء الحجاج، وقد أدى وضعه الاستراتيجي لتحصينه. إن هذا الدير يتألف من مجموعة بنايات مبنية حول باحة

واسعة يشرف عليها برج ذو ستة طوابق. وهذا البرج يعلو أكثر من ٣٠ متراً. وجدران الرواجع بين حجراته الممتدة من قاعدته إلى ذروته تقسم كل طابق إلى حجرة كبيرة وحجرتين أخريين صغيرتين، وإحدى هذه الصغيرات كان فيها الدرج. وكان الطابق الأول مبلطاً، والطوابق الأخرى كان لها أرضية من الخشب. والنوافذ صغيرة بعض الصغر. وجدران بعض الغرف لا تزال تحتوي أيضاً على بقايا كثير من ملاط الجص الدقيق مع آثار رسوم ملونة تمثل أشكالاً هندسية. أو رمزية بالألوان الحمراء والخضراء والصفراء.

وحول الباحة يلمح من اليسار إلى اليمين (حينما يتقدم من الطريق نحو القصر) ثلاثة مبانٍ يظهر أنها كانت فنادق. وفي صدر الباحة ومنتهاها بنية طويلة مستند ظهرها إلى الجبل يتراءى للناظر أنها كانت الدير الأصلي. إن هذه المباني قد بنيت على ثلاث طبقات على الأسلوب البسيط المستطيل الشكل. والجدران قد عملت من رخام صغيرة ذات أحجام غير متناسقة، لكن عضائد الأبواب والنوافذ هي من الأحجار العظيمة الوحيدة القطع.

وعلى يمين الباحة قامت كنيسة مساحتها في الطول ٢٦,٦م وفي العرض ٢٠م وقد كان يوجد سبع في كل جهة من الصحن، عرض كل منها ٣,٣٥م والبوابة الغربية تخيل للناظر أنها كانت قد فتحت في عهد سابق لعمارة الكنيسة، والصحن الشمالي أعرض من الآخر.

ولم يبق في هذه الكنيسة إلا القسم القليل: كالجدار الغربي وكقسم من الحنية الكبيرة والكاليلات الجانبية. والتزيينات الداخلية الوحيدة هي قوس الحنية، وتيجان الأعمدة الكورنثية ونصف الأقواس في الصحن الوسطاني.

ومن الزخرف الخارجي لم يبق سوى عتبتين لأبواب منقوشة، واحدة منهما في الأرض نحو الجهة الجنوبية، والثانية متدهورة في جهة الشمال.

وثمة كتابة يونانية تدل على أن معماري هذه الكنيسة كان اسمه كيريس. ولعل هذا الرجل نفسه الذي بنى كنيستي بابسقا (الكنيسة الشرقية) ودار قيطا. ووراء الحنية يلحظ وجود قبور منقورة في الصخروعلى مدخله رسم صليب. في الكم ٥٤ على اليسار، وفي مكان أعلى بقليل من مستوى الطريق يلحظ مغارة كبيرة

يتفجر منها الماء، وقد اشتهرت ماء هذه المغارة بأنها نافعة للنساء المرضعات اللواتي يجزن عن إرضاع أطفالهن إذا زرنها وضحين بدجاجة أمامهن.

في الكم ٥٥ عين دلفة، وفيها مخفر للدرك وعين ماء ثرة تتفجر من حبب الجبل في جنوبي الطريق. وعلى هذه العين سبيل عربي البناء (هنا يجد الزائر نفسه أمام حقل واسع من الخرائب الواضح أنها نصرانية. فعلى يسار الطريق ما لايقل عن خمسة مبان مختلفة، كلها في حالة من الاندثار البليغ. وبين هذه يلحظ بقايا كنيسة، السالم منها حتى الآن القسم ذو المدرج نصف الدائري المتمم لخوري الكنيسة مع القبة النصفية والجدار الشرقي . وهي طود صلب من البناءة الجميلة والـ دان في فتحة الصحن التي بشكل القوس لايزالان محفوظين وقواعد كثير من الأعمدة لاتزال في الأرض. وكل بقايا الكنيسة قد اندثر ولا يمكن أن يذكر شيئاً عن طول هذا البناء ولا عن عرضه، إلا إذا قيل إنها كانت أعظم كنيسة في هذه البقاه والجناح الأكبر كان عرضه ٧.٣٠ متراً والحنية كانت في عرض ٥.٤٠ متر وعمق ٥٥ متر.

وعلى يمين الطريق وبعد الجدول الجاف الذي يمتد على امتداد الطريق يلحظ بناءان آخران ويتألف جهازها من رخام ضخمة موضوع بعضها فوق بعض دون أن يكون بينها ملاط ظاهر.

في الكم ٦٠ يجتاز الطريق فوق جسر الجدول المذكور الذي يترك على اليسار وثمة لوحة مكتوبة تدل على الحدود بين دولة ولاية سورية ولواء الاسكندرونة المستقل.

في الكم ٦١ على اليسار ووسط واد خضر نضر قرية جران. ثم يدخل الطريق في السهل.

في الكم ٦١ يدور نحو اليمين ويترك إزاءه قبل قرية بني شهر طريقاً يفضي مباشرة إلى إنطاكية وفي هذا الطريق فرع يفضي إلى حارم. ويتجه الطريق نحو الشمال الغربي وقد عمل من تراب مكوم ومدور وسط سهل زراعي ومطرد المناظر.

في الكم ٦٨ الريمانية، قرية كبيرة، مبنية فوق أكمة خضرة نضرة، وذات منظر جميل وفيها سوق، (وأهلها شركس). (على مقربة من هذه الريحانية هضبة كلسية الأحجار يوجد فيها كثير من القبور المنقورة في الصخر ومطامير واسعة،

وعلى الأرض فتحات مدورة قطر دوائرها نحو متر وفي الصخر حفائر واسعة جداً عمقها لايقل عن اثني عشر متراً تشبه بأشكالها جراراً عظيمة مدفونة. ويضع المسيو دوسسو قرب الريحانية موقع قلعة صليبية كان اسمها آرتزيا من توابع إمارة إنطاكية في عهد الصليبيين.

في الكم ٧٣ قرية المشيرفية، هنا يعبر الطريق نهر عفرين فوق جسر طوله ٤٥ متراً ثم يتجه فوراً في خط مستقيم نحو الشمال . في الكم ٨٣ يدور الطريق إلى اليسار تاركاً على يمينه طريق حلب - إسكندرونة القديم المار بالحمام وقطلمة.

في الكم ٨٤ قرية ني كوي. ويتجه الطريق نحو الشمال الغربي - في الكم ٨٧ دعس يفضي إلى قرية قزيل قيام - ثم يمر بين أكمتين صخريتين. في الكم ٨٨ على اليمين وفي سفح أكمة قرية عين البيضا أهلها تركمان. ثم خان خراب - في الكم ٨٩ قرية متليك كوي - وفي الكم ٩١ على اليمين قرية باشا قسطلى - في الكم ٩٣ يدخل الطريق السهل - على اليسار في سفح منتهى الأكمة قرية تزيل قياسي.

في الكم ٩٣ جسر مراد باشا، وهو جسر قديم طويل ذو ١٧ قنطرة فوق مسيل ماء مستنقع يخرج من بحيرة كولباش ويصب في الجنوب في بحيرة العمق. وسهل العمق هو مركز مملكة عنقى القديمة الآشورية ومملكة عمقيون بديون اليونانية. وفي هذا السهل انتصر أورليانوس على جيش زنوبيا في سنة ٢٧٣ ق.م. وفي هذا السهل قسم غارق بالمستنقعات وقسم بالبحيرة، وفيه تلال عديدة صناعية بارزة وسط القسم الأول وفي وسط البحيرة يوجد برج قد غزته الآن المياه يدعوه صيادو السمك المئذنة.

وعلو هذا السهل المنخفض عن مستوى البحر ١١١ متراً، وهو محاط بجبال ومرتفعات هي في المقربة عمقلى طاغ وكاور طاغ في الشمال وعلي بك طاغ في جبل موسى في الغرب. وشكله يؤلف مثلثاً كبيراً يتجه طرفه نحو البحر في ممر مضيق يسيل فيه نهر العاصي. أما بحيرة العمق فتأتي مياهها من نهر عفرين ذي الماء الوافر القادم من الشرق ويخترقها نهر قره صو (النهر الأسود) الذي يصب في العاصي قبل إنطاكية بساعة، ولذا كانت مساحة هذه البحيرة عرضة للتبدل حسب الفصول. وهي ذات سمك وافر جداً، نخص بالذكر السلور الأسود الكبير والحنكليس والزجر الذي يستحضر منه الكافيار.

في الكم ١١٠ قرية فلاح كوى على يمين الطريق. ثم جسر على نهر مستنقع. ثم ينحرف الطريق نحو الجنوب الغربي.

في الكم ١٠٢ يعبر فوق جسرين على نهر الأسود. في الكم ١٠٤ قرية طرون. في الكم ١٠٨ قرق خان.

من دمشق إلى جسر بنات يعقوب (طبريا)

طريق معبدة جيدة ٩٢ كم يغادر دمشق من الجهة الجنوبية الغربية فيمر من بين ثكنة الحميدية ومحطة البرامكة. في الـ كلم ١(كفر سوسة) والتي ذكرت في معجم البلدان ثم يمر من بين مباني عسكرية حديثة العهد في الكم ٢، ثم يعبر السكة الحديدية ويجتاز بساتين وكروم زيتون عديدة، . في الكلم ٤ يمر من طرف قرية (المزة). ويلحظ في غربها فوق الآكام عدة مبانٍ عسكرية إفرنسية ومستودعات عتاد. وفي أعلاها بناء سموه حصن غورو، في الـ كلم ٧ على يسار الطريق مباني الطيران العسكرية والأهلية.

ويسلك الطريق خطاً مستقيماً على يمينه سلسلة آكام جرداء تحضن قرية المزة، تدعى قلابات المزة، وعلى يساره سهل أفيح أجرد في طرفه بساتين قرية كفر سوسة التي تختفي تحت ظلال الأشجار والكروم. . وفي الـ كلم ١١ يلحظ على يساره عن بعد قرية داريا. وهي وكفر سوسة من أمهات قرى غوطة دمشق. ذكر شيخ الربوة داريا فقال: قرية عظيمة المغل والأرض وبها قبر أبي مسلم الخولاني وقبر أبي سليمان الداراني.

أبو مسلم شيخ الفيحاء زاهد من سادات التابعين، وأبو سليمان أيضاً زاهد، ثم يلحظ على يساره أيضاً عن كثب وفي الـ كلم ١٢ قرية المعضمية. وفي الـ كلم ١٥ يترك على اليسار مجازاً يوصل إلى قرية الجديدة، وهذه نصف سكانها نصارى أرثوذكس، ويلحظ وسط كروم الزيتون خلوة درزية.

في الـ كلم ١٨ قرية عرطوز (في قربها كوكب اشتهرت بالمعركة التي حدثت سنة ٢٩١هـ ضد القرامطة (عن كتاب التنبيه للمسعودي). وقد امتدت المعركة

يومئذ إلى كناكر. وهنا ينتهي قضاء دمشق ويبدأ قضاء وادي العجم، وأمام عرطوز وعلى يمين الطريق طريق فرعي يتجه نحو الغرب فيصل بعد ٦ كم إلى قطنا. وهي بلدة حسنة نزهة علوها ٨٠٠ وسكانها ٥٠٠٠ ثلثاهم مسلمون والبقية روم أرثوذكس وسريان كاثوليك. وهي مركز قضاء وادي العجم، وفيها دار حكومة حديثة جميلة وأمامها حديقة بلدية ومحكمة صلح ومخفر درك ومدرسة ودور قوراء بيضاء وشوارع مستقيمة عريضة، مغروسة وهواؤها جيد، تحيط بها البساتين النضرة ذكرها ياقوت بقوله قطنا من قرى دمشق، منها الحسن بن علي القطني. وقيل إنها ذكرت في عهد الوليد بن يزيد الأموي، وبنواحيها حدثت موقعة سنة ١١٢٥م بين يوسف باشا والي الشام المعزول وسليمان باشا والي عكا الذي خلفه في الولاية، لأن الأول أبى تسليم الولاية للثاني فكانت الدائرة على الأول.

لوحة على الطريق عليها الأرقام الآتية: إلى قطنا ٦ كلم. قلعة جندل ٢٠ . عرنة ٣٢ . بيت جن ٤٢ . صبورة ٢١ . إلى القنيطرة ٤٩ جسر بنات يعقوب ٧٤ بانياس ٧٦ . مرجعيون ٩٥ صيدا . ١٥٤ . دمشق ١٨.

أنحاء قطنا . ١ . في قطنا لحب صالح للسيارات في الفصول الجافة يتجه نحو الشمال الشرقي في محاذاة أسناد جبل هاشمة ماراً بقرية صبورة، فيصل بعد ١٨ كلم إلى صحراء الديماس ويلاقي طريق دمشق . بيروت. ٢ . برقش ورخلة. . مجاز يحتاج لركوب الدواب. فإذا خرج الراكب من قطنا متجهاً نحو الغرب الشمالي يصل بعد ٤٥ دقيقة إلى اميبا، وهي ضيعة وسط غياض وعيون، ويظل سائراً في منعطفات ذات صواعد وتلعات خفيفة.

قضاء وادي العجم يحده من الشمال قضاء دمشق والزبداني ومن الشرق قضاء دوما وقسم قليل من أزرع ومن الجنوب قضاءا إزرع والقنيطرة.

ينقسم وادي العجم إلى قسمين: وادي العجم التحتاني الممتد في سفوح أعضاء جبل الشيخ غرباً، إلى الجبل الأسود والجبل المانع شرقاً وغوطة دمشق شمالاً وأوعار الجيدور وسهول حوران جنوباً. وهذا القسم يؤلف ثلثي القضاء وأراضيه منبسطة لا يتجاوز ارتفاعها ٩٠٠ . ١٠٤٩ متراً. تتخللها تلال وآكام وأوعار عديدة أشهرها أكمة سلح الطير شمالي الدرخبية وجبل الكلب. وجبل المضيع شمالي الكسوة. وثمة حول

قرية زاكية وعرة كبيرة (حرة) تدعى وعرة زاكية ربما بلغ طولها من الشرق الشمالي إلى الجنوب الغربي نحو ٢٠ كم وعرضها نحو ٨ كم. وفي هذا القسم نهر وادي العجم الأعظم المسمى نهر الأعوج لكثرة اعوجاجاته وهو المعروف في التوراة باسم فرفار. وهذا النهر يتكون من عدة عيون ومسايل تنبعث من سفوح جبل الشيخ أهمها عيون قرية عرنة وبيت تيما وحينه ونهر الجناني القادم من قرية بيت جن، ومن ينبوع آخر اسمه المنبج ومن عين أم الشراطيط ووادي الدهامية وعين الطماسية وعين الطيبة وهي أبرد تلك العيون تحسن ماءه كما يحسن ماء عين الفيجة مياه نهر بردى باختلاطه بها، وبعد أن يهبط هذا النهر من السفوح ويصل السهل ينقسم عند أم الشراطيط إلى فرعين الأول يسيل نحو الشمال الشرقي ماراً من شمالي وعرة زاكية، فيسقي في مجراه كثيراً من القرى الشرقية لوادي العجم التحتاني والمرج القبلي إلى أن يصب في بحيرة الهيجانة وتتبخر مياهه فيها في أوائل الصيف. والفرع الثاني يسير نحو الشمال فيسقي القرى الغربية لوادي العجم التحتاني إلى أن تتلاشى في أراضي قرية المعضمية. هذا وفي وادي العجم التحتاني من القرى والأحواش التي تروى من الأعوج حوش الاشرفية والعباسية والدير حبية وحوش المقبيلية وحوش مرانة وقرية الكسوة وخان الشيح وصحنايا والخيارة وسبينة وسبينات والماجدية وذا النون وأم القصور والدير علي وزاكية وزغبر وشورى والطيبة والبويضة ومرجانة والحسينية والعباسية وحوش النفور وسعسع وكناكر ودير ماكر وشقحب وماعص وسرسيا والعثمانية والدناجي والزريقية والهبارية وغيرها من الأحواش والمزارع. وكثير من هذه القرى والأحواش والمزارع ملك لأعيان دمشق. والسكان يختلفون بسحنهم ولهجاتهم وازيائهم عن أهالي حوران والغوطة وإقليم العلاف الذي سيأتي ذكره، فهم أشبه بسكان قرى المرج في هذه الشؤون إلى أن يبلغ إسناد جبل برقش. ومن ثم تبدأ مشاق الصعود إلى أن يصير المجاز شعباً يمر وسط الصخور وهكذا إلى أن يبلغ بعد ساعتين وربع قرية برقش وعلوها ١٥٨١ متراً. وفيها يزار الخرائب الممتدة فوق هضبة واسعة والمنقور بعضها في الصخر الصلد. وطول هذه الخرائب ٤٧ متراً من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وعرضها ٣٥ متراً. ويبلغ علو جدارها الجنوبي ١٢ متراً بينما الصخر في الجهة الشمالية قد سطح تسطيحاً، وثمة غرفة عظيمة عرضها ١٦

متراً تشمل كل امتداد الطابق الأسفل، وفوقها صف من الأقواس. وفي جانبها غرف أخرى إحداها كانت فيما يظهر تستعمل كحمام. وهناك عدد وفير من تيجان الأعمدة مبعثرة على الأرض. ويحتمل أن تكون هذه الأطلال بازيليكا نبطية بيزنطية وأنها شيدت مكان بناء أقدم منها. وفي شمالي هذه الأطلال بقايا بناء لعله هيكل أو كنيسة.

- ومن برقش يمكن أن يستمر سائراً في شعب جبلي فيصل بعد ساعة ونصف إلى رخلة، وهي قرية درزية صغيرة علوها ١٥٢٧ متراً تقع وسط مضيق موحش، ففي شمالها وفي مكان أوطأ بـ ٣٠٠ متر منها أطلال هيكل كبير ذرعه ٣٢×٥٧ متراً وفيه أعمدة علوها سبعة أمتار كلها متصلة. وثمة للباب الكبير عتبة قد انفصلت عنه، عليها رسم نسر ممدد الجناحين كما في نسور بعلبك وتدمر. وكان في الجهة الغربية حنية كان يمتد منها صفان من الأعمدة متجهان نحو المدخل، فيقسمان البناء إلى ثلاثة صحون. وفي خارج الجدار الجنوبي عند الزاوية الجنوبية الشرقية رسم كبير قد نقش على شكل (مدانتون) أخلطت به شعلات، ولعله رسم بعل (إله الشمس) قد حطم طرفه أهل القرية للأسف (زيارتنا ١٤/١١/٩٤٤) وفي شمال الهيكل ناووس ثابت حول أدراج يدل على أنه كان لرجل عظيم.

وفي القرية نفسها يلحظ هيكل صغير عليه كتابات يونانية. والصخور التي حول القرية قد نقر فيها كثير من الكهوف المقبرية كما أن في جنوبها مسيلاً صغيراً فيه أطلال بناء أثري آخر.

من رخلة إلى راشيا - (٣ ساعة وربع، مجاز دواب) بعد اجتياز وادي محصور بين جبلين. يصل السائر بعد ساعة وربع إلى هضبة صخرية فيها أطلال أثرية غير معينة. وبعد ساعة ونصف يبلغ قرية عهيا، في طرفها الغربي أطلال هيكل قديم عليه كتابات يونانية، وعلى بعد ٣٠٠ متر من القرية سماوة امرأة منقورة في الصخر وبضعة من أحداث هذه الأنحاء الواقعة التي جرت بين عساكر الطولونيين سنة ٢٩٠ القادمة من مصر وبين القرامطة الهاجمين على دمشق، وذلك في قريتي كناكر وكوكب.

ومن مرتفعات هذا الإقليم تنحدر مسايل عديدة كنهر بربر الهابط من أنحاء برقش وقلعة جندل ونهر عرنة ونهر السبيراني ونهر الجناني.

أما وادي العجم الفوقاني المعروف بإقليم البلان فهو قرى سفوح جبل الشيخ أو ما يقرب منها وطوله نحو ٥٠ - ٣٥ كم وارتفاعه من ١٠٠٠ - ١٥٠٠ متر يحده جنوباً الجولان وشمالاً صحراء الديماس وقضاء راشيا وشرقاً وادي العجم التحتاني وغرباً جبل الشيخ وقضاء حاصبيا، وهو يؤلف ثلث القضاء فقط، وأهم قراه عيسم وهي أول الإقليم على نحو ٧ كم من قطنا، ومن قراة عين البرج وقلعة جندل وبيت تيما وكفر حور وبيت سابر وحينة وبقعسم وعين الشعرة وريحة وعرنة ودربل وبيت جن وجرنة وخربة السوداء وحضر وسحيته وطرنجة وجباتا الخشب ومقروصة وحلس وبرقش وكفر قوق وصوجة ورضوان وامبيا ودورين والسجاع وصورة ورأس العين ورخلة ويعفور. ونظنه (ابلية) المذكورة في التوراة بأنها إحدى مقاطعات شرقي الأردن كانت تقع شمالي إيطورية (الجيدور) وغربي دمشق وكانت عاصمتها لبيلا (سوق وادي بردى) لا يعرف عن ماضي هذا القضاء ولا عن تسميته بوادي العجم شيء، فقد سكتت تواريخ العصور الأولى والمتوسطة عن بيان اسمه القديم وحالته وأحداثه. اللهم إلا ما كان من ذكر نهر الأعوج المعروف في التوراة باسم فرفر. على أن الهياكل والكنائس والنواويس التي في كثير من قراه الجبلية. تدل على عمران قديم، وأن الآراميين والرومانيين والبيزنطيين سكنوا هذه الأنحاء وعمروها وخلفوا فيها آثاراً، ففي رخلة وبيت تيما وكفر حور وكفر قوق وسحيتا كهوف مقبرية ونواويس نقرت في الصخر بصورة هائلة تدل على أنها مدافن أغنياء وأمراء، كما تدل كنائس وهياكل برقش ورخلة وعرنة وقمة جبل الشيخ، فإن الأحجار المنحوتة الضخمة وقلعة جندل على بسطة في العيش والرفاهية والمتعة.

وإقليم البلان الجبلي متوسط في زراعته لكثرة ثلوجه وصخوره ورقة أرضه على العكس من وادي العجم التحتاني، فإن تربته أخصب وتجود فيها كل الزروع والغراس لولا أن العناية قليلة لجهل الفلاح وابتلائه بالملاريا المنتشرة بحكم وفرة المياه واتساع الأراضي المسقية. والنفوس قليلة في هذا القضاء بالنسبة لمساحته والسبب هجرة السكان إلى أميركا وغيرها منذ نصف قرن متوالية وهم أخلاط

بمذاهبهم. فيهم المسلمون السنيون والدروز والنصارى الروم والكاثوليك والبروتستانت، والدروز أكثرهم مضاء وإقداماً على العمل ويليهم النصارى، وفي الخطط، إن من حسنات سليمان باشا والي دمشق سنة ١٢٢٥ ضمه إقليم البلان إلى ولاية دمشق بعد أن كان مستقلاً تحت لواء أمراء راشيا الشهابيين. وكان هؤلاء الأمراء مستبدين، والأهلون يقاسون منهم حروب الجور فتخلصوا من هذا الضيم.

ومن عهيا يبلغ بعد نصف ساعة إلى راشيا ماراً من قرب مستنقع كفر قوق.

٣ ـ الصعود إلى جبل الشيخ ـ تم فتح طريق السيارات إلى قلعة جندل وعرنة، وطوله نحو ٢٠ كم، وهو يمر بعد مغادرة قطنا من بقعسم الفوقا، وهذه عبارة عن بضعة بيوت حقيرة يلجأ إليها أصحاب الزروع وقت الحصاد فقط، في الكم ١٣ عين البرج، وهنا بقعة جبلية جميلة جداً، فيها مزرعتان إحداهما واسعة ومحاطة بالحدائق والكروم المتدرجة في حضن الأكمة.

في الكم ١٤ قلعة كبيرة جبلية، علوها ١٥٠٠، سكانها ١٢٠٠ ثلثهم دروز وثلثاهم روم أرثوذكس ثم سريان كاثوليك، وفيها كنائس للطائفتين المذكورتين وخلوة درزية، وفوق هذه القرية صخرة عظيمة تحمل أطلال حصن عجيب مستطيل الشكل، وفي واد سحيق، وقد نقر كله في الصخر الصلد. وإذا صح الظن بأنه كان في ابتداء أمره هيكلاً، فيكون هو الهيكل الوحيد بين كل هياكل حرمون في اتجاهه إلى الغرب. والغالب أن بناءه يعود إلى العصور المتوسطة. فقد كان بناؤه منقسماً إلى حجرتين فالحجرة الغربية تحتوي في جدارها الغربي على محراب متجه إلى القبلة تدل على أثر الإسلام في هذا البناء، وعلى فجوات ذات عضائد وعتبات مزخرفة. وفي شماله يلحظ وجود مرمى وفي جنوبه نافذة منكسرة منقورة في الصخر. أما الحجرة الشرقية فتحتوي في كل جهاتها على جدران مبنية. ففي جنوبها درج يوصل إلى نافذة مفتوحة. وفي طول الحجرتين المذكورتين ممر داخلي يطل إطلالاً عمودياً على منحدر كثود فوق الوادي ويوجد تحت الحصن قبو.

ومن قلعة جندل لحب صالح يتجه جنوباً نحو قريتي بيت تيما وكفر حور. وبين هاتين القريتين لحب ينحرف نحو اليسار ويذهب نحو بيت سابر (في الكم ١٢) ويتصل فيما بعد بطريق دمشق ـ القنيطرة وكذلك بعد كفر حور يمر الطريق بحينة

(وفيها أطلال هيكل صغير مربع). وفي حينة ينقسم الطريق إلى فرعين فيذهب الأول إلى دربل والثاني ينتهي ببيت جن، وفي هذه كهوف مقبرية.

ومن بعد قلعة جندل تتبع طريق السيارات حضن جبل بربر وتطل إطلالاً عمودياً على وادي بحيران السحيق ذي المياه الدافقة، وفي الكم ٢٠ بقعسم، قرية درزية جميلة المنظر، ومن بعدها تتمعج الطريق كثيراً فوق أودية سحيقة موحشة ومنحدرات عمودية رهيبة، ثم تجتاز قرية الريمة المعلقة فوق عرفة صخرية، وبعدها بقليل تظهر قرية عرنة، وسط حدائق وكروم غناء وعيون ثرة وذات دور جبلية متراكبة امتدت في قعر وادٍ فسيح في سفح حرمون العظيم، وهي تعلو نحو ١٥٠٠ متر، سكانها ٦٠٠ نصفهم دروز ونصفهم روم أرثوذكس. وهي من أجمل المصايف وأنقاها هواء وأبردها ماءً، على الرغم من أن وسائط سكنى المصطافين وحاجاتهم لم تتيسر فيها بعد كما ينبغي. وفي قربها منتزه وسط واد أغنى عند عين ثرة باردة تدعى عين عيسى يرتادها قاصدو النزهة والرياضة من دمشق وقطنا بسياراتهم. وقيل إن في عرنة فحم حجري غير ناضج وهناك عين سابا وغيرها من العيون الكثيرة، فأينما ذهبت تجد ظلاً وماء سلسبيلا، وكان اسم عرنة قديماً وفيها مما يدل على عمرانها القديم أطلال هيكلين، الأول في غربها فوق واد سحيق، ليس لأنقاضه شكل وقصد ظاهر، وقد وجدت في زاويته الغربية كتابة يونانية. والثاني في شمالها وفي مكان مرتفع مشرف على القرية، وهو يمتد من الشرق إلى الغرب، نقرت له صخور الجبل لينفسح المجال لبنائه. وأحجار جدرانه غاية في الضخامة وليس فيها أي أثر للشيد والملاط. وفي أعلى هذه الجدران كورنيش مزخرف. ومدخل هذا الهيكل في وسط الجدار الشرقي، وعلى هذا المدخل عتبة كبيرة من حجر واحد، قد انكسرت في عهدنا، ويلحظ وجود ثلاثة صفوف أعمدة دورية في طول البناء، ولا يعرف ما إذا كانت هذه الأعمدة قديمة أصلية أم جلبت ووضعت بعد، وفي الغرب ترى كوة كان فيها تمثال.

ومن عرنة يمكن الصعود إلى قمة جبل الشيخ راكباً على بغل أو راجلاً، في شعب شديد الكئودة ومن طريق (عين المصلبة)، وخلال أربع ساعات والأفضل أن يجعل الزائر صعوده في ليلة قمراء ومن الهزيع الأول من الليل ليلحق القمة باكراً

ويتحلى بهلال الفجر وروعة الشروق وصفاء الجو في الآفاق التي يشرف عليها من ذلك العلو الشاهق، وقد تقدم ذكر مناظره. بعد عرطوز وعلى يسار الطريق مزرعة جونية وتل المنسفة ومزرعة كوكب.

عودة إلى طريق القنيطرة: وفي الكم ٢١ يترك طريق القنيطرة لحباً يذهب (في ٨ كم) إلى قرية زاكية. جبل الشيخ هو جبل حرمون المذكور في التوراة وسماه العرب جبل الثلج. قال حسان بن ثابت:

من دون بصرى ودونها جبل الثلج سبح عليه السحاب كالقدد

ويسمى أيضاً سيئون وسنير. ويعلل البعض تسميته بالشيخ لبياض الثلج الذي على قمته ويشبه رأس شيخ أشيب. ولأن علوه يحفظ الثلوج إلى آخر فصل الصيف ولاسيما في المنحدرات العالية التي لا تعبث بها الرياح الحارة وأشعة الشمس. وعلو أعلى قمة فيه ٢٨١٤ متراً عن سطح البحر، وطوله ٣٠ كم وهو إلى الجنوب الغربي من دمشق على بعد ٢٥كم، ومن الغريب في أمر هذا الجبل أن العيون المنبجسة من ثلوجه تكثر جداً في شرقه كينابيع نهر الأعوج وفي جنوبه كعيون نهر الأردن، بينما هو في سفوحه الغربية والشمالية ضنين بالماء جداً لاسيما في أنحاء راشيا.

قدس القدماء حرمون فكان من الجبال التي يهرع إليها العباد كما تشهد بذلك المعابد الكثيرة المبثوثة في كل سفوحه وقممه، وكان الاسرائيليون يعجبون بعلوه ويجلونه، لأنه يجمع على ظهره وفي صدره الغيوم. وقد ورد في نشيد الأناشيد كلام على الحيوانات الكاسرة التي كانت تسرح فيه، ولا يزال فيه إلى اليوم نوع من الدببة من الذي يسميه الإفرنج الدب السوري، وفيه أنواع من الثعالب والذئاب وضروب من الطيور، وهو قاحل لا خضرة فيه ولا أشجار إلا بعض الأعشاب والأنجم الغثة، وذلك لشدة انحداره ولدوام انهيال تربته وتكسر أحجاره وفقدان المياه منه بعد زوال الربيع، ولا يعلم ما إذا كانت السفوح والمناكب القريبة منه مغروسة بالحراج إلى الأمكنة الغربية قد يعثر على بعض الأشجار المثمرة البرية كاللوز والكمثرى والكرز والخوخ، وعلى نباتي السيكران والسراس وغيرهما.

وهي مركز ناحية وقرية كبيرة، سكانها ١٥٠٠ مسلمون، مبنية وسط وعرة كأداة. وقبل زاوية يلحظ أحواش أو مزارع دروشة والبويضية، وقرية كبيرة اسمها الدير خبية، ومنذ عرطوز تحاذي هذه الطريق فرع نهر الأعوج الشديد التعرج، تتركه على يسارها، كما تترك على اليمين وعن بعد قليل تل قبية (علوه ٩٧٥) وفي غرب هذا جبل القلع (علوه ١٠٥٤)، وفي الكم ٢٤ يمر من غربي خان قديم اسمه خان الشيح . وفي الكم ٢٨ منعرج كبير يحدثه نهر الأعوج . في الكم ٣٢ على اليسار مخفر درك أم الشراطيط. في الكم ٣٥ يترك على اليمين لحياً صالحاً يذهب إلى بيت سابر (كم ٦) وإلى كفر حوار (كم ١٢)، وهذه قرية درزية كبيرة مبنية فوق أكمة وسط حدائق وكروم وفي غربي هذه قرية حينة.

ثم يعبر الطريق فرع نهر الأعوج من فوق جسر . ثم في الكم ٣٨ يعبر ثانية نهر الأعوج الأصلي فوق جسر كبير، ويجتاز سهلاً فسيحاً خصباً مزروعاً ومغروساً في آخره قرية سعسع، وخان سعسع الأثري الكبير، وهو من بناء الوزير العثماني المشهور سنان باشا (الارغودوي المتوفى ١٠٠٤هـ) وهو خان واسع مستطيل الشكل، له سور خارجي محصن بأبراج ويحتوي على عدد كبير من الغرف الحقيرة المتهدمة، يسكنها بعض الفلاحين.

وبعد سعسع يتغير منظر الطريق، فيدخل في بقعة وعرة خربة سوداء كئيبة، فيغادر على يسار الطريق تلاً اسمه تل الشام. وفي الكم ٤٥ على يمين الطريق قرية دروين . وفي الكم ٤٧ على اليمين أيضاً ووسط وعرة موحشة ضيعة الشوكتلية وعلى اليسار العثمانية . في الكم ٤٩ منظر جميل نحو كتلة جبل الشيخ، الذي في سفوحه عن بعد تظهر قرى بيت جن وريمة اللتان تقدم ذكرهما، ومن ثم يدخل كورة الجولان إحدى كور حوران التاريخية.

في الكم ٤٥، على عين الطريق مرج أخضر افيح مزروع اسمه برج برغوت. يخص أهالي قرية جبا، وهذه بعيدة عنه نحو ٥ كم إلى الجنوب، وفيها ضريح الشيخ سعد الدين الجباوي مؤسس الطريقة السعدية. وفي الطرف الشمالي الغربي لمرج برغوت تل.

في طرفه الغربي الشمالي تل أثري اسمه كوم الويسية في حضيضه منبع نهلا العرتم أحد روافد نهر اليرموك، وفي الكم ٥٧ على يمين الطريق قرية كبيرة اسمها خان أرنبة، فيها خان أو مخفر عثماني قديم خراب. ومن هذه القرية مجاز دواب يوصل إلى قرية جباتا الخشب مقر إحدى الأسر العربية المسلمة في هذه الديار، وفي شرقها قرية طرنجة وفي شمالها سحيتا. في الكم ٦١ يعبر الطريق جسراً حجرياً كبيراً فوق نهر الرقاد الضحل، في جنوبه أراضي قرية صغيرة لمهاجري الشاشان اسمها الصمدانية إلى أن يصل في الكم ٦٦ إلى القنيطرة.

وفي غربي سعسع من القرى خزرجية وفي غربي هذه المقروصة ثم بيت جن، وفي جنوبي سعسع مزرعة شورا وقرية دير ماكر.

سرتلين الشمالي منها تل الهوا والجنوبي تل الشحم وبينهما قرية دير ماكر.

وفي غربي دوريني ضيعتا حلس وحرفا.

وهنا ينتهي قضاء وادي العجم ويبدأ قضاء القنيطرة.

وثمة على اليسار (تل الغار ١١٦٩) وفي جنوبه قرية جبا المختفية وراء التلول نزل فيه السلطان صلاح الدين في رمضان سنة ٥٨٤ في طريقه من دمشق إلى فتح صفد وعبر وقتئذ الشريعة مخاضة الأحزان.

في الكم ٦٦ القنيطرة. بليدة، علوها ٩٨ متراً وسكانها ٢٠٠٠ أكثرهم من مهاجري القفقاس شركس وداغستانيين، والبقية موظفون وتجار وصناع من دمشق وغيرها، وعدد ضئيل من نصارى مجدل شمس وغيرها الذين لجأوا إليها عقب ثورة سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٥ م وهي قاعدة كورة الجولان ومركز قضاء يدعى باسمها، وفيها محكمة صلح وجند درك، وجند متطوعة ودائرة بريد وبرق، وهذا لقربها من حدود فلسطين وفيها جامعان كبيران ومدرسة ابتدائية وأخرى أهلية. وقد كانت القنيطرة في العصور الماضية ضيعة صغيرة ملتفة حول خان من آثار لالا مقطعي باشا هو الآن خراب بنيت فوقه دائرة حكومة القضاء، ولم ينبه ذكرها إلا بعد أن نزلها مهاجرة الشركس والداغستان في أوائل القرن الهجري الحالي، فعمروها وبنوا فيها بادئ بدء دوراً حقيرة بأحجار البازلت الأسود التي كانوا يركمونها ركماً، ثم تدرجوا منذ ربع قرن لبناء ما هو أوسع وأجمل وسقفوا بعضه بالآجر الأحمر،

فصارت تظهر للقادم كبليدة عصرية حسنة، ذات شوارع مستقيمة وحوانيت ومقاهٍ عديدة، وسط سهل أفيح أخضر تظهر حوله عن بعد عدة تلال وآكام، أجلها تل أبو الندى في غربيها، وفيها حركة تجارية غير يسيرة لجنوب بلاد الجولان ومواشيها ويقام فيها كل نهار جمعة سوق عام للمواشي.

الجولان:

الجولان ومعناها الدائرة وهي كورة كبيرة من كور الشام من أقسام حوران، يحدها من الشمال جبل الشيخ ومن الشرق نهر الرقاد (العرام) ومن الغرب بحيرة طبريا والحولة ونهر الأردن الأعلى، ومن الجنوب وادي اليرموك. وكانت تسمى هذه الكورة بالعبرية كولان GOLAN هو اسم كان يطلق قبلاً على مدينة إسرائيلية مقدسة من بلاد باشان ينزلها سبط منسي (تث ٤:٣٤) و (يسوع ٨، ٢٠) وهي اليوم قرية (سحم الجولان) المذكورة في التوراة سيأتي وصفها وكانت هذه الكورة من جملة مملكة هيرودس فيليسيوس ابن هيرودس الأكبر الذي جعل عاصمته بانياس. وكانت تدعى جولاميتيد GAU LAMI TIDE وتشمل الجيدور الحالية أيضاً. وليس لهذه الكورة ذكر كاف في التواريخ العربية. قيل الحارث الأعرج الغساني نزلها. وأن شرحبيل بن حسنة افتتحها، وورد ذكرها في شعر حسان بن ثابت بقوله:

قد عفا جاسم إلى بيت راس　　فالجوابي فحارث الجولان

وفي شعر النابغة بقوله:

بكى حارث الجولان من فقد ربه　　وحوران منه خائف متضائل

وقيل حارث الجولان قرية من حوران.

وقد كان قضاء القنيطرة الحالي في العهد العثماني من أعمال لواء حوران، إلى أن سعى الشركس بربطه رأساً بعاصمة ولاية الشام، فتم لهم ذلك حول سنة ١٣٢٣هـ. وقد كان يتبعه ثلاث نواحي: ناحية الشقراء وفيها من القرى مجدل شمس

وجباتا الزيت وبانياس وعين قنية وعين فيت، وزعورة ومينور الشباغته والغجر وخان الدوير ومزارع الفضل القريبة من جبل الشيخ. وناحية الجولان وفيها قرى الشركس وأجلها القنيطرة والمنصورة والصمدانية وعين الزيوان والصرمان والخشنية ومومسية وبئر عجم وبريقة وجويزة وفزارة والفحام، وقرى التركمان ومزارعها وأهمها عين عائشة والرزانية وضابية وأحمدية وحسينية وحضر وعين سمسم وكفر نفاخ وقادرية وعليقة وسنديانة وحفير وقرى الحوارنة كجبا وخان أرنبة، وقرى عشائر الأعراب كالهوادجة والبحاترة والويسية والقصيرين والجعاتين، وناحية الزوية، وهذه فصلت بعد سنة ١٣٤٠ وجعلت قضاء تابعاً لمحافظة حوران مباشرة.

وأراضي الجولان جيدة في الجملة، لولا صعوبة العمل فيها من وفرة أوعارها وأحجارها، وتربتها سوداء بركانية، تجرد زروعها في السنين التي تقل أمطارها، وتغرق في سني الري الكثير، لاسيما أنها غنية بالأمطار والندى والضباب إلى حد الإفراط (لا تقل أمطار القنيطرة في أغلب السنين عن ٨٠٠ مم فهي أغنى بلاد الشام الداخلية بذلك). فبينما تشكو الكور المجاورة في الشرق تئن الجولان من الغرق. ولذلك تصلح أراضيها لتربية الماشية كثيراً، وتكاد تكون البقعة الوحيدة التي تصلح لهذا الغرض في بلاد الشام، وفيها عرق من البقر خاص بها أسود اللون مع لطخات بيضاء، يحسن الشركس تربيته والارتزاق به كما يحسن الأعراب تربية الغنم واقتناءه. وهمة الفلاح الجولاني ضعيفة، لأنه في الغالب لا يملك أرضاً له ينفق سنين ليتوفر على إتقان حرثها وزرعها، بل إن أغلب القرى ملك لأمراء عشيرة الفضل. وبعض أعيان دمشق من أكراد ومغاربة. وهؤلاء يكتفون باتساع المساحة دون التوفر على إتقان العمل. وهكذا لا يشاهد رقي الزراعة نسبياً إلا في مزارع الشراكسة إذا اختص كل فرد منهم بقطعة أو قطع تناسب حاله وشأنه فأصلحها لما ساعدته مادته وقوته، وبنى البيوت بالحجر والقرميد وغرس قليلاً من الأشجار والكروم وعنى بتربية البقر وأثرى منها وعاش في الجملة أحسن من عيشة سكان الجولان الأصليين، ولو أتيح للشركس أن يتوسعوا في الملك والأرض بالقدر الذي يكفي لإعالة أسرهم، لما اضطر أبناؤهم إلى التطوع في الجندية وما إليها من الأعمال التي فيها دفع وجذب. وتتميز القنيطرة بغزارة أمطارها في الشتاء (لا تقل عن ٨٠٠ م في

أغلب السنين) وقسوة بردها وشدة رياحها ووفرة الندى والضباب في جوها في أكثر فصول السنة.

المسافات من القنيطرة إلى دمشق ٦٧كم، إلى نوى ٣٨ كم. إلى شيخ مسكين ٥٢كم، إلى درعا ٧٨كم، إلى جسر بنات يعقوب ٢٧ كم.

وذكرها القلقشندي وذكر أنها كانت مقر عمل الشعرا تارة كما كانت قرية خان تارة أخرى. وإن هذا العمل يمتد ما بين بانياس إلى جبل الشيخ. جامع القنيطرة، كان صغيراً شبه خراب من بناء لالا مصطفى باشا، ظل على ذلك إلى عهد الإفرنسيين، ثم رمم بشكله الحاضر الجميل بإعانة الأهلين والبعثة الإفرنسية والأوقاف سنة ١٩٢٢، (جامع الداغستان) للشوافع، هو أصغر من الأول بني بإعانة الأهلين سنة ١٩٣٢، أما السراي الحالية فهي فوق الخان الذي بناه لالا مصطفى باشا.

من القنيطرة إلى بانياس

طريق معبد جيد، ٢٤ كم يخرج السائر من وسط القنيطرة متجهاً نحو الغربي الشمالي، فيرى على يمينه ويساره عدة طواحين هوائية، وبعد ٣ كم وسط السهل الأفيح، المنصورة، قرية شركسية، سكانها ١٥٠٠، وفيها مسجد ذو مئذنة، وبعد الخروج منها يترك على اليسار لحباً دعساً متجهاً إلى الغرب الجنوبي يفضي إلى ضيعة اسمها واسط فيها قصر كبير قديم كان بناه الأمير محمد رئيس عشيرة الفضل.

وبعد أن كان الطريق في بدئه آخذاً للغرب ينحرف نحو الشمال ويصعد هضبة، في الكم ٧ على اليسار عين الحجل، ضيعة حقيرة درزية وعلى اليمين عين حور - وفي الكم على اليسار وعلى اليمين بقعاتا قرية كبيرة درزية سكانها ٩١٦، ثم يجتاز الطريق خطاً مستقيماً فيه على يمينه ويساره هضبات كانت هضبة تكثر فيها غابات السنديان وقد كانت فيما مضى أكثر وأكثف من الآن.

في الكم ١٥ يمر الطريق من وسط مسعدة وهي قرية صغيرة درزية، وفيها منظر جميل نحو الطرف الجنوبي من سلسلة جبل الشيخ.

على بعد نحو ٢ كم من قرية مسعدة وإلى شرقها الشمالي بركة الرام، أو بحيرة الرام، عجيبة التكوين، وهي خوبة سحيقة كالقمح محصورة بين آكام. ويظن أنها البحيرة نفسها التي تحدث عنها المؤرخ يوسف قلاقوس وسماها TLIALA أي المقطع.

وزعم أنها من ينبوع نهر الأردن الأصلي وأنه منها يجري في مجرى مستتور تحت الأرض إلى بانياس، وإن فيلبيس رئيس ربع تراقونتين (اللجا) أول من اكتشف ذلك فإنه أمر بطرح تبن في هذه البحيرة فخرج من بانياس. وذلك أشبه بما يقال عن مغارة أفقا في لبنان، فقد زعم بعضهم أن نبعها في بركة اليمونة مستدلاً على ذلك بإلقاء التبن في البركة فخرج من المغارة.

ومن قرية مسعدة طريق يتجه نحو الشمال ثم يهبط قعر وادٍ ثم يصعد إلى قرية كبيرة اسمها مجدل شمس، في حضن جبل الشيخ سكانها ١١٠٠ دروز، وكانت قاعدة مديرية ألغيت مؤخراً.

إن الأراضي الخاصة بأعراب الفضل تمتد من قرب المنصورة جنوباً حتى بانياس شمالاً ومن جباتا الخشب شرقاً إلى الحولة غرباً. ولا يطوفها الراكب بالسير المعتدل في أقل من ثلاثة أيام يقل سكانها واستغلالها بالنسبة لمعظم بقعتها، غلاتها جيدة، وفيها بعض الأشجار والكروم والغابات التي كانت فيما مضى أكثر من الآن وفيها صورة مصغرة من مناخ بلاد الشام، ترى فيها إذا هبطت من القنيطرة إلى بانياس الصيف والشتاء في آن واحد. وأميرها وهو اليوم فاعور بن محمود الفاعور مالك هذه الأراضي كلها. وهذا الأمير حاكم مطاع في عشيرته عرب الفضل المؤلفة من نحو ١٥٠٠ بيت، لا يشاركه في ملكها سوى شيخ الهوادجة وبعض الجاترة وهم عبارة عن ١٨٠ بيتاً يملكون جزءاً صغيراً منها، وعرب الفضل أعراب مختلفو المنبت والمشرب التفوا من عهد بعيد حول (آل الفاعور) وهؤلاء الأمراء على ما يحقق لي ليسوا كما يزعمون من أعقاب الفضل بن العباس، الذي لم يعقب بل كان عقب العباس من أخيه عبد الله فقط (تاريخ الأمم الإسلامية) للخضري بل هم من أعقاب

آل الفضل ذوي الشهرة الطائرة في عهد السلاطين المماليك، الذين كانوا أمراء البادية وساداتهم في شمالي الشام من القرن السادس إلى ما بعده من القرون كما ذكره القلقشندي في صبح الأعشى، ويظهر أن فرع الفاعور انفصل عن أبناء عمه آل عيسى بن مهنا الذين تبدل اسمهم فصاروا (آل أبو ريشة) تأمروا عشيرة الموالي الباقية حتى الآن في كورة العلاء شرقي المعرة، وانتقل فرع الفضل إلى كورة الجولان قبل ثلاثة أو أربعة قرون واحتفظ باسم (الفضل) كما احتفظ بلقب الإمارة ومالها من آثار السؤدد والغنى، وعشائر الفضل الملتفة حول هؤلاء الأمراء كثيرة العدد، أسماؤها يجمعها كلها اسم الفضل وكلهم رحل أو من سكان بيوت الشعر، ولكن رحلتهم في أرضهم لا يتعدونها إلى القاصية وأميرهم يدفع ما على أراضيه من الأعشار والضرائب الخفيفة ويتحكم في أموال أعرابه ودمائهم وأتعابهم. وأهل الجولان مسلمون سنية في الغالب، ليس فيها سوى ثلاث قرى في آخر عملها اسمها عين فيت وزعورة وعنجر سكانها نصيرية، لا يعلم كيف ومتى كان انتقالهم من جبالهم في الشمال.

وبعد مسعدة يتجه الطريق نحو الغرب ثم يبدأ بالهبوط من كورنيش فتح في العدوة الجنوبية من واد سحيق عظيم اسمه وادي سعار، في هذه العدوة أشجار متفرقة أو متكاثفة من أشجار السنديان النضرة، وهي بقايا ما كان في هذه الأنحاء من الحراج الكثيرة. في الكم ١٨ يترك على اليسار طريقاً يصل إلى قرية نصيرية اسمها زعورة، وفي غربها قرية نصيرية أخرى عين فيت.

في الكم ٢٠ يلحظ على العدوة الأخرى للوادي، في الجهة الشمالية، وفوق أكمة منفردة قلعة الصبية العظيمة وسيأتي ذكرها.

وهنا أنسب مكان لرؤية هذا البناء الحربي الهائل الذي تعلق بذروة الأكمة كأنه وكر نسر فوق شقوق من الصخر وفي جهة القلعة المذكورة يلمح قريتين صغيرتين، السفلى عين قنية (درزية) والعليا (عين الريحان) ويلحظ إلى شرقهما وعن بعد جباتا الزيت، قرية مسلمة كبيرة سكانها ١٠٠٠.

ثم يستمر الطريق في الهبوط من أسناد الجبل وفي امتداد المضيق الذي يؤلفه وادي سعار، إلى أن يبلغ السهل ويعبر سعار فوق جسر حديث بني سنة ١٣٤٦هـ،

ويتقدم نحو غربي قرية بانياس، ويعبر جسرها القديم الممتد فوق وادي الخشبة الذي يتألف من ينابيع بانياس.

في الكم ٢٤ بانياس قرية صغيرة سكانها ٢٠٠٠ مسلمون، وفيها مخفر درك، تقع في حضيض التل الشرقي المعروف بالهيش في أعضاد جبل الشيخ، عند ملتقى واديين، وادي سعار في الجنوب ووادي الخشبة في الشمال وتطل على سهل الحولة ومرتفعات هونين وهي ذات موقع نضر، جذل، يحميها جبل الشيخ من رياح الشمال، وترطب جوها الينابيع والجداول الدافقة الصاخبة، فتسقي فيها الأشجار ولاسيما الحور والصفصاف ويصح الليمون والبرتقال وتخضر دوماً الآكام والسفوح المحيطة بها، فتظل دافئة نضرة في الشتاء وحارة في الصيف. ودور بانياس حجرية، بني أكثر أقسامها من الأطلال الأثرية، وتعد بانياس آخر عمل الجولان وأول عمل الحولة، قال شيخ الربوة في وصفها: بانياس مدينة قديمة حصينة كثيرة الحدائق وهواؤها وبئ وترابها كذلك وبها مياه غزيرة وآثار لليونان قديمة، وقال، أبو الفداء في تقويم البلدان: بانياس اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها وأنهار وهي على مرحلة ونصف من دمشق (٩٠ كم) من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب، والصبيبة اسم قلعتها وهي من الحصون المنيعة. وقال العزيزي.. ومدينة بانياس في لحف جبل الثلج وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالعمامة لا يعدم منه صيفاً ولا شتاء. وقال ابن جبير في رحلته في وصف بانياس إنها مدينة صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضي إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجاء. وكانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين، ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج اسمه هونين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ. قال وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلطة ولا صيف يجري بينهم فيها ، وذكر الظاهري في (زبدة كشف الممالك) زراعة الأرز التي كانت قائمة في جوارها.

قلت، وخرائب بانياس ذات شأن غير يسير تدل على عظمة من استولوا عليها رغم ما انتابها من حوادث الأيام، ولاسيما الزلازل، مياهها غزيرة لو توفرت العناية بإخراج الصخور والردم من طريقها لتضاعفت كميتها.

التاريخ يبدأ تاريخ بانياس من العهد اليوناني فاليونان منذ أن استلموا بانياس كرسوا المغارة التي فوق نبع الأردن باسم الإله بان جالينوس الغابات والحقول والمواشي والصيادين، ومنها نشأ اسم المدينة الذي احتفظ به العرف فصار من بعد بانياس، وقد شاد هيرودوس أمام المغارة المذكورة هيكلاً على اسم اوغسطوس، إلا أن بانياس لم تتقدم إلا في عهد ابنه فيلبس رئيس الربع حاكم المملكة المربعة في الطيورية (الجيدرو) فقد أنجز بناءها ووسعها فيليبس.

وفي عهد أغريبا الثاني أطلق عليها اسم (نيرونياس) مدة من الزمن نسبة إلى القيصر نيرون الظالم وجاء يسوع المسيح في آخر أيامه إلى أنحاء بانياس وأرسل من هنا إلى الخوري بطرس كلماته المشهورة أنت بطرس وفوق هامتك سأبني كنيستي.. الخ" "انجيل متى، ١٦، ١٨" وفي الرواية النصرانية أن بانياس كانت موطن المرأة التي شفاها يسوع المسيح من نزيف الدم في كفر ناحوم (انجيل متى، ١٩ و ٢٠) وفي سنة ٧٠م جاءها تيطوس واحتفل فيها بانتصار الجيوش الرومانية في معارك فلسطين وباستيلائهم على القدس وتخريبها. وأقام في بانياس ملعباً أجبر فيه أسراه من اليهود أن يصارعوا الوحوش الضارية فهلك منهم بذلك عدد كبير ودخلت بانياس بعد في النصرانية، وفي القرن الرابع جعل فيها كرسي أسقفية لاتينية تابعة لبطركية أنطاكية، وفي العصور المتوسطة استولى الصليبيون عليها وعلى قلعة الصبية، وذلك حينما فتحوا هذه البلاد في سنة ٥٢٤ أو ٥٢٥ عندما حاولوا فتح دمشق، وشادوا فيها أسواراً وأبراجاً وجعلوها إحدى معاقلهم الأمامية للدفاع عن ممتلكاتهم في الشام وفلسطين تجاه ملوك دمشق المسلمين.

ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى ج٤ ص ٢٠٤ قال عمل بانياس، مدينة من جند دمشق، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب، وهي في لحف جبل الشيخ وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالعمامة لا يعدم منه شتاء ولا صيفا وهي مدينة الجولان وبها قلعة الصبية من أجل القلاع وأمنعها.

(اسعار) قرية خربة بين مجدل شمس وجباتا الزيت وهناك نهر يعرف بنهر اسعار وكان أهل هذه القرية من الشيعة.

ـ سهل الحولة: طوله نحو ٢٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب وفيه بحيرة تسمى باسمه واقعة بالقرب من طرفه الجنوبي.

ويصب في زاويته الشمالية نهر أصله من نبع يدعى عين الملاحة يخرج من حضيض الجبل الغربي. والأرض الواقعة على الطرف الجنوبي والطرف الغربي من البحيرة إلى الملاحة تدعى بلاد الخيط. وقد تسمى البحيرة نفسها أحياناً ببحيرة الخيط ـ وإلى شمالي البحيرة أكمة ليس فيها سوى القصب والبردى، وهي ممتدة على أرض أكبر من أرض البحيرة. والأنهر التي تصب في بحيرة الحولة هي ١ ـ نهر الملاحة المار ذكره ٢ ـ نهر البلاط ٣ ـ نهر من أنحاء مرجعيون ٤ ـ نهر من أنحاء وادي التيم ويعد أبعد فرع لنهر الأردن ومخرجه من شمالي حاصبيا وهو المعروف بالحاصباني، ٥ ـ نهر من بانياس وآخر من تل القاضي ثم يخرج نهر الأردن من هذه البحيرة ويصب في بحيرة طبرية بعد مروره من جسر بنات يعقوب ثم يخرج من بحيرة طبريا ويصب في بحيرة لوط حيث يغدو ولا يخرج.

ومن دلائل عظمة بانياس في تلك العهود أنها كانت تتصل بدمشق وبرصيفين رسما في خريطة فلسطين عمل (معهد اونبرغ الجغرافي) وطبع جون بارتولووف وشركاه، الأول يتجه منها نحو الشرق الشمالي ماراً بمجدل شمس وعين التينة والحصر، ثم من بين بيت جن ومزرعة دير العشاير إلى بيت تيما ومن ثم إلى قطنا فكفر سوسة ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي داخلاً في الوعر نحو سعسع فخان الشيح فجونية فعين الباردة ويدخل غوطة دمشق من شرقي داريا.

وفتحها المسلمون سنة ١٥ هـ حين فتح الشام وكانت في عهد الصليبيين عرضة لمواقع شتى تتعاورها أيدي الإفرنج والعرب. فقد استولى عليها سنة ٥٠٣ هـ طنكري صاحب أنطاكية، ثم استرجعها المسلمون منهم وصارت في ولاية طغتكين صاحب دمشق إلى سنة ٥٢٠ ثم سلمها تاج الملوك بوري طغتكين وقتئذ إلى بهرام الإسماعيلي بإشارة وزيره المزرقاني، لان هذا كان قد كثر جمعه وعظم شرهم وطلبوا مكاناً يأوون إليه فأقطعهم بانياس، ولكن الإفرنج عادوا في سنة ٥٢٣ واحتلوها وزادوا فيما بعد في وسائل دفاعهم عن هذه الأنحاء عندما رمموا قلعة الصبيبة، وفي سنة ٥٢٧ جاءهم شمس إسماعيل بن موري صاحب دمشق وانتزعها منهم بعد قتال شديد هال

الإفرنج. ثم في ٥٣٤ لما حاصر عماد الدين زنكي دمشق ثم جاء ثانية واستولى عليها سنة ٥٣٤ فعادوا واستردوها، وبقيت في أيديهم إلى سنة ٥٥٢ حينما جاء نور الدين محمود واستولى على المدينة ولم يقدر على القلعة، ثم استردها بودوين الثالث أحد ملوك الصليبيين، ثم جاء نور الدين ثانية واستولى عليها سنة ٥٥٩ فثبتت من ثم للمسلمين وبعد موت نور الدين حاصرها الإفرنج سنة ٥٦٩ ثم نهبوها في سنة ٦١٤، وفي سنة ٥٦٦ جاء الملك المعظم عيسى بن صلاح الدين بن أيوب فدك حصونها ومعالمها لئلا يعود الإفرنج إليها ثم أقطعها إلى أخيه العزيز عثمان، فلما توفي العزيز ورثها ابنه السعيد وأعاد العزيز عثمان وابنه السعيد الحصون التي خربها المعظم كما يتضح ذلك من النقوش التي لا تزال باقية، ثم سلمها إلى الملك الصالح أيوب في سنة ٦٤٤ وجاء لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٥٠ واستولى على بانياس ونازل القلعة فامتنعت عليه وانهزم عسكره فعاد أدراجه، وبعد ذلك بزمن جاء المغول فخربوا قلعة الصبية في جملة ما خربوه، وأكثر ما في بانياس إلى الآن من الكتابات العربية من القرن السابع الهجري.

زيارة خرائب بانياس: يشرع بالزيارة من الجهة الشمالية الغربية، فيرى ثمة على ضفة النهر بقايا برجين من العصور المتوسطة. وكان برج ثالث على بعد قليل عنهما إلى الجنوب وغربي الطريق الحالية. وكانت جدران الأسوار مدعومة بأعمدة روابط أقحمت في جوف هذه الجدران كما هو الحال في جبيل وقيصرية فلسطين وعيها وهذه الأعمدة هي إما من حجر هذه البلاد الكلسي وإما من الغرانيت أي من الحجر المحبب الأسود المرقط المجلوب من صعيد مصر، وكلها من بقايا المباني التي كانت في العهد الروماني. وكان القسم المحصن في بانياس مبنياً في ملتقى النهرين ومستنداً عليها من الشمال ومن الجنوب، وإذا سلك الزائر السكة القديمة يمر في القرية ويصل إلى الجسر العتيق الذي في الزاوية الجنوبية الشرقية. وكان هذا الجسر محمياً ببوابة قوية أقحمت أيضاً في جدرانها أعمدة روابط من الغرانيت، وترى حتى الآن بعضها ملقى على جانب الطريق. وبناء هذا الباب في جملته يدل على أنه من عمل الصليبيين، إلا أن الباب الذي له عتبة ذات كتابة عربية، يظهر أنه أعيد بناؤه مؤخراً بعد عهدهم. وكانت تحصينات بانياس تمتد على طول ضفة النهر في الشرق

وفي الغرب، إلا أنها الآن خراب بالمرة. وإذا عاد الزائر أدراجه وتقدم بضع دقائق نحو الجبل يصل إلى نبع الأردن الصاخب الجميل. فيجد المياه تسيل بغزارة كلية ومن أماكن مختلفة تحف بها أشجار الصفصاف والحور وغيرها.

وفي الخطط ج٢ ص٧ "إن الذي جاء شمس الملوك إسماعيل، على حين غفلة وفتحه وذلك لما بلغه عن عزمهم على نقض الموادعة المستقرة، وكانت حصينة وكثيرة المقاتلة، فهناك الإفرنج ما وقع".

ومن أحداثها في العصور المتأخرة أن الأمير إسماعيل بن الأمير نجم حاكم حاصبيا أصلح في سنة ١١٨٧ قلعة بانياس وعمر ما كان قد هدم منها من زمان آل معن. فحضر إليه عثمان باشا الكرجي والي دمشق وحاصره وقبض عليه ونهب القلعة، ثم أمر بهدمها (تاريخ الأمير حيدر الشهابي).

(واكثروا التعجب من تسلل الأمر في فتحها مع حصانتها وكثرة الرجال فيها في أقرب مدة).

وعجز مجير الدين أبقي بن محمد بن بوري عن لقائه سلم بانياس إلى الإفرنج ليدفعوا عنه عادية عماد الدين فبقيت في أيديهم إلى سنة ٥٥٢.

أما مغارة الإله بان فهي فوق النبع. وقد ردمت وملئت الآن بصخور ضخمة متدحرجة من أعلى الجبل، وصارت زريبة للغنم والماعز وفي فصل الشتاء يمتلئ قعر هذه المغارة بالماء. وفي فصل الصيف تجف بالكلية. وبالقرب من مدخل هذه المغارة في الجهة الجنوبية قد نقرت خمس كوى في العهد اليوناني الروماني، كانت مخصصة لوضع السمامات. وفوق كوتين منها كتابات نذرية باليونانية وفي الجهة الشمالية وعلى قسم بارز من الصخر قد بنوا مزاراً باسم الخضر. وفي مدخل هذا المزار مذبح صغير روماني مهدوم، وفي جوفه ضريح صغير حقير مغطى بخرقة خضراء.

قلعة الصبية - تسمى قلعة بانياس (الصبية) ويسميها الأهلون هنا (قلعة النمرود)، يصعد إليها الزائر ماشياً أو راكباً خلال ساعة ونصف، ويستحسن استصحاب دليل من القرية.

إن هذه القلعة العربية كانت موجودة قبل عهد الصليبيين. فقد ذكرت التواريخ أن الأتابك طغتكين صاحب دمشق قد وجهها في سنة ٥٢٠ إلى الإسماعيلية وكان

رئيس هؤلاء وقتئذ بهرام ثم جاء الإفرنج سنة ٥٢٥ واستخلصوها منهم وسلموها إلى فولك. وفي سنة ٥٢٧ جاء شمس الملوك إسماعيل بن بورط بن طغتكين واستولى عليها، لكن الأمير علي الذي عهدت القلعة إليه وقتئذ سلمها إلى عماد الدين زنكي صاحب حلب. فاتفق بوري مع الصليبيين لاسترداد هذه القلعة من يد زنكي. وسلم الصليبيون هذه القلعة إلى ريز بروس، وأقاموا في مدينة بانياس أسقفية. وفي سنة ٥٤٩ زحف نور الدين محمود زنكي على قلعة بانياس، لكنه لم يفز بطائل، فسلم نصفها إلى الفرسان الاستباريين، لكم هؤلاء ما لبثوا بعد قليل أن تركوا ما استلموه وجاء في تلك السنة نفسها نور الدين فظفر بفتح بلدة بانياس، لكن قلعة الصبيبة ظلت ممتنعة عليه بفضل دفاع أوفر المذكور، حتى جاء بودوين الثالث لنجدتها، فاضطر نور الدين إلى إخلاء بانياس والرجوع عنها، لكنه عاد إليها بعد مدة قليلة مفاجئاً فلم يستطع سكانها الصليبيون الدفاع فلجأوا إلى القلعة ودافعوا حتى جاءهم بودوين الثالث للنجدة فعاد نور الدين خائباً مرة ثانية. لكنه في سنة ٥٦٠ عاد لمهاجمتها في غياب أميرها وأسقفها وتمكن من الاستيلاء على المدينة والقلعة نهائياً، وخسرهما الصليبيون تباعاً، وذهبت محاولة الملك عموري في سنة ٥٦٩ ومحاولة جيش القديس لويس ملك فرنسا في سنة ٦٥١ في حصارها عبثاً.

ولم تعد التواريخ تذكر عن هذه القلعة خيراً لفقدها المكانة الاستراتيجيكية التي كانت لها في عهد الصليبيين، ولعلها ظلت مأوى لبعض الزعماء الإقطاعيين، إلى أن جاء ذكرها في تاريخ الأمير حيدر الشهابي (طبع بيروت سنة ١٩٣٣) إذ يقول في حوادث سنة ١١٨٧ هـ أصلح الأمير إسماعيل بن الأمير نجم حاكم حاصبيا قلعة بانياس وعمر ما كان قد هدم منها من زمان بيت معن فحضر إليه عثمان باشا الصادق الكرجي والي الشام وحاصره وقبض عليه ونهب كل ما كان في القلعة من أثاث وذهب ثم أمر بهدمها.

وصف القلعة : قامت خرائب قلعة الصبيبة فوق قمة جبل منحدر يطل على قرية بانياس من شرقها، ويستند على الأعضاء الأولى لجبل الشيخ. وثمة شعب شاق يمر وسط الصخور وكروم الزيتون يفضي خلال نحو ساعة إلى القمة المذكورة وينتهي عند ثغرة بين البناءين المؤشر إليهما بحرفي ١، . . وفي هذه النقطة الشاهقة يطل

الزائر على مناظر غاية في الروعة، ففي الجنوب وفي الغرب يحيط النظر بأرض الحولة الخضراء وبحيرتها الزرقاء، ووراءهما سلسلة جبال الجليل الدكناء، وفي شمالي القلعة وهدة هائلة العمق والانحصار، يسيل في قعرها وادي الخشبة يفصل بين أكمة القلعة عن إسناد جبل الشيخ. إن هذا الوضع الاستراتيجي الذي يشرف على عدة طرق هامة قد لفت أنظار حكام هذه البلاد من أقدم العصور، فتعاوروا بناء هذه القلعة وتحصينها يدل على ذلك بلاط المباني الخربة فيها، فإنها من بقايا عدة عهود ودول، فالأقسام السفلى المطمورة هي من عهد الصليبيين، أما الأقسام العليا فخليط من بناء العرب والصليبيين.

وهنا، كما هو الحال في أكثر قلاع الشام، قد أثر شكل الأرض في تخطيط القلعة. فهي مؤلفة من سور واسع، شكله كالمثلث المتساوي الساقين، وطوله زائد، ورأسه في الجهة الشمالية الشرقية وقاعدته في الجهة الجنوبية الغربية. وقد جعلت التحصينات فوق الأماكن الأكثر ضعفاً وتعرضاً أي في الجبهة الجنوبية الشرقية التي فيها الصيصة. أما في الجبهة الشمالية الغربية التي تقف فيها صخرة القلعة وقوفاً عمودياً فوق وادي الخشبة فقد اكتفوا بجدار سور، بينما في الجهة الجنوبية الشرقية اضطرتهم تضاريس الأرض إلى حشد أجل التحصينات قدراً. وقد حفروا صهريجاً عظيماً في الجهة الشمالية الشرقية وخارج القلعة.

وأحجار الواجهة الجنوبية الشرقية مؤلفة من رخام منحوتة نحتاً ناتئاً وذات حجم وسط ومصفوفة صفاً متقناً وسجوف الخط الدفاعي التي تجمع بين جوانب الأبراج، جعلت بعرض أربعة أمتار وثقبت فيها رمايات. والأبراج الجانبية ذات أشكال مربعة أو مدورة، وكلها ذات طبقة واحدة للدفاع. أما تيجان الجدران التي كانت فيها زوافر رمايات فقد خربت بالمرة. إلا أنه لا يزال يرى في تواجدها آثار كثيرة لطرق المراقبة المعقودة التي كانت تمكن من اتصال الرماة بعضهم ببعض تحت طريق جدار المتراس.

وأقطع صلاح الدين بانياس وقلعتها إلى ابنه الأفضل، ثم استولى عليها بعده أخوه المعظم (٦١٥ ـ ٦٢٥) وأقطعها هذا إلى أخيه العزيز عثمان فلما توفي العزيز ورثها ابنه السعيد حسن وأعاد الأب والابن المذكوران الحصون التي خربها المعظم، كما

يتضح ذلك من النقوش التي لا تزال باقية. في سنة ٦٤٤ تسلم الصاحب أيوب قلعة الصبيبة من ابن عمه العبد بن الملك العزيز في سنة ٦٥٩ كانت هي وبانياس في إقطاع صاحب دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي. وبعد ذلك في سنة ٦٥٨ لما جاء هولاكو خرب المغول قلعة الصبية فيما خربوه من قلاع الشام، إلا أن الملك الظاهر بيبرس أعاد بناءها بعد أن فتح مدينة بانياس سنة ٦٥٩ فهو قد جددها وأنشأ لجامعها منارة، وبنى بها داراً لنائب السلطنة، وعمل جسراً يمشي عليه إلى القلعة.

في نقطة ١ برج عظيم مربع شديد البروز. وقد تهدم حتى وصل إلى مستوى قاعدة السور، وزال قسمه الأعلى بالمرة، ماخلا قسم كبير من جدار مع درج. إلا أنه قد بقي حتى الآن في قاعدة ثلاث طوابق للدفاع. ويمكن أن يلج الزائر إلى أعلى طابق من سطح مائل معقود يقع وراء سجف خط الدفاع عند نقطة ص فيجد نفسه وسط بهو واطئ مسقوف بعقود ذات زوايا بارزة. ومن هذا البهو عدة منافذ يوصل منها إلى غرفتين للرمي معقودتين قد ثقب في جدرانهما رمايات، والطوابق السفلى تحتوي على نفس الوضع من غرف الرمي، دون أن يظهر فيها طرق اتصال بالطوابق الوسطى.

وفي نقطة (ب) وفي جوف الأرض صهريج عظيم معقود للآن بماء آسن. وله درج للنزول إليه. وفي نقطة ت كان في وسطه المدخل الأصلي للقلعة، وهو الآن مطمور، وكان الباب مفتوحاً في واجهته الجانبية وأمامه عدة أدراج، وكان ضيقاً وواطئاً، يعلوه قوس ذو قمة حادة. وكان إذا ما ولج الداخل يجد نفسه وسط بهو مسقوف ذي زوايا بارزة. وعلى اليمين كان ينفذ إلى داخل السور من باب ثانٍ. وكان في جوف الجدار عند نقطة (ص) درج يصعد منه إلى السطح. إلا أن هذا قد خرب بالمرة.

وفي سجف خط الدفاع بين ث و د كان ينفتح خمسة كوى عمقها ٢.٥ متر معقودة بعقود حادة، ومثقوبة بمرمى يطل على طريق الوصول. وكانوا قد تمموا وسيلة الدفاع عن المدخل ببرج مدور (د) ذي بروز زائد، لم يكن فيه سوى طابق دفاعي واحد هو عبارة عن بهو كثير الأضلاع، مسقوف بعقود ذات زوايا بارزة تستند على ركيزة متوسطة. وثمة ست كوى ذات عقود مقوسة جهزت بمرام تنفتح نحو جوانب البهو المضلع وكانت تمكن الرماة من ضرب كل النقاط المجاورة لطريق الوصول. وثمة درج مزدوج يرتفع ضد المواجهة الداخلية للبرج يوصل إلى السطح أما

تيجان هذا السطح فقد زالت بالمرة، على أنه لا يزال بضعة زوافر من التي كانت تحمل دهليز الشرفات المثقوبة.

وسجوف خط الدفاع على جانبي برج "ج" خراب بالمرة ولم يبق فيها سوى قواعد جدرانها. ومما لا ريب فيه أنها كانت متصلة بطريق المراقبة clammier de rondo معقود ومثقو بمرام.

وفي نقطة "ج" برج مدور يحتوي على طابق دفاعي معقود ولكن ليس لعقوده ركيزة متوسطة، وهو مثقوب بمرام بقي منها اثنتان وكان في بهو الطابق باب جانبي يوصل إلى طريق المراقبة المعقودة الخاصة بالسجف.

والباحة الكبرى في داخل السور ترتفع تدريجياً نحو الشمال الشرقي. وفي أعلى نقطة فيها يقوم البرج الكبير الذي يشرف على القلعة كلها. وهذا البرج قد خرب معظمه كما هو الحال في بقية مباني القلعة. وكان يؤلف صيصة مستقلة، لأنه محصن في جنوبه الغربي من ناحية الباحة بخندق عريض وببرجين ضخمين مربعين (ق و ق) ويوصل إلى هذه الصيصة بدرج مهدوم بعضه، يقع في واجهتها الغربية وفوق البناء ذي الحرف "ن" وفي نقطة "د" صهريج ماء عظيم تحت الأرض. وفي نقطة (ل) بناء متوسط مستطيل الشكل كان يؤلف الصيصة الأخيرة وهو مستقل عن بقية البرج الكبير. وكان يحتوي على بهو كبير. ويظهر أن هذا البرج الكبير من نفس العهد الذي شيد فيه جدار الجهة الجنوبية الشرقية. لأن أحجارها متشابهة وأحجار الظهارة pare,emt قد مدت على شكل سطح مائل في قاعدة الأبراج. والشكل المستطيل سائد هنا تقريباً في كل المباني. حتى في عدة ثقوب ونوافذ حيث تجد عتبة وحيدة الحجر، قد مدت مكانه عوضاً عن إقامة قوس حاد.

وتحت البرج الكبير تمتد دهاليز معقودة. وفي الجهة الجنوبية الشرقية عدة طرق معقودة تمتد بين هذا البرج الكبير وجدار السور حتى البرج البارز (ك) الذي يؤلف النقطة القصوى للقلعة نحو الشرق. وكان هذا البرج أقوى جميع الأبراج وأمنعها. ولما كان قائماً فوق قمة زاوية حادة، كان لبنائه تضرس عظيم. وطابق الدفاع عبارة عن بهو مثمن الزوايا. والجهات الست التي كانت تشرف على الخارج كانت مثقوبة

بست كوى مع مرام. وفي داخل الجهتين الداخلتين فتحوا بابين كانا يتصلان مع سجوف خط الدفاع المجاورة.

ومن أحد هذين البابين كان ينفذ في نقطة (ش) إلى غرفة طويلة معقودة قد تهدمت بالكلية، ثم في نقطة (م) إلى بهو كبير معقود أيضاً. وكان هذا البهو مؤلفاً من ثلاثة طوق مزدوجة العقود منفصلة عن بعضها بأقواس بارزة. وكانت الأعصاب محمولة على زوافر وأرجل العقود على ركيزتين في الوسط. وهذا البهو لم يبق منه سوى اثنان من جدرانه مع بعض قطع من عقوده يشبه البهو الكبير في قلعة المرقب، وكان له باب سري للخروج له دهليز معقود يهبط في الشرق نحو الوادي.

وعلى الجبهة الشمالية الغربية، حيث المنحدر وقفة عمودية فوق الوادي، اكتفى بناة هذه القلعة بإقامة جدار بسيط على حافة الهضبة أما (ن) فهو بناء في أسفل البرج الكبير يحمي جدار السور بين نقطتي (م) و (ن) وفي نقطة (و) يوجد مخزن معقود وفي نقطة (ب) برج مربع مبني على الصخر، له طابق دفاعي معقود وذو مرام وذروة العقد قد ثقب فيها كوة للتهوية.

وفي الجنوب الغربي حيث الأكمة تؤلف سطحاً أمام السور، قد حميت هذه بخندق عميق محمي بمبانٍ مربعة أو متطاولة. إن في بناء هذه الجدران تبايناً عظيماً، وفيما يلفت النظر خاصة البلوكات العظيمة المنحوتة نحتاً ناتئاً (صورياً) وهي من صنع العرب، ولا يزال قسم من هذا الجدار قائماً. أما البقية فقد تهدمت وتدحرجت نحو الخندق وألفت كومة من الأنقاض تشبه نوعاً ما تلك التي في باحة الهيكل الكبير في الكرنك (مصر). وثمة بناء آخر مؤلف من أحجار بلوكات مصفوفة أيضاً صفاً حسناً لكنها أصغر حجماً من الأولى تشبه التي في الواجهة الجنوبية الشرقية، ولابد أن هذه أيضاً من صنع العرب. وأخيراً مجموعة جدران مؤلفة من أحجار صغيرة قليلة الانتظام سدت بها الثغرات في مختلف الأدوار.

في نقطة (ك) برج خراب في الخارج فوق أرض سماوية. وهو أعرض من شكل السطح، الذي جدران استناده مرممة بأحجار صغيرة يتخللها أحجار من التي ذكرنا ضخامتها البالغة. وفي جدار هذا البرج وعند قاعدته ينفتح في أرض الباحة السماوية دهليز تحت الأرض يهبط بدرج إلى أحضان الجبل. فهو يمتد بادئ بدء نحو الشمال ثم

ينعطف نحو الشرق ويقف بعد ٢٠ ـ ٣٠ متراً. وجدرانه الجانبية مؤلفة من بلوكات منحوتة نحتاً صقيلاً أبعادها تبلغ حتى ٣,٣٥ متراً في الطول و ١,٢٠ في العلو. وهذه الجدران قد طليت بالإسمنت وصفت صفاً غاية في الإتقان. وثمة عقد دائري مائل بقوس حاد القمة تلبس الجدران المذكورة. وفي الطرف الأسفل من البناء حيث المنظر يأخذ منتهى روعته، ثقب محفور في الأرض، قد ملئ بأنقاض، ويظهر أن هذا الثقب كان منفذاً للاتصال مع الخارج. وهذا الدهليز الغريب جداً لابد أنه كان باباً سرياً يفضي إلى جناح الوادي.

وعلى جانب مدخل الدهليز باب مسدود كان ينفتح نحو الساحة السماوية كان يفضي إلى داخل البرج، حوله كتابة عربية، ولعله كان باباً سرياً يفضي إلى الساحة السماوية أو لعله كان باباً ثانوياً للقلعة. وعلى يمين هذا الباب وفي جدار سجف خط الدفاع فتحة من نوع الأبواب الجذاعة فوقها قوس ogime ومدخنة تمر من وسط الجدار حتى أضراس السجف المذكور. في نقطة (ر) بناء مستطيل خراب جداً ليس له منافذ.

والباحة الكبرى داخل السور المؤلفة من تضاريس طبيعية، اجتمعت فيها أنقاض كثير من المباني كالمساكن والمخازن والأفران والاصطبلات.. الخ ففي نقطة (س) يوجد أسس كنيسة صغيرة. ويلحظ فيها بقايا أعمدة ذات قواعد مثمنة، وتحت الكنيسة بهو معقود، وأرض الباحة الملآنة بالأنقاض تحتوي أيضاً على صهاريج وأقبية.

من بانياس إلى جديدة مرجعيون .

من القنيطرة إلى فيق وإلى الحمة (٤٨ كم و ٧١ كم نحو الجنوب والجنوب الغربي) طريق معبدة حتى الفحام ١٤ كم، ثم لحب صالح في الفصول الجافة. إذا خرج من القنيطرة يسلك الطريق المعبد الذاهب إلى نوى ويترك على يساره قريتي عين صرمان وصرمان. ثم يمر من بين قريتين صغيرتين للشركس اسماهما عين زيوان والمومسية، ويلمح على يمينه عين عيشة، وثمة على اليسار آكام مشجرة تختفي

وراءها قريتا بير عجم وبريقة الشركسيتان.. وبعد أن يغادر يلاقي على يمينه عن بعد قليل قرية عيشة التركمانية، ثم في الكم ١٠ جويزة، قرية شركسية أخرى، علوها ٧٠٠، فيها منظر جميل يمتد نحو سهول الزوية وبحيرة طبريا وجبال فلسطين الشمالية. ومن ثم تبدأ الأرض بالانحدار نحو غور طبرية. في الكم ١٤ يترك على اليمين عن بعد ثلاث قرى شركسية هي قزارة والخشنية والفحام، ثم بين الفحام وقرية عربية اسمها عيشة يهجر الطريق المعبدة ويسلك لحباً يتجه نحو الجنوب الغربي، فيمر من شرقي تل كبير شاهق مخروطي اسمه تل الفرس (١٠٠٠ م)، ثم من الغرب ضيعتان اسماهما البطمية والرفيد، . وكل الأراضي هنا شديدة الوعورة كثيرة الصخور والحجارة، سوداء اللون، زكية التربة، يبقى كلؤها في أيام الربيع.

في الكم ٢٠ تبدأ حدود قضاء الزوبة. وفيه الجوخدار، تل كبير، فوقه ضيعة خراب، وفي أسفله خان وطاحون قديمة، كلاهما خراب، وأراضي الجوخدار يقطنها ويزرع فيها أعراب فلاحون من بني التيم والدياب والحناضة ما برحوا تحت المضارب ينتسبون لقبائل شتى يبلغ مجموعهم نحو ٥٠٠ أراضي الجوخدار رغم وعورتها وكثرة رجومها وحجارتها تنبت أجود كلأ وأبسقه، تغشاها في فصل الربيع ألوف من قطعان المواشي القادمة من قرى حوران أو العائدة للتجار الذين يجلبونها من بلاد الكرد وفي أراضي الجوخدار رصيف أثري قديم يأتي من الغرب ويتجه نحو حوران في الغرب، وعليه في كل بعد وآخر أحجار أميال وأنقاض مخافر. تنبسط الأرض نوعاً ويجتاز المجاز بقعة مستنقعة يتعذر سلوك السيارات فيها في الشتاء.

في الكم ٣٣ خسفين قرية سكانها ٣٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم نصارى علوها ٥٢٠م وفيها مخفر درك ومركز هاتف، وقد كانت في ملتقى الطريقين الرومانيين، القادم عليها من دمشق المار بكفر ناسح وعقربا والحار وعويسة والثاني القادم من نوى. وفي جنوبي هذه القرية وغربيها تمتد مقبرة أثرية واسعة. في الكم ٣٨ ناب، ضيعة، مسلمة هي nab المذكورة في التلمود.

في الكم ٤٣ العال، قرية، سكانها ٨٠٠ مسلمون (علوها ٤٢٠)، في جنوبها الغربي مقبرة أثرية، وفي القرية نفسها كسور أحجار أثرية منقوشة، وكانت (العال)

موقعاً استراتيجياً على الطريق الكبيرة الممتدة من دمشق إلى القدس، وفي سنة ٤٩٩ ـ ٥٠٠ هـ بنى الإفرنج فيها قلعة لم يلبث المسلمون أن جاؤوا واستخلصوها منهم.

في الكم ٤٢ فيق.. قرية، سكانها ١٠٠٠ مسلمون، جعلت قاعدة قضاء الزوية منذ سنة ١٣٤٠ ـ إلا أنها لا تزال صغيرة حقيرة ليس فيها من أسباب الإقامة والعيش ما يكفي.. وهي القديمة التي ذكرها (أوزب). ويذكرها مؤلفو العرب كثيراً بأنها محطة ذات شأن على طريق دمشق ـ القدس. ويوجد أمام مسجدها بضعة آثار كبقايا أعمدة وغيرها.

وفي شمالي فيق، على بعد ٣ كم قرية اسكوفية، سكانها ٥٥٠، وفيها منظر على غاية من الروعة يطل على بحيرة طبريا، ومدينة طبريا والقرى التي في ضفتها الغربية، وعلى مزارع البطيحة المشهورة بحصنها الموجود في ضفتها الشرقية.

وفي غربي فيق على بعد نحو ساعتين خربة تدعى قلعة الحصن، يوصل إليها الراكب في لحب سهل، وهذه الخربة فوق جبل منحدر واقف وسط المكان الذي ينصب منه وادي فيق في بحيرة طبريا. وإذا نظر الزائر إلى هذا الجبل من الجهة الشمالية ومن شاطىء البحيرة يجده مشابهاً لسنام الجمل مما أوجب تسميته كما قال المؤرخ يوسيفوس، وقد كان هذا المؤرخ، ذكر مدينة في الجولان وجعل موقعها فوق مستوى بحيرة طبريا وفي مقابل مدينة طبريا، ووصفها وصفاً طبوغرافياً حمل البعض على تطبيقه على (قلعة الحصن) هذه ولكن آخرين يرفضون هذا التطبيق ويضعون (كمالا) في قرية جملة التي سيأتي ذكرها، وينسبون (قلعة الحصن) إلى مدينة أخرى كان اسمها هبيوس من المدن العشر. والثاني القادم من نوى والمار بتسيل وعين دكر.

وكان حصن علعال من الحصون المنيعة. قال طغتكين للمقاتلة يومئذ، من أتاني بحجر منه أعطيته خمسة دنانير، فبذلوا أنفسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم ما وعدهم.

قضاء الزوية: يحده من الشمال قضاء القنيطرة ومن الشرق قضاء أزرع ودرعا ومن الجنوب إمارة شرقي الأردن ومن الغرب بحيرة طبريا وفلسطين. قال الهمذاني: إنها (بين دمشق وطبرية ويقال أفيق بالألف. وعقبة فيق لها ذكر في أحاديث الملاحم.

وقال ياقوت إن عقبة فيق ينحدر منها إلى الغور غور الأردن ومنها يشرف على طبرية وبحيرتها وقد رأيتها مراراً. وذكر في التوراة. إن فيها اختباً بنهدد من وجه أخاب وسقط سورها على ٢٧ ألفاً من جيشه. حدثت عندها حروب كثيرة بين ملوك إسرائيل وملوك آرام.

وفي شرقي فيق وعلى بعد ٣ كم قرية الباقوصية، يظن أنه وقعت في السهول القريبة منها معركة اليرموك الشهيرة في سنة ١٣ هـ، وإن في الأودية القريبة منها أيضاً وقعت عساكر الروم المنهزمة من سيوف العرب فسميت القرية بمعنى هذا الوقص أو السقوط، قال الخضري في تاريخ الأمم الإسلامية ج ص ٢٨٦ إن قواد الروم (احتجوا ونزلوا منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصية وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو لهيب لا يدرك، ووافقهم الجنود الإسلامية فنزلوا بحذائهم على طريقهم. ثم جرت المعركة فاقتحمت رجالة الروم الخندق فاقتحمه خالد عليهم فعمدوا إلى الواقوصية من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم، وليس أعول على الأماكن الموصوفة في حديث هذه المعركة من أنحاء قرية الواقوصة الحالية، إلا أن الأمر لا يزال محتاجاً للتثبت، فميدان المعركة الحقيقي وكيفية التقاء الجيشين واصطفافهما محتاجان لرجال من ذوي المعرفة في فنون التعبئة والقتال يأتوا إلى هذه الأنحاء ويبحثان ويرسمان خطط هذه المعركة المعدودة من أعظم معارك التاريخ الحاسمة. فمن لنا بهذا العمل من بين مفكري المسلمين وهواة تاريخهم.

يصعد إلى قلعة الحصن متسلقاً العضد التي يربطها بالجبال التي في جنوبها، وذلك من طريق معبدة تعبيداً طبيعياً ممتدة بين وادي فيق ووادي القلعة. وتمتد الخرائب في الطرف الشمالي والعالي من الطريق المذكورة، وهذا الطرف يشبه هضبة غير متساوية، جوانبها مقطوعة قطعاً عمودياً في الشمال والغرب والشرق، ولا يمكن بلوغها إلا من الطريق المذكورة. وكانت محاطة بسور محصن ولا يزال يرى قسم من أساساته واثنان من أبراجه. وثمة أكوام من بقايا الدور والمباني المهدومة ترى ممتدة على الأرض. وثمة أيضاً شارع أساسي ظاهر للعيان يخترق المدينة في كل طولها أي من الشرق إلى الغرب. وفي منتصف هذا الشارع على التقريب يلحظ بناء

جميل، مبني بأحجار البازلت الضخمة مرتبة بعضها على بعض ترتيباً متقناً ولهذا البناء في الجهة الغربية جدار ثخين، وفي الجهة الشرقية برجان بارزان بينهما باحة نصف دائرية، فيها بضعة أدراج نصف دائرية أيضاً. وأمام هذا البناء تمتد ساحة لعلها كانت فيما مضى مبلطة أو مغروسة بأحجار الفسيفساء ومزينة بأعمدة الغرانيت، لاتزال أبدانها ممدة على الأرض تغطي صهريجاً كبيراً، محفور بعضه في الصخر. ويلحظ أيضاً بين الخرائب بقايا كنيسة كبيرة ذات ثلاث حنايا، ونواويس وأنقاض قناطر ماء. هذا وبين فيق وقلعة الحصن يجتاز السائر وادياً يدعى (وادي الملوك) وجدوا فيه نواويس منقورة في الصخر.

أما جملة التي تقدم ذكرها فهي ضيعة سكانها نحو ٣٠٠ تقع على بعد ٢٠ كم إلى شرقي فيق، على ضفة الهوة السحيقة لنهر الرقاد. وفي قرب شلال ماء كبير. وفي جملة خرائب عديدة من العهد الروماني، مما جعلها أكثر انطباعاً على جمالا التي ذكرها يوسيفوس من أن يكون ذلك على قلعة الحصن.

استولى إسكندر جناوس على جمالا ثم جاء يوسيفوس وحصنها، ثم جاء أغريبا الشاب وحاصرها مدة سبعة أشهر دون طائل وحاصرها سباسيان حصاراً شديداً انتهى باستخلاصها وذبح سكانها عن بكرة أبيهم، ومن جمالا يمكن الوصول في ٢.٥ ساعة في السيارة في لحب رديء إلى درعا ماراً بالشجرة .

وبعد فيق، يستمر اللحب الصالح نحو الجنوب الغربي، فيمر في الكم ٥٢ بقرية كفر حارب وهي تشرف على بحرة طبريا من عل، سكانها ٧٠٠ مسلمون وإذا صعد الزائر إلى سطح بيت المختار يتمتع بمنظر غاية في الروعة يمتد نحو بحيرة طبريا وما حولها، وعلى مصب نهر الأردن وعلى جبل طابور وجبال الجليل و. . الخ.

وبعد كفر حارب تنبسط الأرض وتقل الأوعار، وتصل بعد خمسة كم إلى مزرعة حديثة البناء لأحد وجهاء الشركس في القنيطرة وفي قربها شفا المنحدرات المطلة من على قرية سمخ وجسر المجامع وما حولها، وثمة في حضيض هذه المنحدرات نصب تذكاري للطيارين التركيين صادق وفتحي اللذين مرا من هنا في محاولتهما السفر إلى مصر سنة ١٣٣١هـ فهوت بهما الطيارة في مكان النصب وقضيا نحبهما. وثمة هذه المزرعة المذكورة (عقبة فيق) التي طالما ذكرها جغرافيو العرب الهابطة

من هذه الهضاب نحو فلسطين، وبعدها أيضاً بقليل الحدود الفاصلة بين بلاد الشام وفلسطين، وهذه الحدود تتبع الشاطئ الغربي لبحيرة طبريا بحيث يبقى الشاطئ هذا إلى فلسطين، ثم تسير شمالاً إلى ما بعد مزارع البطيحة لتلاقي المنحدرات المحيطة بنهر الشريعة فتسير في شفاها إلى جسر بنات يعقوب ثم إلى قرب بانياس.

وفي الكم ٦٢ يبدأ الانحدار في مدارك وادي اليرموك، وهي تتعرج وتتمعج بشدة وخطر، إلا أن المنظر حولها مرئي وخلاب جداً.

في الكم ٧١ الحمة. ـ حمامات حارة كبريتية نافعة، يقصدها في زمن اصفرار الشعير (نيسان) الألوف من ذوي الأمراض الجلدية والعصبية، وقد أحدث فيها أخيراً أماكن وغرف تؤجر للمستحمين، وثمة محطة السكة الحديدية الحجازية القادمة من دمشق إلى حيفا، وثمة أيضاً الحدود بين بلاد الشام وفلسطين (مراجعة مجلة المقتبس ج٥ ص ٨٥ ابحث الحمى).

من القنيطرة إلى درعا. ـ تسلك السيارة أولاً الطريق المعبدة الحديثة الذاهبة من القنيطرة إلى السويداء، المارة بنوى، فتلاقي في الكم ٢٥ عند الشيخ مسكين الطريق القادمة من دمشق إلى درعا .

ـ عودة إلى طريق جسر بنات يعقوب . ـ يخرج هذا الطريق من القنيطرة متجهاً إلى الجنوب، فيترك على يساره قرية عين زيوان الشركية، وهي كبيرة، سكانها ٨٠٠، ثم يجتاز الطريق هضبة وعرة مطردة المناظر فيها بضع تلعات وتلال. كتل أبو الندى ١٢٢٥م وتل أبو الخنازير ١٢٧٣ وتل أبو سيف. في الكم ٧٣ يبدأ الطريق في الانحدار من علو ١٠٠٠ فما دون.

في الكم ٧٥ يلحظ عن بعد بحيرة طبريا تلمع عن بعد بين سلسلتين من الجبال.

في الكم ٧٧ على اليمين كفر نفاخ، قرية سكانها عرب وتركمان ثم قرية عليقة.

في الكم ٨٧ يشرف على سهل الغور المحاط من الغرب بجبال الجليل الشاهقة، وفي قمتها صفد البيضاء، ويشرف على اليمين في الشمال أطراف بحيرة الحولة وسفوح جبل الشيخ.

وقد ذكر ياقوت (دير فيق) أنه في ظهر عقبة فيق وهي عقبة تنحدر إلى الغور من أرض الأردن ومن أعلاها تبين طبرية وبحيرتها، وهذا الدير فيما بين العقبة وبين

البحيرة في لحف الجبل يتصل بالعقبة منقور في الحجر، وكان عامراً بمن فيه من الرهبان ومن يطرقه من السيار. والنصارى يعظمونه.

ويستمر الطريق في الهبوط نحو الوادي - إلى الكم ٨٩ يظهر مجرى وادي اليرموك وحوله غيض الحور.

في الكم ٩١ مخفر الحدود السورية في بناء شيد في جانب خان أثري خراب. وعلى مقربة منه بنت السلطة الإنكليزية الفلسطينية مباني حديثة من الإسمنت لإقامة موظفي وجنود حدودها، وستبني السلطة الإفرنسية مباني حديثة تشبهها في شفا المنحدرات الشرقية.

في الكم ٩٢ جسر بنات يعقوب الحديث وكان في شمال الجسر على بعد ٥٠ متراً الجسر القديم المهدوم منذ بضع سنوات، الذي بناه الملك حوبرقوق في أواخر القرن الثامن، وقد هدموه وقتئذ لتوسيع مجرى نهر الشريعة وإخلاء مياه بحيرة الحولة ليمكن تجفيفها.

وبعد اجتياز الجسر يصعد الطريق إلى مستعمرة مشمارهيرون الصهيونية، ثم ينحرف بعدها نحو الجنوب ماراً بمستعمرة الجاعونة وقرية المجدل إلى طبريا في الكم ١١٩.

من حاصبيا إلى جديدة مرجعيون (١٣ كم إلى الجنوب الغربي)

يخرج الطريق من حاصبيا نازلاً نحو الغرب في حضن رابية فيها منعرجات عديدة، ثم يقطع نهر الحاصباني فوق جسر، وهذا النهر يتألف في شمالي هذا الجسر على بعد كيلو مترين وعلى بعد بضعة أمتار من التقاء جداول وادي التيم ونبع الحاصباني.

في الكم ٣.٥ يترك على اليمين لحباً صالحاً للسيارات الخفيفة في الفصول الجيدة يذهب نحو رأس نبع الحاصباني ثم راشيا وقد صار معبداً أحسن تعبيد، ويلاقي بعد ١٨ كم في راشيا طريق مجدل عنجر.

في الكم ٤ معدن الحمر . وفيه آبار المعدن الذي يعرف في الاصطلاح الفني باليتوم وهو مخلوط بالعكس، يستخرج من سراديب وأقبية تحت الأرض تغور في أحشاء الجبل، ثم يغسل ويجزأ، وقد كان هذا المعدن من أملاك السلطان عبد الحميد الخاصة يستثمره لنفسه، وظهرت منه فوائد لأهل هذه الديار إلى أن قلت الأيدي التي كانت تعمل فيه منذ أن كثرت الهجرة إلى أميركا وغيرها بعد العقد الثاني من القرن الهجري الحالي فأهمل كما أهمل من قبل معدن سحمر في البقاع. وهذا المعدن يستعمل كل سنة في أواخر آذار بعد عمل معجون حار من مسحوقه مع عكر زيت الزيتون وتداوى به أغصان الكروم المقلمة لانتقاء دودة براعم الكروم، وهذه الدودة تكثر في كروم الغوطة وبعض قرى وادي العجم ووادي التيم.

وعلى اليسار يلمح قرى سنديانة وقادرية ورزانية وقنابية وأحمدية وغيرها من القرى الآهلة بالتركمان المحتفظين حتى الآن بلهجتهم التركية القديمة، وفي الكم ٨٠ على اليمين قرية العليقة، وعلى بعد منها قرية دير سراس ثم في الكم ٨٣ على اليسار قرية نعران التركمانية، ولا يزال الطريق آخذاً بالهبوط وماثلاً نحو الجنوب الغربي.

وثمة على اليمين وعن بعد ضيعة دريجات جرت فيها معركة بين الترك والألمان والإنكليز سنة ١٩١٨.

في الكم ٥ على اليمين فوق الطريق وفي ركن الجبل كوكبا قرية مارونية، سكانها ٤٠٠، وفيها كروم زيتون وتين، هوجمت في ثورة ١٩٢٥ بشدة لتعنت أهلها، فأضروا أنفسهم.

في الكم ٦، يبلغ الطريق بطن وادي أغن مليء بأشجار الحور. وهنا يترك على اليسار مجازاً صالحاً للسيارات الخفيفة يفضي إلى راشيا الفخار، وهي قرية تبعد نحو ٤٠ دقيقة. وعلى يسار هذا المجاز قبل راشيا المذكورة وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات عن هذا المجاز قرية الهبارية التي فيها هيكل روماني أكثر أهلها روم، يشتغلون بصناعة الفخار.

وعلى اليسار يلحظ سوق الخان، وهو خان عربي، يوشك أن يتداعى، يقام حوله سوق عام حافل جداً يوم الثلاثاء من كل أسبوع. في الكم ٩ يطل الطريق على واد

سحيق فيه نهر الحاصباني ويهبط نحوه، وثمة على اليسار واد فرعي فيه نهر شبعا الذي يلتقي بنهر الحاصباني عند سيلانه في الشتاء، لأنه يجف في الصيف.

في الكم ١١ يلحظ عن بعد على اليسار قرية إبل السقي، يوصل إليها بلحب خاص. في الكم ١٣ مفرق طرق بانياس ثم يصل إلى مرجعيون.

جديدة مرجعيون، بليدة، سكانها ٢٥٠٠ علوها ٧٨٠، أكثرهم روم أرثوذكس وأصلهم من أذرع حوران قدموها منذ قرنين مركز قضاء، مركز مطرانية للروم الأرثوذكس، وأخرى للروم الكاثوليك، ومحكمة بدائية. وفيها فندق ومطعم.

ومرجعيون بليدة حديثة البناء بدليل اسمها، ليس فيها ما يلفت نظر رواد الآثار، إلا أنها قاعدة سهل أو مرج يدعى مرج العيون، يؤلف مبدأ الانخفاض الذي يحدثه مجرى نهر الأردن ويمتد حتى بحيرة الحولة، وبحيرة طبريا، وبحيرة لوط.

ويقال له قفر اليهودية، نوع من القفر. وهو جوهر أسود لامع جاف سريع التفتت وكان المصريون يستعملونه لتحنيط الموتى وكذلك العرب، ومنه اسمه عندهم صمغ الجنائز. وله منافع طبية عديدة، ومنها استعمال مسحوقه في كروم العنب المصابة بدودة براعم الكروم في الغوطة ودوما وبعض قرى وادي العجم ووادي التيم وذلك بعد مزجه بعكر زيت الزيتون.

بنى هذا الخان الأمير أبو بكر الشهابي، بناه لجمع الصدقات من المحسنين (المقتطف ج ١٠ السنة ٥ آذار/١٨٨١.

وهذه التسمية نشأت في الغالب للعيون الكثيرة التي تنبع من أرض الجديدة خصوصاً، وتؤلف جداول عديدة تحيط بها الغياض والبساتين أو تروي الحقول، وهي عجيبة تكاد لا تخلو قطعة أرض من عين تنبض فيها، مع أن الجديدة على سطح مستو في رأس تل يسمى تل نامو لاتصال بينها وبين القمم العالية حيث تبقى الثلوج أشهراً كما هو الحال في قمم حرمون وصنين. ويحد قضاء مرجعيون من الشرق جبل الشيخ وقراه، ومن الجنوب بلاد بشارة وبحيرة الحولة ومن الغرب قرى بلاد الشقيف والسجن ومن الشمال جبل الريحان وتومات نيحة أو شقيف تيرون.

ومرج عيون كانت مملكة من ممالك إسرائيل تحيط بها حدود رجوب وقادش وخاصور وأفيق، واختلفت الأحوال عليه في الحكومات الإسلامية فكان من عمل

صفد وسماه أبو الفداء معودة العيون. وفي الشمال الأقصى من السهل المحيط بالجديدة يلحظ جبل اسمه تل دبين فيه خرائب، طبق اسمها على إبيون أو عيون، وهي مدينة كانت تخص سبط نفتالي وتقع في شمالي فلسطين. استولى عليها قواد الملك بنهدد الآرامي الذي استنجد به كازاملك إليهودية ضد الملك اسرائيل بعسا، ثم استولى عليها تغلات بيلاصر الآشوري. ولعل الاسم الحالي نشأ من تبدل كلمة إبيون بعيون.

ومنحدرات أكمة تل دبين تستند على جدران استناد ذات ضخامة بالغة، بنيت بأحجار مأخوذة من مبانٍ ومساكن متهدمة. وثمة نبعان ينبجسان من حضيض الأكمة، يدعى الأول عين تل دبين والثاني عين الحمام. وكانت مياه الثاني تجمع في حوض لا تزال آثاره ظاهرة.

وعلى بعد قريب عند منعرج الوادي قرية إبل السقى تميزاً لها عن إبل القمح من أعمال مرجعيون أيضاً. وفي منتصف الوادي على نفس السطح الذي أقامت عليه قرية إبل قرية الخيام. والجديدة والسقي والخيام ثلاث بلدات كأنها بلد واحد ذو ثلاثة أحياء لا تقل نفوسها عن ١٢٠٠٠ نسمة.

ومرجعيون من أجمل البقاع منظراً وبهجة، لو أكثروا فيه من زرع الأشجار المثمرة لفاق غوطة دمشق وأشبه سهول فرنسا وجبالها، خصوصاً وأكثر دور الجديدة وإبل والخيام مبنية على الطراز الحديث بالحجر والقرميد وتحيط بكل دار حديقة. ويكثر فيها الندى لوفرة الغيوم التي لا تنقشع عن سمائها صيفاً، وسكانها مجتهدون وفيهم طباع العرب، ولهم في المهجر جالية وفيرة. وفيها ثلاث كنائس للأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت، وجامع ومدارس عديدة. وقضاء مرجعيون صار غريب الشكل بعد إلحاق حاصبيا به، يحده من الشمال أقضية جزين وزحلة وراشيا، ومن الشرق قضاء وادي العجم والقنيطرة ومن الجنوب فلسطين وقضاء صور.

ويتبع قضاء مرجعيون كثير من قرى جبل عامل، وعدد قرى قضائها ٥٤ قرية، منها ما هو ذو شأن كبير بتاريخه وكثرة سكانه كبنت جبيل وهونني ودير ميماس وميس، ولا تقل نفوس القضاء عن ٦٠٠٠٠ وربما كان المهاجرون منهم نحو

خمسهم وكثير منهم وفقوا في المهجر وأثروا، ولاسيما سكان الجديدة ممن لا تجد بينهم أمياً من الذكور والإناث، وبينهم من تثقفوا ثقافة عالية، ولا تشبهها في هذا المعنى في بلاد الشام إلا الناصرة، لأن تنافس الطوائف النصرانية منذ نصف قرن على تأييد نفوذها ودعوتها دعا كلاً منها إلى فتح المدارس وتعميم التعليم فنجح الجميع في هذا المضار، ولم يقصر فيه إلا المسلمون.

الطريق من شتورا إلى مرجعيون (سهل البقاع) (٧١ كم)

يترك القادم من بيروت في شتورا طريق بيروت ـ دمشق على يساره ويسلك طريقاً على اليمين متجهاً نحو الجنوب في سفح أكمة، ذات غياض ورياض، سكانها ٢٠٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم نصارى، ذات دور عصرية متراكبة في سفح أكمة، في ذروتها خرائب قلعة صغيرة ظلت عامرة يعتصم بها بعض الإقطاعيين إلى أن هدمت في حدود سنة ١١٨٨ هـ. وفي أعلى القرية وفي خارجها بناء تذكاري لموتى جنود الحملة الإفرنسية في سنة ١٢٧٧/١٨٦٠.

في الكم ٧،٥ على اليسار حوش مزرعة، ويستمر الطريق سائراً في لحف جبل الباروك المزدان بالأنجم والأشجار الخضراء ويترك على يساره سهل البقاع الخصب النضر في الكم ١١،٥ مستنقع وسط غيضة أو غابة.

في الكم ١٤،٥ وادٍ عميق، وفيها نبعان جميلان، وعلى اليمين يترك لحباً يصعد نحو القرية، وعلى اليسار مبانٍ زراعية عصرية محاطة بالأشجار من أملاك أحد آل سرسق ـ في الكم ١٦ على اليمين ضيعة اسمها دير طحنيش ـ في الكم ١٧ بعد قرية حانا ينحرف الطريق نحو اليسار فتصبح الأرض بعد ذلك تدريجياً جبلية فيضيق السهل وتختفي التربة الزراعية.

في الكم ٢١ كفرية، وهي قرية على اليمين في ركن الجبل ـ يترك على اليسار لحباً صالحاً للسيارات يلاقي في الكم ١٣ ثنية الفالوج طريق مجدل عنجر راشيا المار بجب جنين التي تلمح على اليسار.

في الكم ٢٣ على اليمين قرية الحبس، وفيها شجرة جميلة منفردة تحتها قبة ولي، وعلى اليسار كروم توت.

في الكم ٢٦ على يسار الطريق وفي أسفله عين زبدة، نبع جميل ذو قناة وسط بقعة شجراء خضراء، حولها عدة مقاهٍ، يقصدها رواد الاصطياف والنزهة. وعلى يمين الطريق قرية اسمها من اسم النبع المذكور مبنية فوق أكمة صخور وفيها أثران على أحدهما صورة آلهة على زي المعبودات اليونانية، وعلى الثاني صورة ثور على ظهره أسد وعلى جانبيه عجلتان. في الكم ٢٨ بعد أن يدور حول كروم توت واسعة. يصير الطريق منقوراً في الصخر ويشرف من علو شاهق على وادي الليطاني، وهنا منظر رائع على الوادي المذكور وعلى سهل البقاع . في الكم ٨٩ صغبين، قرية كبيرة، سكانها ٢٠٠٠، دورها ذات أقواس، وهي قاعدة ناحية.

في الكم ٣١ على اليسار بيت منفرد، ومنه يهبط الطريق. يترك على اليمين لحباً (غير كامل بعد مشغرة) يوصل (في الكم ٢٧) إلى جزين ماراً بمشغرة، وفي هذا اللحب يلحظ قرية (دير عين الجوزة).

ثم يؤخذ على اليمين لحب صالح للسيارات رديء جداً ويحتاج للحيطة، يهبط إلى بطن وادي الليطاني، ومنه يسلك مضيق الليطاني المشهور. في الكم ٣٤ يعبر الليطاني فوق جسر ذي ثلاث قناطر.

في الكم ٣٦ على اليسار لحب يفضي إلى قرية القرعون. وفي طرف هذا اللحب إلى يمينه جسر قديم خراب جسر القرعون . على اليمين فوق ركح الجبل يلحظ عتينيت (على طريق جزين).

في الكم ٣٧ على اليمين وفي قعر وادي وبين الأشجار الخضراء يلحظ قرية مشغرة في سفح أكتي تومات منيحا ثم أن اللحب يدور نحو اليسار ليعبر في الكم ٣٩ جسراً رديئاً فوق وادٍ جاف في الغالب. ثم يصعد بعده في منعرجات ويجتاز بقعة وعرية جرداء.

في الكم ٤٠ يترك على اليسار لحباً صالحاً. يفضي في الكم ٨ إلى لحب حاصبيا راشيا، وهذا اللحب يتبع وادياً سحيقاً محصوراً بالروافد الشرقية لليطاني،

ثم يمر في الكم ٢ من شمال قرية كفر مشكة ليلحق لحب حاصبيا ـ راشيا في شرقي القرية المذكورة.

في الكم ٤١ يسلك اللحب سبيلاً بين الصخور. على اليمين قرية سحمر وفيها نواويس وفي أسفلها جسر على الليطاني، وهو جسر بسيط من الخشب استفيد في وضعه من ضيق طبيعي لمجرى الليطاني.

في الكم ٤٣ على اليمين ينفذ الليطاني في مضائقه السحيقة الموحشة التي لا بد له من اجتيازها قبل الوصول إلى البحر.

أما اللحب فينحرف نحو اليسار ويصعد.

في الكم ٤٦ على اليمين وفوق مهماز قامت قرية يحمور الغربية الشكل، وفيها منظر جميل. (من هذه القرية التي تشرف على مضيق الليطاني يمكن الهبوط خلال ٤٠ دقيقة إلى جسر (الكوة)، وهو جسر طبيعي غريب راكب فوق النهر ومؤلف من صخور سقطت من الجبل بفعل هيلان، ثم أوقفتها المصادفات خلال سقوطها فكونت بنفسها هذا الجسر. وعرض هذا الجسر ٣ أمتار، وفتحته ٧ وعلوه فوق مستوى الماء ٣٢ متراً. ومنحدرات المضيق ترتفع فوق الجسر وتؤلف جدراناً عمودية هائلة علوها نحو ١٦٠ متراً. وهذا المضيق ملآن بأنجم وأشجار ملتفة تحجب قسماً من النهر الذي يحدث هنا سقوطاً واندفاعاً رائعين جداً. أما الوصول إلى مستوى الماء تحت الجسر فهو متعذر جداً. إلا أنه يمكن إذا تسلق صخور الضفة الغربية أن يبلغ فجاة واسعة، لا يزيد عرض مجرى الماء تحتها أكثر من ٤ ـ ٥ أمتار.

ذكر أبو الفداء اسم بحيرة عميق وقال إنها مستنقعات وأقصاب وقش يعمل منها الحصر وسط البقاع البعلبكي بين كرك نوح وعين الجر. وكان الأمير سيف الدين تنكيز في النصف الأول من القرن الثامن الهجري لما تولى نيابة الشام اشترى هذا الغاب من بيت المال وعمل فيه مجاري للمياه تنفذ إلى الليطاني فنضبت المياه وعمر فيه نحو عشرين قرية، ولما صادره الملك الناصر وأخذ قراه وأقطعها إلى غيره عطلت الأقنية فعاد الغاب مستنقعاً سباخاً لا يصلح إلا لإنبات القصب والقش. ويقال إن الأمير فخر الدين المعني والأمير بشير الشهابي حاولا تجفيفه فلم ينجحا، وظلت هذه الأنحاء بؤرة الحميات إلى أن أخذه نجيب يوسف سرسق أحد أثرياء بريت في أوائل

هذا القرن الهجري وأنفق عليه أكثر من مئة ألف دينار وبنى المزرعة المذكورة وغرس أشجاراً من أنواع الصنوبر، والشوح والشنبوب وغيرها باسقة زاهية، فوق هذه الأنحاء وصارت عميق قرية خصبة قل ما بقي سباخاً من أرضها.

من قرية دير عين الجوزة إلى جزين ٢٦كم، في الكم ١ دير عين الجوزة للرهبنة المخلصية.. في الكم ٨ مشغرة، وهي قرية كبيرة حسنة تعد أفضل منتزه في هذه الرباع في واد في غاية الحسن بالأشجار والأنهار، قامت في سفح الشرقي من لبنان، سكانها ٢٠٠٠ نصفهم شيعة ونصفهم كاثوليك، وهي ذات مياه غزيرة وكروم وبساتين، ونحو ثلاثين دباغة يصدر الجلد منها لأكثر أنحاء الشام، ومن محصولاتها الحرير والعنب والدبس الفاخر والعرق، وموقعها جميل مشرف على وادٍ أغن، وفي مشغرة كهوف مقبرية، وفيها آثار دير صالح ووادي الحمام وقلعة عمارة، ومن مشغرة يهبط الطريق نحو وادي الليطاني مشرفاً عليه من جبل، فيصل بعد ٤ كم شمالاً إلى عتينيت، قرية جميلة للغاية، همسة الهواء والماء تشرف على البقاع وجبل الشيخ وفي أسفلها بساتين، في أحدها نبع ماء طيب يدعى عين الزعرور، يقصد للنزهة. وفيها الحرير والعنب والزبيب الجيد. وفي جانبها أكمة تدعى (عريض الرأس) فيها بعض الآثار، واسم عتينيت يدل أنها كانت معبداً لبعل تانيت أي عشتروت. وبعد عتينيت بـ ٥.٥ كم قرية بماريا، وعلى بعد ساعة ونصف من مشغرة تومات نيحا، وهي قمم عالية تعلو نحو ١٩٠٠ متر يقصدها السياح.

وقد كانت في العصور المتوسطة ممر القوافل الآتية من صيدا إلى دمشق، لما كانت صيدا مرفأ دمشق الأصلي.

وثمة صخرة ساقطة وسط المسيل لم تترك للماء سوى ممر عرضه متر وهي تؤلف جسراً طبيعياً آخر. أما الهبوط نحوها فصعب، لوجود حصى تزلق الأقدام. والصعود منها يحتاج لما لا يقل عن ساعة وربع.

في الكم ٤٩ يلحظ من الأفق البعيد، فوق أكمة رفيعة، قلعة الشقيف أو حصن بوفور. على اليمين مناظر رائعة خلابة تمتد فوق مضائق الليطاني، على اليمين، يلحظ كذلك غابة صغيرة من السنديان وثمة نواويس منقورة في الصخر. وفي قرب

الغابة عين شديدة الفوران ومغارة غريبة للغاية مؤلفة من غرفتين الواحدة فوق الأخرى، الوصول إليها صعب جداً.

في الكم ٥٠ على اليمين ضيعة زلايا مبنية على طبقات في سفح واد ثانوي. في الكم ٥٣ على اليمين أيضاً قرية القليعة.

ومن ثم ينفذ الليطاني في مضيق أكثر ضيقاً مما قبل. وبعد مسافة قليلة في قرية برغوز يكون عليه جسر، وفي بلاط يسيل الليطاني في قعر واد جد سحيق عمقه نحو ٦٠٠ متر وعرضه في بعض الأماكن لا يزيد عن متر أو مترين.

يلحظ هنا جديدة مرجعيون فوق أكمة كظهر الحمار. في الكم ٥٨ يصعد اللحب وينحرف نحو اليسار. في الكم ٥٩ يجتاز اللحب ثنية، على اليمين يلحظ كروم الزيتون الخاصة ببرغوز، وبضعة بيوت لهذه الضيعة جاثمة على أطراف الصخور.

في الكم ٦٢ يوصل إلى الطرف الأقصى الشمالي من أكمة جديدة مرجعيون فيدور عن يمينها - في الكم ٦٣ ينفذ داخل واد محصور بين تلعتين، على اليمين منظر يمتد نحو الليطاني الذي يحدان ضفتيه في كل امتدادهما أشجار الحور.

في الكم ٦٨ يترك على اليمين الطريق الآخذ إلى حاصبيا وإزاءه طريق بانياس، ثم يدور نحو اليمين ويسلك طريق نبطية - صيدا، وهذا الطريق ينحرف نحو اليمين ويصعد في منعرجات عدة إلى جديدة مرجعيون. وفيها مغارة ذات طبقتين كان يحاصر فيها المحاربون ولاسيما المعنيون، وبعدها قرية السيا.

وهذا النهر ينبع قرب بعلبك من نبع يعرف بالعليق ثم يجري بالقرب من قرية دير الأحمر، وهناك تنقسم مياهه فمنها ما يجري لينتهي إلى نهر العاصي ومنها ما يجري إلى نهر الليطاني. ويتكون هذا من عشرة روافد أهمها نهر البردوني الذي ينبع من سفح جبل صنين في الجهة الغربية ثم نهر الغزير الذي يتكون من عدة ينابيع تخرج من الجبل الشرقي وأخصها نبع عين الجر، ثم يجري الليطاني في مضيق وعر كثير الصخور بعيد الغور ويتقرب في مجراه بين الجبال من نهر الأردن الأعلى على مسافة ٨,٥ كم، ثم يتجه قرب عجوز نحو الغرب على خط مستقيم إلى أن يصل في البحر المتوسط في نقطة تبعد ٩ كم إلى الشمال من مدينة صور. يبلغ طول الليطاني ١٤٠

كم وتفريغه كان يتراوح بين ٩,٣٢ من المتر المكعب في الثانية أيار ٩٢٢ و ٣,٨١ م٣ في الثانية أيلول ٩٢٢ وتفريغ النهر وانحداره يجعله مصدراً لتوليد قوة كهربائية قدروها بـ ١٠٠٠٠ حصان، لا تزال مهملة، أما الانتفاع به للري فواقع إلى درجة ما .

قضاء الهرمل يحده من الشمال قضاء حمص ومن الشرق قضاء النبك ومن الجنوب قضاء بعلبك ومن الغرب قضاء طرابلس وزغرتا.

من مرجعيون إلى طبريا

يتبع بعد مرجعيون مدة من الزمن طريق نبطية - صيدا إلى أن يصل إلى ثنية تفصل مرجعيون عن وادي الليطاني ففي الكم ٧٤ يترك الطريق المذكور ويأخذ في يساره طريقاً صالحاً للسيارات ينفذ بعد نحو مئة متر من انفصاله - في قلعة القليعة. وهي قرية مارونية، قاومت الثوار في أحداث سنة ١٩٢٥.

ثم يتبع الطريق عرفة الجبل. يلحظ على اليمين مضيق الليطاني وفي ذروة الجبل المناوح له حصن الشقيف.

في الكم ٧٦ يهبط الطريق، في الكم ٧٧ يلحظ على اليمين قرية كبيرة، دير ميماس، في الكم ٧٩ يجتاز قرية صغيرة (الخربة) سكانها نصارى وشيعة، ويبلغ نقطة خفر الحدود اللبنانية وفيها تفحص جوازات المرور بين لبنان وفلسطين.

يترك على اليمين طريقاً يتجه نحو الجنوب الغربي، ويمر - في الكم ٢ من قرية كفير كلي وهي كبيرة أهلها شيعة، في الكم ٥,٥ مدينة التحتا قرية شيعية تشرف عليها خرائب حصن صغير من العصور المتوسطة مستطيل الشكل اسمه عديسة الفوقا، وفي الكم ٩ الطيبة. قرية شيعية، فيها مسجد مبني بالحجارة جميلة النحت مأخوذة من أماكن أثرية، وفي أسفل القرية نبع، والهمة منصرفة لإيصال الطريق من هذه القرية إلى تبنين ماراً بالقنطرة.

بعد الخربة يأخذ نحو اليسار طريقاً يجتاز السهل ويصل في الكم ٢٨ إلى المطلة وهي مستعمرة على الحدود الفلسطينية. ومنها يذهب إلى طبريا (٣٩/٢/٢٧).

(وتزعم الروايات أن الكلب كان لما ينبح بشدة يبلغ صوته إلى بعد ميلين من ذلك المكان) ثم يصل إلى سطح مستوٍ من الصخر يشبه المصطبة. ومن بعده بنحو خمسين متراً وبينما يرى السكة الرومانية تستمر في سيرها الأفقي يصادف مجازاً فيه أحجار يتسلق بسرعة إلى اليسار ونحو الجنوب ويمثل ما يظن أنه الطريق المصرية والآشورية. وفوق هذا المجاز إلى الشرق تمتد عمرات صخرية مباغتة في أسفل جدار عمودي يتجه من الشمال إلى الجنوب. وفي هذا الجدار قد نقشت اعتباراً من الشمال: رقم ١٣ نصب آشوري يمثل ملك آشور وهو يتعبد، رقم ١٤ في لصق النصب مائدة مستطيلة تظهر الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ ق.م) وهو يضحي بأسير أمام الإله هارفحيس، رقم ١٥ فوق المائدة بأقل من ٢٠ متراً صورة أخرى لملك آشور لا تزال سالمة نوعاً ما.

وإذا استمر يتسلق سند الجبل على العدوة الصخرية يبلغ بعد ٤٠ دقيقة إلى منتهى المسلك فيجد فيه لوحتين من أجمل اللوحات، الواحدة في جانب الأخرى. رقم ١٦، نصب لا يزال سالماً مستطيل الشكل يصور مرعميس الثاني يشير بتضحية أمام آمون أكبر الآلهة المصريين في طيبة، ثم رقم ١٧ نقش بارز آشوري فيه نصب جميل لأسر حدون. وفوقه كتابة بالخط المسماري تذكر حملات هذا الملك على مصر سنة ٦٧١ ق.م.

هذا ويمكن أن يصعد ثانية إلى وادي نهر الكلب على عدوته اليسرى في درب صالح بعضه للسيارات، ثم يسلك مجازاً يوصله بعد إلى النبع الأصلي لهذا النهر. وبعد أن يجاوز الجسر العربي القديم، ثم يجاوز طاحوناً وهو في آخر الدرب الصالح يبلغ بعد ١.٢٠ كم إلى مكان ينفسح فيه الوادي انفساحاً غرست فيه الأشجار المثمرة المختلفة. ثم يضيق الوادي فينقلب موحشاً. وثمة على الضفة اليمنى يلحظ المعمل الكهربائي الذي ينير بلدة جونية، ثم القناة المشتقة من نهر الكلب الآخذة بمائه إلى ضبية إلى معمل تصفية ماء شرب بيروت في ضبية، وعلى العدوة اليسرى وعلى بعد ٣.٥ كم وفوق قليل من الارتفاع دير مار عبدا للموارنة يشرف على قديم جعيتا قرية صغيرة قرب عجلون من قضاء كسروان واقعة على جبل يخرج منه نبع غزير من مغارة واقعة في حضيض بجانب مجرى نهر الكلب تعرف بمغارة جعيتا

نسبة إلى القرية المذكورة، وأهالي القرية نحو ٣٠٠ نفس، وأما المغارة المنسوبة إليها فهي مغارة كبيرة صخرها كلسي يرى على جدرانها وسقفها تكونات كثيرة كلسية ويدخل إليها من مدخل ضيق بجانبها إلى جهة الجنوب الشرقي يؤدي إلى مغارة أولى منخفضة السقف تتخذ حظيرة للماعز، ثم يدخل فيها إلى المغارة الكبرى التي يجري فيها ماء النبع المذكور، آتياً إليها من مسافة شاسعة إلى الجهة الشرقية من المغارة، وهي مظلمة جداً لا تسلك إلا بالمصابيح، وقد تتبع جماعة ذلك النبع إلى مسافة بعيدة فتعذر عليهم الوصول إلى آخره بشلال ساقط من مكان مرتفع. وهذا النبع هو أكبر الينابيع التي يتكون منها نهر الكلب، وماؤه هو الذي يصل إلى بيروت في أيام الصيف، لأن النبعين الآخرين للنهر المذكور وهما نبع اللبن ونبع العسل يقل ماؤهما في الصيف فلا يزيد إلا قليلاً عن حاجة الأهلين لسقي الأراضي (دائرة المعارف ج٦).

وعلى بعد نحو ٦ كم من مصب النهر يبلغ المغاور التي ينفجر منها نبع غزير جداً، يدفع لوحده في فصل الصيف بمياه نهر الكلب. وهو مبدأ نهر حقيقي. وقد زار كثير من الرواد وأرباب الولع هذه المغاور في الأعوام الأخيرة، وركبوا فيها زوارق ومشوا كيلو مترات عديدة، وشهدوا بأنها لا تقل روعة عن أجمل أمثالها من مغاور أوروبا.

عودة - في الكم ١٧.٥ على اليمين، الطريق الآخذ إلى قرية غيطورا فريفون ففيترون في الكم ١٩.٥ تعوج الطريق تعويجاً قاسياً إلى اليمين ويهبط في منعرجات عديدة تاركاً على يساره قبيل الدخول إلى جونية طريقاً صغيراً يحاذي الساحل ويمر من أكام دير حربا للروم الملكيين، وأجل بناء كنسي في هذا الدير مشيد فوق أسس هيكل أثري. وتحت هذا الدير وعلى ضفة البحر درك يهبط إلى كهف قديم منقور في الصخر حتى البحر ينسب جداره الشمالي إلى المار جرجس ويعزى إليه شفاء الأطفال. أما حربا فقرية كبيرة.

في الكم ٢٠ جونية، بليدة، سكانها ٥٠٠٠ وهي شمال الميناء القديمة والميناء الجديدة تلتفها بساتين الخضروات والأشجار المثمرة. وفيها مدرسة للفرير وكنيسة غريبة وبناء تذكاري مقبري على شفا سطحها الأعلى، والبناء عربي قديم متخذ

اصطبلاً. وهذه البليدة تنتظم دورها فأكثرها حديث جميل على جلول (طبقات) قائمة فوق الأعضاد الأخيرة لجبل لبنان. ومرفؤها ينفتح على ساحل جد جميل شكله كقوس الدائرة. والروابي المخضرة بأشجار الحراج التي تحيط بجونيه قد أشرفت عليها تمثال عذراء لبنان المنتصبة فوق قاعدة مخروطية .

ثم يترك على اليمين طريقاً يصعد إلى بكركي مقر بطريرك الموارنة ثم إلى تمثال عذراء لبنان، ثم يخرج طريق طرابلس من بين دور جونيه المصطفة على جانبيه، ثم يحاذي الساحل الذي في منتهاه الشمالي يقوم جدار صخري.

في الكم ٢٣ المعاملتين قرية صغيرة واقعة على رأس خليج جونيه فيها منتهى السكة الحديدية الآتية من بيروت.

من المعاملتين إلى غريز وغنية، ٩ و ٢٣ كم، طريق يمتد حتى باشوش في الكم ٣٥ ينفصل هذا الطريق عن يمين طريق طرابلس، فيصل في الكم ٩ إلى غريز، علوها ٤٦٠. وهي قرية كبيرة مارونية، سكانها ٢٥٠٠ مبنية على جانب الجبل. على خليج جونية وعلى بيروت. وفي الغرب والجنوب الغربي تظهر قرى لبنان الجميلة على المرتفعات المتوالية والأديرة البارزة فوق قمم تلك المرتفعات. وهي مبنية على منحدر أكمة بسيطة وبيوتها منضدة بعضها فوق بعض على شكل نصف دائرة بحيث يرى الناظر منها مشاهد جد رائعة.

وغريز قاعدة كسروان وكانت دار ولاية الأمراء آل عساف وسيفا وشهاب. ولا تزال لهؤلاء الأمراء قبة مدافن فيها. ومن أبنيتها التي يستوقف النظر بقدمها دير الكوشيين وقد كان داراً للأمراء من آل عساف وسيفا وشهاب المسلمين سكنوها مئات السنين وموقعه من أجمل مواقع غريز وأبهجها. بناه سنة ٨٩٠ هـ /١٥٧٢م الأمير منصور عساف بعد أن ولته الدولة على الأنحاء الممتدة من نهر الكلب إلى حماه. وبنى أيضاً جامعاً فسيحاً له مئذنة شاهقة. لأن غريز كان كل سكانها من المسلمين كما يشهد بذلك بقاء اسم الحي الذي كانوا يقطنونه وقد جلوا عنها لما جلا عنها آل سيفا ١١٢٣/١٧١١ بسبب حرقها من قبل محمد باشا أبو هرموش. وغريز مسقط رأس الأمير بشير الشهابي الكبير سنة ١٧٦٧ ومن بنايات غريز دير اليسوعيين.

جونيه ٢٠٠٠ نسمة يقصدها أهالي الصرود العالية في فصل الشتاء هرباً من

البرد وجونية قاعدة قضاء كسروان الشتوي وفيها دار حكومة، وفيها تجارة ذات شأن للحبوب وغيرها. ويستخرج من مينائها كثير من السمك وهي لم تكن حول سنة ١٨٨٢ حسبما ذكرته دائرة المعارف سوى موضع به مخازن ودكاكين تأتيه السفن والقوارب بالغلال وغيرها، ولم يكن إذ ذاك فيها (بيوت للسكن بل إنما هي محل أشغال يقوم بها قوم من سكان القرى المجاورة)، كصربا وغادير وحارة صخر.

قضاء كسروان بحيرة من الغرب البحر المتوسط ومن الشمال قضاء البترون ومن الشرق قضاء بعلبك ومن الجنوب قضاء المتن.

آل عساف من رؤساء التركمان الذين أقطعهم أقوقوش الأفرم نائب الشام المتوفى سنة ٧١٦ هـ بعد أن استأصل شأفة النصيرية منها. ولما فتح السلطان سليم بلاد الشام أبقى كبيرهم في حينه وكان اسمه الأمير عساف وولاه بلاد كسروان وجبيل، فجاء هذا وسكن غريز ومات فيها، ثم تعاقب أحفاده، ومنهم الأمير منصور المذكور الذي بنى سرايات في بيروت وجبيل وغريز وبعد موته خلفه ابنه الأمير محمد إلى أن قتل غيلة سنة ٩٩٩/١٥٩٠، قتله يوسف باشا سيفا وإلى طرابلس في عقبة المسيلمة، وكان ذاهباً إلى عكار لجبي الأموال الأميرية، وكان هذا الأمير بدون عقب، فانقطعت سلالة العسافيين به.

والأفرم كان أحد الأمراء المقدمين في أواخر الدولة الأيوبية، استعمل نائباً بدمشق ثم بصرخد ثم بطرابلس ثم تولى على همذان فمات بها سنة ٧١٦ هـ. بنى الآباء اليسوعيون سنة ١٨٤٣ في غريز كلية مدرسة أميركية، ثم نقلوها إلى بيروت سنة ١٨٧٥، فصارتا الجامعة المنسوبة للقديس يوسف. ولم يبقوا في غريز سوى قيماً. واشتهرت غريز بمكوث أرنست رينان واخته هنريت، وقد ألف خلال ذلك كتابة (حياة يسوع). وعند الخروج من غريز على اليمين طريق ينقسم إلى فرعين أحدهما يذهب جنوباً ويوصل بعد ٤ كم إلى دلبتا، والثاني يذهب شمالاً ويوصل في الكم ٤ إلى عرمون، ثم في الكم ٧ إلى مار عبدا.

وبعد غريز يتبع الطريق وادي المعاملتين الخضر النضر إلى الكم ١٤، حيث دير مار عبدا، وهنا يترك على اليمين طريق عرمون. ثم يصعد في منعرجات عديدة.

في الكم ١٩ قرية الكفور، علوها ٧٠٠، سكانها ٣٧٩ مصيف، فيه فندق كبير وشجرتا سنديان كبيرتان ظليلتان في الكم ٢٣ غنية، قرية صغيرة ومصيف، فيها فندق باسم أدونيس.

بعد ١٠٠ م من هذه القرية مجاز صخري ينفصل إلى اليسار نحو رأس الكنيسة يوصل بعد بضعة دقائق إلى صورة أدونيس الشهيرة. وثمة على جدار صخري عمودي نقشت المعركة التي يروون وقوعها بين هذا الإله الفتى والخنزير البري أو الدب. وملامح الأشخاص قد تشوهت كثيراً بمرور الأجيال لكن الحيوان المذكور لا يزال ظاهراً. وعلى اليمين عشتروت جالسة وهي تبكي عشيقها. وتحت هذه الصور مغارة مقبرية. وللجدار الصخري المذكور واجهة أخرى على اليسار نحو الشرق على يمينها صورة بارزة لشخص قائم في يده رمح ويتبعه كلبان، ويقال إنها صورة أدونيس وهو يصطاد.

أفقا ونبع نهر أدونيس: (في نحو ٦ ساعات ودرب دواب كأداء) من حينة يقطع الدرب ثنية صغيرة ويجتاز سطوح (جلول) صفيين، فيصل بعد نحو ١ ساعة إلى ثنية ششتول (علوها ٩٦٠) ثم يهبط الدرب بسرعة نحو بطن وادي نهر الديب المنحصر بين الأسناد العمودية لجبل راشين في الجنوب وجبل موسى في الشمال. ثم يمر تحت صخرة تدعى صخرة الدب وتحت ضيعة اسمها المشتى. ثم بعد ١ ساعة و ٤٠ دقيقة مشرع نهر الدب (علوه ٨٢٠م) وإذا بلغ عدوته اليمنى يتسلق الدرب مدارج المشتى الكأداء، فيصل بعد ١ ساعة إلى تحت الأطراف الشرقية لجبل موسى، وسط واد عريض مزروع وتحت ينابيع نهر أبو اطرام (علوه ١٥٦٥م) ومن هذه النقطة يصعد مجاز إلى الجنوب الشرقي ليصل إلى عدد من قرى مقاطعة الفتوح التي من قراها البوار وإلى الشرق منها جبل شبروح. ويقال إن فيها صخراً منقوشاً عليه صور تمثل قتل الخنزير البري لأدونيس وبكاء الزهرة عليه. وإن حكاية عودته إلى الحياة منقوشة في محل يسمى (المشنقة) في أعمال جبيل.

من صعدة سريعة في ٥٠ دقيقة إلى نبع الحديد، ثم يمر الدرب من قرب أطواد الغرة ذات الاحمرار المنقطع النظير في شدته. ويبلغ في الساعة ٤.٢٥ إلى لازا (علوها ١٤٠٠م) ومن لازا يهبط إلى سرايتاو إلى جسر الخابط ثم يصعد إلى أفقا. في الساعة

٦.٤٥ وسيأتي وصفها،

عودة في الكم ٢٥ جورة ترميس، قرية كبيرة ذات فندق حسن، في الكم ٣٥ بحشوش ضيعة علوها ٥٧٠ وفيها ينتهي طريق السيارات.

عودة إلى طريق طرابلس. ـ في الكم ٢٤ جسر على نهر المعاملتين. وهذا النهر يجف بالكلية في فصل الصيف. وعلى يمينه قنطرة جسر خراب تدل أحجاره الضخمة على أنه روماني. وقد دعمته دائرة الآثار سنة ١٩٢٦.

وبعد أن يجتاز ساحة مدورة على ضفة البحر يلجأ إليها صيادو السمك، يدخل الطريق في منعرجات عديدة ترتفع في صعدة كئودة. وعلى اليسار كروم عنب، وبرج القديسة هيلانة، وهو خراب، كان يقيم فيه مراقبو الشواطىء من أبناء العرب في القرن ١٤، منتصب على ذروة صخرية. وإلى وراء السائر منظر رائع نحو جونيه وبيروت.

في الكم ٢٨.٥ برجا أو طبرجا، ضيعة ومرسى صغير في جوف جون أو خليج صغير جداً، وعلى مقربة من هذا المرسى وفوق الصخور المحدقة ببرجها أسراب ومغاور مقبرية عديدة. ـ وفي الكم ٣٢ قرية بوار. وبعد مغادرة بوار ومار ضوميط البوار وميناء العقبة يخرج إلى سهل ضيق يحادد البحر ويصب فيه نهر إبراهيم. (نهر أدونيس قديماً) بعد أن يدور دورة طويلة نحو الجنوب وخلف ركام من الرمل.

في الكم ٣٣ على اليمين مجاز صغير يوصل من على العدوة اليمنى للنهر إلى جسر عربي حجري، له قنطرة شاهقة الارتفاع تجتاز فوق مدرجين، وهذا الجسر في مكان نزه جميل فيه مقهى صغير على ضفة النهر. وهذا المجاز يصعد مع الوادي ويوصل إلى ينابيع نهر إبراهيم (سيأتي وصفها).

على العدوة اليسرى مجاز يوصل بعد ٢ كم إلى بقايا قناة ماء رومانية رممها العرب في عهدهم وجعلوا اسمها قناطر زبيدة. وبعد مسافة قليلة جسر حديدي على نهر إبراهيم، فوقه وفي وسط جداره الأيسر بلاطة عليها كتابة قديمة كانت تبين حدود ولاية بيروت. وثمة روابي تشرف على العدوة اليمنى لنهر إبراهيم الذي يوغل في الجبل إلى جهة الشرق.

ثم يحاذي الطريق ساحل البحر، فتواجه السائر قرية جبيل، ويبرز من بينها بناء ضخم هو حصن قديم.

في الكم ٣٨ على حيز الشاطىء الصخري، على يسار الطريق برج المحيش، وهو برج ناظور جميل من العصور المتوسطة يكاد يكون سالماً في الجملة. يقال إن له صدى واضحاً يضرب به المثل لمن يجيب جواباً لا معنى له على حد قولهم فسر الماء بالماء.

في الكم ٣٨,٥ يجتاز وادياً جافاً في الغالب، اسمه نهر الفدان، وتزعم الروايات المصرية أن جفافه نشأ من دموع إيزيس حينما كان يبكي ويجول في هذه الجبال باحثاً عن أوزيريس.

في الكم ٤١ جبيل بليدة ساحلية من أعمال قضاء كسروان، سكانها ٥٠٠٠، أكثرهم موارنة بينهم نحو ٣٠٠ مسلم، وفيها خمسة كنائس للموارنة وجامع ذو مئذنة للمسلمين. وجبيل الآن ليست ذات مكانة وجل ما يقال إنها فرضة لبعض القرى المجاورة، وأفضل التبغ ما يجلب من الجبال المجاورة لها. فيها مخفر درك ومدرسة للفرير المريميين.

(التاريخ): كانت جبيل المدينة الأصلية للجبليين، وكانوا يسمونها بيبلوس، وسماها التوراة جيبال وثمة رواية ذكرها فيلون تجعل جبيل أقدم مدن العالم وفي فجر التاريخ استقر فيها الإله إبل الذي قلبه اليونان إلى بكرونوس، وبنى لنفسه داراً أحاطها بسور. وفي الواقع أن جبيل تعد بين مدن الشام وفلسطين الأولى التي تناولها التاريخ قبل غيرها.

ومنذ الألف الرابع ق.م كانت بيبلوس ظاهرة على صيدا وصور اللتين ربما لم تحويا عهدئذ إلا أماكن للصيادين وكانت أكبر مركز تجاري وديني في الساحل الشامي. وكان المصريون يدعونها قبن ويأتون إليها ليحملوا منها أخشاب لبنان اللازمة لمبانيهم. حتى أنهم صنعوا فيها سفنهم الكبيرة لعبور البحار البعيدة التي سموها قوبنيت أي الجبيلية ووجدوا فيها أيضاً مادة أخرى ذات قيمة وهي النحاس الذي كانت تجلبه القوافل من بلاد القوقاز.

وفي هذا العهد البعيد كان في بيبلوس هيكل مشهور، وكانت عبادة آلهة هذا الهيكل منتشرة حتى وادي النيل. وقد ضاع تاريخ إشادة هذا الهيكل في ظلمات الدهر. إلا أنه ظل معموراً حتى القرن ٢-٣ قبل الميلاد. ولا ريب في أن التجار المصريين هم الذين بنوه في مكان مغارة مقدسة تعود إلى ماقبل التاريخ. وقد تمتع هذا الهيكل خلال قرون عديدة بجود الفراعنة الذين كانوا يقدمون إليه هدايا ثمينة، وجدت بعض القطع منها وعليها اسم (خاسخام أوج) أحد مؤسسي مصر (نحو ٣٢٠٠ سنة ق.م) واسم خئوبس وميسرينوس. وفي أواخر القرن الثالث حدثت في بيبلوس قلاقل احترق الهيكل المذكور خلالها. ثم بعد قرنين وبعد أن عاد السكون صار يحكم جبيل أمراء أو ملوك صغار محليون، شيدوا فيها هيكلاً جديداً بنوه فوق رماد الهيكل السابق. وصار وقتئذ لعبادة ايزيس حيث وجد قبولاً كبيراً عند الناس. والأمراء أو الملوك الصغار المحليون المذكورون إنما كانوا اتباعاً لفراعنة مصر، وكان من أسمائهم آبيشوا وايبشموآبي. وكانوا يدفنون إذا ماتوا على طريقة كبراء مصر، وتؤثث أضرحتهم بنسبة اتساع ملكهم. وروابط هذه التابعية لم تنفك خلال الألف الثاني. أما في القرن ١٩ فقد أظهرت المراسلات بين ملوك بلاد الشام والفرعون امنمحات الثالث والرابع، أن ريبادي ملك جبيل كان يرجو أن يمد بجيوش تمكنه من مقاومة جيرانه. وفي القرن ١٣ ق.م كان في بيبلوس ملك اسمه آجيرام اكتشفوا ضريحه سنة ١٩٢٤. وقد خلف هذا كتابات فينيقية هي أقدم ما عرف من نوعها حتى الآن.

وفي القرن ١٢ ق.م رأت جبيل كغيرها من مدن فينيقية مرور شعوب البحر، ومن بعده جاء الملوك الآشوريون واستولوا على هذه المدن. وظل حكمهم قائماً حتى القرن السادس. ومنذ سنة ٥٣٧ دخلت فينقية في حوزة ملوك الفرس.

وكانت لغة الجبيليين جد قريبة من لغة العبرانيين. ولما تمكنت علاقتهم مع الشعوب الآسيوية ولاسيما مع شعوب ما بين النهرين، نفذت فيهم آثار تلك الشعوب واختلطت بالأثر المصري السابق، وجاءهم فيما بعد قسم من الأثر الميسيني اليوناني، فتولد لديهم من كل ذلك فن محلي هجين دعي فيما بعد بالفن الفينيقي، وإنما ارتقى الفن الفينيقي تحت النظر المصري مع احتفاظه بمزاياه المحلية وهكذا اقتبس

الجبيليون الأشكال الخارجية التي كان المصريون يصورون بها آلهتهم ويحتفظون في الوقت نفسه (ليانثون) أهم مزاياه السامية. وقد كانوا صناعاً حاذقين، وخاصة بأشغال الخشب وقد استفاد من حذقهم هذا سليمان حينما بنى هيكل أورشليم.

وخلال فتوح الإسكندر انضمت بيبلوس من تلقاء نفسها إلى مملكة هذا الفاتح. وقد حفظت مدة من الزمن سيادتها القومية ومزجت مقدراتها بالدولة السلوقية. ولما جاء بومبوس دخلت بيبلوس في جملة ما دخل في حوزة الرومان. ومن ثم يختلط تاريخها لأنها كانت متأخرة، وهذا الفتك كان من عوامل انحطاط بيبلوس. إلا أن الانحطاط الاقتصادي قد أمكن تخفيفه في العصور الأخيرة لعهد الوثنية بفضل الحفلات الدينية الضخمة التي كانت تقام فيها وتزداد روعتها وفتنتها عاماً بعد عام، وكان يتقاطر الناس إليها في شوق وافتتان عجيبين.

وقد ظلت بيبلوس في كل زمان مركزاً دينياً عظيماً. فقد سماها المصريون أرض الآلهة، ورافقت فيها قصص ديانتهم الوثنية وآلهتهم أرباب التجارة، وثمة روايات خرافية قديمة ربما لفقت في عهد الأسر المالكة التينيتية وقد وصل الصدى المتأخر لهذه الخرافات إلينا عن طريق الآداب الإغريقية، وفيها يقال إنه لما قتل ست أخاه إيزيس، وصلت جثة المقتول إلى شاطئ بيبلوس، فرميت هناك بدغلة، وهذه استحالت فيما بعد إلى شجرة، فأمر ملك بيبلوس بقطعها وجعلها مقام عامود وحملت سقف قصره. فجاءت بعد أخت إيزيس بهيئة طير سنونو تفتش عليه لتنقله إلى مصر. (وفي اعتقاد الجبليين أن أدونيس لم يكن سوى أوزيريس)، وأن إيزيس حاثور سيدة بيبلوس لحظته وتمنت الحصول على يوم من أيام الربيع.. إلا أن هناء هذين العاشقين لم يطل سوى بضعة أيام. وبعد موت أدونيس بكت بعلات على جثته ودفنته، لكن غرامها لم يلبث أن أوصلها إلى الموت وهذه كانت من المنقولات الأدبية لدورة الموسم. ويفهم منها أنه في كل سنة تستيقظ الطبيعة من رقادها في فصل الربيع، وتزدهي وتنتج ثم تموت إذا اشتد الصيف لكي تعود إلى حياتها بعد رقاد طويل بفضل نسمات الربيع التي تداعبها.

وقد ثبت الجبيليون ضريح الفتى الجميل في بلدتهم، فكان في كل سنة تتقاطر الجماهير لزيارته، وفي العهد الروماني صارت هذه العبادة الطبيعية أشد روحانية

ودعمت برأي الموت. وتحت تأثير هذه الآراء صار للأعياد الدينية إقبال عظيم من الناس، وصارت بيبلوس من أعظم المراكز الدينية في كل الشرق. والبرية التي تحيط بها نالها حظ موفور من ذلك التمجيد فشيدت فيها عدة معابد.

وفي عهد قياصرة الرومان السبعة المسميين بأنطونين، عظم الدور الديني لبيبلوس وزاد ازدهارها في عهد ديوكليتانوسي حتى جعلت بعد انتشار النصرانية مركز أسقفية. ومن بعد ذلك سقطت في يد المسلمين.

وفي عهد الصليبيين مهد وضعها النافع لازدهارها مع سمات أخرى ففي نيسان ٤٩٨هـ /١١٠٤م فتح ريموند صنجيل كونت طرابلس مدينة جبيل بمعونة الجنويين. وفوضت إمارتها مع الوراثة إلى غليوم امبرياك مقابل ضريبة سنوية كان يقدمها إلى الجمهورية. إلا أن كونتت طرابلس عاد فحرم ورثته المذكور فنزحوا إلى قبرص. ولما وقع هوكو الثالث المعروف بالأعرج أسيراً في يد المسلمين في معركة حطين ٥٨٤ هـ /١١٨٨ قدم مدينة جبيل وحصنها إلى السلطان صلاح الدين. وفي سنة ١١٩٠ لما جاءت الحملة الصليبية الجديدة بقيادة فردريك باربا روس فهدم صلاح الدين حصن جبيل ودك أسوارها. وبعد ثماني سنين تمكن كي دو جبيلة من استرداد جبيل فسمي باسمها (جبيلة) وقد لعبت دوراً مهماً بصفتها موقعاً بحرياً ومدينة أسقفية في عهد مملكة القدس، وعني وقتئذ بترميمها مستعجلاً مع العلم بأن مكانتها الحربية وقتئذ كانت شبه معدومة. وظلت جبيلة في حوزة الصليبيين إلى شهر آب سنة ٦٨٩ هـ /١٢٩٠، إذ جاء وقتئذ الأمير سنقر الشجاعي أحد قواد الملك الأشرف بن قلاوون وحاصرها. ولما رأى المحاصرون أشد الفتك قد أحاط بهم وأن الدفاع لا جدوى فيه اغتنموا فرصة إحدى الليالي العاصفة فأخلوا البلدة ونزحوا إلى طرابلس، فهدمها سنقر المذكور ودك قلعتها. ودخلت ١٦١٨ في حوزة الأمير فخر الدين المعني.

يظهر أن المدينة الفينيقية كانت محددة من جهة الشمال بالدرب المحفور الذي يوصل الأسواق إلى المرفأ، ومن جهة الجنوب بالوادي الذي يهبط نحو البحر من جسر الطريق الذاهبة إلى طرابلس. وهذا الموقع الذي حددناه مؤلف من رابية صغيرة مشرفة على البحر. أما المدينة اليونانية الرومانية فقد كانت تمتد على التقريب في نفس المسافة التي للقرية الحاضرة، التي تذهب من الشاطىء إلى سفح الجبل. ومخطط

جبيل في عهد الصليبيين يظهر بجلاء في الشمال. وهو معين بخط الأسوار التي يمكن متابعتها من عند المرفأ حتى الحصن ومنه إلى الشاطىء.

١ ـ المدينة الفينيقية ـ عمل الأثرى المسيو مونته ومن بعده المسيو دونان حفريات كثيرة، ويمكن زيارة أماكن العمل خارج أوقاته بإذن من مصلحة الآثار في بيروت. وقد كان بدء تلك الحفريات سنة ١٩٢١، فكشفت عن قسم من أسوار المدينة الفينيقية، وكثير من أضرحة الملوك وعن المعبدين اللذين تعاقبا في هذا المكان الأثري فالأسوار يمكن رؤيتها في أسفل الواجهة الجنوبية للجدار الشمالي من السور الصليبي، وهي بين الحصن والبحر.

جاء أحد مراكب الدول المتحدة لإرجاع سورية إلى الدولة العثمانية وقصف قلعتها. وقد انحطت جبيل عن عظمتها السالفة انحطاطاً عظيماً وفيها كثير من الآثار والخرائب، منها كنيستها القائمة إلى الآن وقلعتها الشاهقة وأعمدة ونواويس وآثار أبراج وأقبية في القلعة، وأهلها نحو ٢٥٠٠ موارنة، بينهم نحو ١٥٠ من المسلمين الذين كانوا قبلاً أكثر من ذلك فنزحوا إلى بيروت وغيرها.

وهي تتألف من جدار ثخين عرضه نحو ٤.٥ م، متجه من الشرق إلى الغرب. ومحفوظ فوق ارتفاع وسط قدره ٣ ـ ٤ م، في داخلها قد دعمت بعضائد ضخمة موضوعة في مسافات جد منتظمة، كان القصد منها زيادة التصاق الأسوار بالصخور التي يزداد في هذا الموقع انحدارها. وبين اثنتين من تلك العضائد البارزة جرتان كبيرتان مملوءتان بهياكل عظمية لأطفال، وهذه الهياكل من بقايا الضحايا البشرية التي كانت تقدم إلى الآلهة بمناسبة بناء تلك العضائد.

والمقبرة تحتوي على تسعة كهوف مقبرية وجدت كلها مجتمعة في جنوبي قسم السور الذي صار اليوم مرثياً منها بادئ بدء ضريحان يشرفان على ساحل البحر ويتصلان بدهليز ينزل إلى أحدهما بدرج حديث، وهو ضريح الأمير أبي شمو داخل بئر مربع الزوايا منقور في الصخر. وكان فيه أشياء ثمينة نقلت إلى متحف بيروت، وبعد قليل ضريح آخر للأمير أبي شمو وهو والد الأمير المذكور آنفاً، وكان معاصراً لأمنمحات الثالث فرعون مصر في أواخر القرن ١٩ ق.م وعلى مسافة قليلة ضريح ثالث إلى آحيرام، وجدوا فيه تابوتاً عليه كتابة من أقدم ما عرف من الأبجديات

الفينيقية. وهذا أيضاً في متحف بيروت. وفي الجنوب الشرقي من المقبرة المعبد الذي كان بناه المصريون الذين جاؤوا أول مرة إلى جبيل، ثم احترق سنة ٢٢٠٠ ق.م شيَد الأمراء الجبيليون مكانه معبداً آخر لا تزال جدرانه ماثلة. وقد كانوا وجدوا في باحة هذا المعبد بضعة جرار تحتوي على تمائم عديدة كانت تقدم كنذور للمعبد وهي الآن في متحف بيروت.

المقبرة والمعبد اليوناني الروماني: كانت بيبلوس وضواحيها ملآنة بالمعابد المشيدة تقديساً لأدونيس وانجذاباً مع شهرته. ومكان أكثرها مشغول الآن بكنيسة. والمعبد القديم في الآكروبول نفسه حدث فيه مؤخراً ترميم. والباب الشمالي لساحته قد وصل بالقسم المنخفض من المدينة بصف من الأعمدة التي وجدت أيضاً قطعها، وأعيد نصب ستة منها. وقد جرت كل أنواع الحفر في هذه الصخور المجاورة لساحل البحر فإذا بها كلها أقبية لحفظ الموتى.

في جنوبي بيبلوس، كل كثبان الرمل الممتدة جنوبي الطريق هي مما تألف وتراكم حديثاً وقد غطت المقابر والقبور التي تشغل القسم الأعلى من الصخور التي تشبه كراسي الخشب التي في صدور الكنائس، وهي منقورة في الصخر. وبعضها لا يزال مزخرفاً بصور من النقش البارز وبقليل من الكتابات. وتحتها مناكب الصخور المتجهة نحو البحر والمغطاة الآن بالرمل، وهذه المناكب تحتوي مجموعة واسعة من أقبية المقابر ذات الطابقين من القبور. بعضها قد فتح في الصخر وبعضها مبني بالأحجار وكل أقبية هذه المقبرة نقرت في الصخر الصلد وكانت مخصصة في الغالب لعدة أجساد.

وإذا صعد الزائر في الوادي الذي ينتهي في الجنوب بساحل ذي رمل وحصى، يصادف في كل خطوة آثار مبانٍ ومقابر فعلى اليسار يمتد من الجنوب إلى الشمال مجرى ماء منقور في الصخر يتصل بقناطر توجد على العدوة اليمنى لنهر إبراهيم، وهذه القناطر كانت توصل قديماً مياه النهر المذكور إلى جبيل.

وإذا ظل في اتجاهه نحو شمال المقبرة يرى على اليسار بقايا جدار قديم، وإذا ترك أمامه الجسر الممدود على الوادي الفاصل بين المقبرة المذكورة والبلدة، يعرج نحو اليمين ليصعد نحو العدوة اليسرى للوادي.. وبعد أن يجتاز مدرسة الفرير (على

اليسار بعد ٥ دق) يصل إلى (رابية قصوبا) التي محيطها منقور على شكل مدرج. وعلى الواجهة الغربية للرابية المذكورة قامت عدة بيوت وكنيسة اسمها (سيدة قصوبا) مبنية بالأنقاض الأثرية. ويوجد في قمة الرابية في الشرق حفائر غريبة جداً، كالقبور والصهاريج والمعاصر الرحى وأعمدة مصغرة مدورة، وفي الواجهة الغربية يرى أساس جدار كبير مؤلف من أحجار جميلة النحت، تعلوه كومة عظيمة من تيجان الأعمدة الأيونية من العهد الروماني.

والوادي الذي في سفح قصوبا من الجهة الشمالية غني بالحفائر المنقورة في الصخر. وكل الرابية في الشمال هي مقبرة واسعة وعلى يسار الرابية قرب دار يعقوب الخوري منظر واسع والباب مؤلف من عضادتين ضخمتين مجلوبتين، وفي الداخل يرى الصخر الصلد والصدر يؤلف نوعاً من الحنية المنقورة في الصخر. وكل سفح الرابية في الشرق مملوء بالأقبية المقبرية التي هدمت سقوفها. وفي أعلى ذلك السفح وفي الوادي جرون مقبرية. وإذا صعد في الوادي يجد مغارة فيها أثر من الريازة جميلة جداً، تؤلف بهواً محاطاً بما يشبه المصطبة الموضوعة في الصخر.

وإذا انحرف نحو الشمال يجد كهوفاً أخرى، يدعى أحدها مار شربل اتخذ بعد كنيسة. وإذا وصل إلى الطرف الآخر من الرابية أي إلى تحت مار سمعان يسلك مجازاً على اليسار ثم ينحرف بعد أربع دقائق إلى اليسار ويترك في الشمال كنيسة مار جرجس ليأخذ في اليمين درباً يهبط إلى السهل، ويمر بكنيسة خراب باسم مار يعقوب. وفي أسفلها كرم توت.

يرى في وسطه عدة تيجان أعمدة وقطع رخام. وفي العهد الروماني، كان يوجد في هذا المكان هيكل ربما كان مسرح أدونيس.

٣ ـ مدينة العصور المتوسطة: هذه المدينة محاطة بسور يؤلف شكلاً ذا أربعة أضلاع غير قياسية مستنداً إلى البحر وطول السند ٣٠٠ م وعرضه المتوسط ٢٥٠ م.

وكان هذا السور مؤلفاً من جدار عال عليه أبراج بارزة مربعة. والجبهة الشمالية لا تزال سالمة في الجملة على كل امتدادها. وهي تحتوي على جدار بسيط ومحصنة بأبراج مستطيلة تدل أحجارها المتوسطة الحال على أنها رممت مراراً.

والجبهة الشرقية قد خرب نصفها وامتلأت بدور البلدة. والجبهة الجنوبية التي رممت كثيراً قد اندثر بعضها أما الجبهة الغربية فلا يوجد فيها سوى الشاطئ والمرفأ. وفي الزاوية الشمالية الشرقية من هذا السور قد قام برج مبني بأحجار ضخمة لكن أكثر من نصفه مهدوم، وتسير طريق طرابلس في محاذاته. وعليه دار لأحد الأهلين ذات منظر وإن كان حقيراً إلا أنه مرئي.

وكان للسور بابان لا يزالان موجودين. أحدهما في الجبهة الشمالية والثاني في الجدار العالي الشرقي تحت إشراف الحصن، والحصن يعتلي ظهر رابية في الزاوية الجنوبية الشرقية من سور المدينة. وهو مطل عليها ويؤلف الملجأ الأخير في الدفاع عنها.. وهو يتألف من سور مستطيل الشكل ذرعه ٥٠ م في ٤٥ ويحيط به خندق عميق. وفي وسطه قام برج ضخم متطاول هو (البرج الكبير) وكل هذه المباني الدفاعية مبنية من أحجار ضخمة منحوتة نحتاً محدوداً (أحجار صورية) ومعها (أحجار تشبيك) منقوشة. وعلى ثلاث من زوايا السور يوجد أبراج مربعة أو متطاولة. أما الزاوية الرابعة فقد اندثرت، ولا ريب في أن ذلك قد حدث حينما دك المسلمون هذه المدينة. وثمة برج آخر نصفه خراب يظهر بارزاً وسط الجبهة الشمالية للسور. وكان في كل من جدران بهوه رمايات.

ويتصل الحصن بالخارج من باب مفتوح في الجبهة الشمالية من الباب، وهو لا ريب في أنه من بناء العرب الذين كانوا هنا قبل الصليبيين وكان هذا الباب متصلاً بالخارج بجسر حجري له قنطرتان ذواتا أقواس منكسرة، وهذا أيضاً من عهد أولئك العرب.

أما البرج الكبير فهو بناء ضخم متطاول، فالجدران مبنية بأحجار منحوتة وسط خرسانة محلية متوسطة الحال تحتوي على رمل مختلط بحصى شواطئ ذات ألوان مختلفة تسبغ عليها منظر نافذة من اللون البرتقالي، أو هيئة محرقة جداً في بعض النقاط. (ويمكن أن يقال إن بناء هذا البرج من النوع الضخم جداً. لأن البلوكات الأكثر ضخامة في مداميك الأسس، في الزوايا الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية يصل طولها من ٥.٠٧ إلى ٥.٦١م، وهي ضخامة ليس في بلاد الشام ما يزيد عليها سوى بضعة مبانٍ رومانية منها قلعة بعلبك والأحجار الساترة للجدران

منحوتة نحتاً غاية في الاحديداب (أحجار صورية)، يحيط بها بجدار تشبيك، قياسي نوعاً. وهذه الجدران العظيمة الضخامة تجدها سالمة حتى أرضية الطابق الأول ومثلها النصف الأعلى الغربي للبرج. أما الطرف الفوقاني من القسم الشرقي فهو خراب..).

والقسم الذي تحت الأرض مشغول كله بصهريج واسع، لا يزال على أحسن حاله. ثم تجد فوقه بهو الطابق الأرضي مغطى بعقد دائري ذي قوس منكسر، يلحظ وجود بضعة ترميمات في ذروته. وليس لهذا البرج منفذ سوى من باب صغير في جبهته الغربية. وتعلو هذا الباب عتبة ضخمة من حجر واحد، قد خفف حملها بقوس من نوع التي علوها أقل من فتحتها، وهذا القوس يتألف من ثلاثة أقفال فقط، وفي الداخل قد غطى الباب المذكور لكبر انحنائه النصف دائري، ومثله النافذة الوحيدة في الطابق الأرضي وفجوات الطابق الأول.

ويوصل إلى الطابق الأول وإلى سطح البرج من درج أقيم وسط الجدران الغربية والشمالية تحت عقد دائري ذي ميل، قسمه الأعلى من صنع العرب وربما كان ذلك في القرن ١٤ أو ١٥، وعقد القبة التي فوق بهو الطابق الأول هو أيضاً من صنع العرب، والدهليز المغطى الواقع في أعلى الجدار الشمالي، هو أيضاً ترميم مكرر من نفس الصنع ولكنه بأحجار متوسطة الحال. والمناظر التي تنكشف للرائي في قمة البرج جد رائعة.

والكنيسة الأصلية تقع في وسط المدينة وتواجه البحر، ولا تزال تستعمل للصلاة. وهي مكرسة باسم مار يوحنا المعمدان، وقد بنيت سنة ١١١٥، ونصفها الشرقي خراب حتى الأسس. أما الواجهة الغربية كلها فهي حديثة العهد. وفي شمالي هذه كنيسة أخرى صغيرة فقيرة لكنها حسنة البناء، وهي من الطراز البيزنطي دون شك، والمرفأ صغير جداً، يتألف من ساحة مدورة محددة برصيفين كبيرين مستويين وبجدارين طويلين. ويوجد في منتهاها برجان قد بنيا للدفاع عن الممر. وقد بقي من أحدهما الذي في شمالي الممر أطلال ضخمة. ومن البرج الذي في الجنوب بقيت أعمدة أثرية ممتدة على الصخر.

ضواحي جبيل

يمكن أن يزار حول جبيل ضمن دائرة قطرها نحو ميل بضعة أماكن مفيدة. فإذا صعد في الوادي الذي ينفتح نحو جنوبي قصوبة يصل إلى قرية (البلاط) وفيها كنيسة باسم مار الياس بنيت بأنقاض هيكل قديم وأقحمت في جدرانه قطع من التماثيل الرومانية. ويظهر من كتابة وجدت هنا أن تاريخ بناء الهيكل في القرن الأول قبل الميلاد. وإذا عاد الزائر أدراجه واجتاز المقبرة يجد على يساره كنيسة فقيرة باسم مار سمعان قد انتصب في وسطها عمود من المرمر غاية في الضخامة محيطه ٤,٥ متر. ويزار هناك أيضاً كنيسة جنوب المبنية مكان هيكل قديم والمشابهة لدير القلعة (قرب بيت مري) ثم حول مكان اسمه (أدّه) مواقع هياكل عديدة، ويوجد في تادروس ومار يوحنا ومار أعمى ومار اليشع أطلال أثرية. أما (غدفين) فهي مثال الأماكن الأثرية المقدسة اللبنانية ففيها معاصر ومقابر وأحجار جميلة مبعثرة.. الخ.

ومن ثم في وادي عمشيت إلى الشمال الغربي مار جرجس وفيه أطلال هيكل قديم عليه كتابة إغريقية وبين مار جرجس وعمشيت كنائس عديدة أخصها في بيريت شاهين. ثم أنه في دير سيدة نايا وهي وسط غابة مقدسة، كثير من الكهوف المنقورة في الصخر.

من جبيل إلى أفقا والعاقورة: تصل السيارة إلى قرطبا فقط (٢٢ كم)، ومنها تركب البغال إلى أفقا خلال ٢,٥ ساعة ومنها أيضاً العاقورة ٣ساعة، ويتجه الطريق نحو الشرق. ففي الكم ٢٠ نبع طورظبا وفيه عين ظليلة . في الكم ٢٢ ، يترك على اليسار طريقاً يأخذ إلى مزرعة اهمج، وسيمتد منها الطريق إلى هضبة غريبة اسمها اللقلوق يخيم فيها أعراب رعاة يقرون الضيف، وسيمتد أيضاً إلى قرية دوما ماراً بدير ماروني اسمه مشمش وبقرية اسمها أجاج.

ويترك الطريق على اليمين (نحو الجنوب) أطلال عجيبة لهيكل يقع فوق هضبة تدعى (شير الميدان) علوها ٩٥٠م وفيها ماعدا ذلك منظر هائل نحو المنحدرات الصخرية التي على جانبي مضائق النهر. ولعل هذه الأطلال كانت لمعبد يظن أنه مخصص لعبادة أدونيس، وأنها من القرن الأول الميلادي. وفي شمال الأطلال ممر

منقور في الصخر اسمه (المشنقة) على جانبيه نقوش وصور من عهد عبادة أدونيس، وفي قرب الممر قبور ذات أغطية منقورة في الصخر.

ويترك الطريق على اليسار ضيعة بيطاس ويتسلق منعرجات عديدة ليصل إلى جبل النمرود. في الكم ٣٢ قرطبا، قرية كبيرة، سكانها ١٣٠٠، علوها ١١٠٠ على سطح الانصباب الجنوبي لجبل الواردية وتشرف من فوق منحدر عمودي على وادي نهر إبراهيم، وفيها ينابيع عديدة غزيرة، وكروم توت وعنب وزيتون واشتهرت بجودة البطاطا التي تنتجها وتستعمل كتقاوى في أكثر البلاد الشامية.

وبعد قرطبا يصعد درب البغال في الفرع الشمالي لنهر إبراهيم في منكب الجبل.

(١) من قرطبا إلى افقا. نحو ٢,٥ ساعة، بعد قرطبا بربع ساعة يهبط الدرب بسرعة وسط الجلول المغروسة بالتوت ويعبر مسيل العاقورة فوق جسر (علوه ١٠٤٠م) وبعد ١ساعة وربع عن قرطبا يعبر جسراً آخر على نهر أفقا، ومن هنا يصعد في مجرى النهر وعلى العدوة اليسرى حتى يبلغ بعد ٢,٥ ساعة إلى مغارة أفقا الشهيرة ويذهب كثير من اللبنانيين إلى أن نبع هذه المغارة آت من مغارة بحيرة اليمونة (أي النبي الصغير) الواقعة في الشمال الشرقي من هذه المغارة على بعد ١٣ كم وقدا متحن ذلك – كما يقال – بإلقاء تبن في البحيرة المذكورة فخرج من المغارة، وهو تفسير لا يعوّل عليه. وعندما تخرج المياه من المغارة تندفع من علو بضعة أمتار متفجرة مزبدة في مجرى صخري عميق محاط بالجبال العالية إلى أن تبلغ أسفل وادٍ عميق حيث تلتقي هناك بجدول آخر يجري في واد يبدأ من قرب العاقورة وحينما يبلغ سهل جبيل يسير على منبسط من الأرض في مجرى كثير التعاريج، ويروي هناك جميع الأراضي الواقعة على ضفتيه فيكسيها بالخضرة على مسافة بضعة كيلومترات، ثم ينصب في البحر على مسافة نحو ٨ كم جنوبي جبيل بعد أن يجتاز مسافة لا تقل عن ٢٠ كم وهي الينبوع المقدس لأدونيس.

قال رينان "هذا واحد من أجمل بقاع الدنيا".

ينبثق نهر إبراهيم من مغارة واسعة واقعة في منكب صخرة عمودية علوها نحو ٢٠٠م. يوصل إليها من ممر، في ضفة النهر اليسرى وعلى الصخرة وتجاه المغارة تماماً مصطبة واسعة أنقاض هيكل خراب بالمرة. ويرى في أسسه من جهة النهر المدخل

وهو يشبه النفق، وكان هذا المدخل قديماً يوصل الماء إلى حوض مندثر الآن، وكان المؤمنون بأدونيس يلقون في هذا الحوض نذورهم. وقد ظلت قداسة هذا المكان محفوظة حتى الآن. فالأهلون يضعون تحت العقد سُرُجاً تضاء بالزيت تمجيداً للسيدة التي ترد إلى هذه الأماكن. وهنا تجد مزيجاً غريباً من العقائد.

أفقا قرية صغيرة حقيرة من قرى ناحية الفتوح موقعها قرب مخرج نهر إبراهيم، سكانها شيعة. وإلى جنوبي النهر المذكور مقابل القرية آثار هيكل لم يزل كثير منها قائماً بين أشجار من الجوز يذكر العابرين بالفواحش التي كان يرتكبها القدماء عباد الزهرة في ذلك الهيكل.. ويذكر التاريخ أن الملك قسطنطين الكبير أمر بهدم ذلك الهيكل وإقامة كنيسة على اسم السيدة مريم مكانه.

والنصارى يقدسون معاً (الزهرة) التي خلقت (فينوس) في لبنان. ويؤكد النصارى أن أطلال افقا كانت لكنيسة باسم العذراء. وثمة على مقربة شجرة تين مقدسة يعلقون عليها ثياب المرضى كي ينالوا الشفاء.

وكان هيكل افقا مشهوراً في العصور القديمة ومكرساً باسم (فينوس) وقد خرب بأمر قسطنطين حينما بلغه أنهم يجرون فيه عبادات مخالفة للحياء (طقوس خلاعية). ثم رمم بعضه في عهد الامبراطور يوليانوس، ثم هجر.

وهنا تجعل الرواية مكان وقوع حكاية فينوس وأدونيس كما تصنع قبر الإله الفتى. وتقول إن أدونيس ولد نتيجة وصال غرامي من تلك التي تحدث بين الأقارب، بين سينيراس ملك قبرص وبين ابنته ميراها، وإنه كان ذا جمال فتان. ولما كان صغير السن عشق أفروديت فيما بعد. وفي ذات يوم بينما كاد يصطاد وسط غابات لبنان وثب عليه خنزير بري مرسل من قبل غريمه المريخ (إله الحرب) وجرحه جرحاً مميتاً. ولما بلغ الخبر إلى الإلهة أفروديت صارت تدور في الجبال باكية نادبة، فوجدت عشيقها وواسته دون أن تتمكن من شفائه. وولدت نبتات الشقيق الأحمر من دم الإله الفتى أي تحول هو إلى زهرة الشقيق. ويقال أيضاً أنه في هذه الظلال تبادل العاشقان أول قبلاتهما وآخرها.

وفي شهر آذار يحدث أن تنقلب مياه نهر إبراهيم حمراء من جراء انحدار الأتربة الحديدية من أودية العاقورة بفعل الأمطار والسيول الغزيرة. فيقال إنه في ذلك اليوم

نفسه جرح أدونيس في الناب. ومن هنا نشأ الوهم الديني الذي يقول إن مياه السيل جرفت معها دم الإله وصبغت به. ومن هنا أيضاً نشأ ذلك التصور الذي أعلى اسمه في كل العصور القديمة وجعل من هذا الوادي الشهير مركزاً لعبادة غير منقطعة وكثر فيها عدد المعابد. وقد زادت المناظر المنقطعة المثال لهذا الوادي بذلك التقديس. ويصادف الزائر في كل خطوة كهوفاً يسودها الصمت، وكان العبيد المقدسون المخصصون لخدمة الهياكل، القاعدون في منعرجات الطرق يدخلون إلى تلك الكهوف الأتقياء القادمين لطلب الغوث من الآلهة، (والنساء النادرات الجمال لكل طالب).

فكان أهل جبيل يحتفلون في منتصف شهر آذار بمأتم تلبس نساؤهم ثياب الحداد ويجلن في شوارع جبيل باكيات يضربن صدورهن ويشققن جيوبهن حزناً عليه، ولكن في اليوم الثاني ينقلب الترح مرحاً إذ يبعث أدونيس ويرتفع إلى السماء فتقام في المدينة معالم الزينة والابتهاج فتحلق النساء شعور رؤوسهن. ومن لا تقدم على هذه التضحية تكفر عن سيئاتها بإباحة جمالها لكل طالب طوال هذا اليوم. ويخصص ريع هذا العمل الشائن لأعمال البر والتقوى. وكان الفينيقيون يعدون أعمال العهر والفجور أعمال تيمن يتقربون بها إلى أربابهم.

من أفقا إلى اليمونة (٤,٥ عة) في مجاز، هو أسهل من المجاز القادم من العاقورة والذي سيذكر فيما بعد).

من افقا إلى المسيطر ١٠ دقائق وبعد نصف ساعة من المنيطرة يمر الدرب في واد صغير اسمه وادي البرج، وهو في بطن مضيق صخري. وعلى يساره يفترق مجاز نحو الشرق يصعد بسرعة في هذا الوادي إلى أن يبلغ مكاناً متسعاً معشوشباً (بعد ١ ساعة و ١٥ دقيقة) فيه خرائب كنيسة وحصن صغير اسمه (الحصن) ربما كان من عهد الصليبيين وبعد ٢ ساعة و ٣٠ دقيقة رأس الحمراء أو الرام القبلي، وهو ثنية علوها نحو ٢,٣٠ متراً ـ ثم يهبط نحو سطح الانصباب الشرقي ماراً بوادي الخيل ثم ينفرج نحو الشمال، فيصل إلى نبع اسمه عين البحر ـ ويترك (زينية) على بعد ١٥ دقيقة وفي الأسفل وعلى اليمين. إلى أن يقترب من البركة الكبيرة المسماة (بركة اليمونة) بعد اجتياز ٤,٥ ساعة.

من قرطبا إلى العاقورة: (٣ ساعات في درب دواب) يترك على اليمين مجاز أفقا فيبلغ فوراً ضيعة (المغيرة) علوها (نحو ١٢١٠ متر) ثم يترك على اليمين أطلال قرية أثرية على هضبة صغيرة، وفيها عدة كنائس وأنقاض بناء كبير نوعاً، وبعده ببضعة أمتار يوجد هيكل يانوا الصغير (علوه نحو ١٢٠٠م) الذي لا يزال فيه بضعة نوافذ منقوشة بزخارف على طراز مباني بعلبك. وكان البيزنطيون بدلوا هذا الهيكل إلى كنيسة، والآن ينسبه الأهلون إلى مار جرجس الأزرق نسبة لزرقة أحجاره.

ثم يقترب الدرب من المسيل ـ فيلاقي جسراً (علوه ١٣٠٠م) يلتحق به درب أفقا (وسيأتي)، ومن ثم صعدة بسرعة توصل بأقل من عشر دقائق إلى قرية العاقورة.

في الساعة ٣ العاقورة، علوها ١٤٥٠، قرية مختبئة في سفح جدار صخري هائل جدير بالتصوير، تحيط بها بساتين الأشجار المثمرة والكروم، وفيها وجهاء يرحبون بالضيوف والسياح. وفي العاقورة مغارة عجيبة جداً، مفتوحة في قاعدة المنحدر الصخري المشرف على القرية. (قد اتخذت هذه المغارة كمقبرة، ولعل ذلك في عهد الرومان. ويؤيد ذلك وجود نواويس ورموس كثيرة منقورة بشكل دائري. ثم جعلت كنيسة، إذ لا يزال يرى حتى الآن أسماء قديسين مكتوبة بالأحمر وبالخط السطرنجيلي (وهو السرياني ذو الأحرف العمودية). وقد كان هذا المعبد مزاراً ويحج إليه. وكان تحت حماية القديس بطرس.

من العاقورة إلى ليمونة (٤,٥ ساعة، درب دواب غير يسير، وهو طريق روماني قديم) ـ بعد ١٠ دقائق من العاقورة يترك فوق المجاز على اليسار الحفر المنقورة في مقبرة صخرية، وبعد مسافة ١٠ دق أطلال كنيسة القديس سمعان. ولعلها من العهد الصليبي.

في الدقيقة ٤٨ تبدأ السكة الرومانية التي لأجل أن تجتاز جداراً صخرياً كان نقرت على شكل أدراج (علوها ١٢٥٠ متر)، على اليسار فوق السطح الداخلي لجدار عالٍ مشرع فوق الممر تجد كتابة تدل على أن الإمبراطور دوميسيانوس (٩١ ـ ٩٦) قد شق هذه السكة. ـ في ١ ساعة و ٤٠ دقيقة عين العصافير ذات ماء جيد، (العلو ١٧٨٠ متراً) في ٣ ساعات و ٢٠ دقيقة، يبلغ خط تقسيم المياه وثمة ثنية عريضة مفتوحة تكاد تكون هضبة على علو ٢٠٢٠ متراً. وعلى صخرة في جنوبي الدرب يوجد مثال

من كتابات أوريانوس التي كانت تأمر أن يحفظ لهذا الإمبراطور أربعة أصناف من الأشجار المخصصة لبناء السفن. ـ ثم يهبط المجاز إلى وهدة اسمها عبات، على سطح الانصباب المتجه نحو البقاع من منعرجات كأداء جداً وسط الصخور. في الساعة ٤,٣٥ اليمونة، وثمة أطلال هيكل يوناني روماني (سيأتي وصفه) ومن اليمونة يمكن الوصول إلى بعلبك .

وللرجوع من العاقورة إلى أفقا. ـ يعود إلى الجسر الذي فوق وادي العصافير في سفح القرية . ثم يصعد المجاز بسرعة نحو الجنوب فيبلغ بعد ١٥ دقيقة إلى سفح منحدر عمودي رائع، في وسطه مغارة واسعة اسمها (مغارة الحسا)، ينفجر منها نبع غزير. وهذه المغارة قد قطعت بجسر طبيعي عجيب الشكل، فتحته تذرع نحو ١٥ متراً، ويعبر من فوقه درب الدواب (علوه ١٣٤٥م) ثم يجتاز هذا الدرب هضبة ذات ميل خفيف (علوها نحو ١٣٨٠م) وفيها منظر غاية في الروعة نحو كتلة وادي نهر إبراهيم، ثم يمر وسط غابة من شجر التويا (الصنوبر) ثم يهبط فجأة، فيبلغ بعد مغادرة العاقورة وثلث إلى المنيطرة (علوها ١٢٦٠م) وهي ضيعة فيها نبع ماء غزير، وكان هنا في عهد الصليبيين حصن من إقطاع كونتية طرابلس. ومن المنيطرة يهبط في ١٠ دقائق إلى الجسر على نهر إبراهيم (علوه ١٢٠٠م) وهو تحت مغارة أفقا بمسافة ثلث ساعة.

عودة إلى طريق طرابلس. ـ يخرج من جبيل نحو الشمال ويحاذي في سيره البحر، ويجتاز بطن واد جاف. ـ في الكم ٤٣ على اليمين ينفصل طريق يوصل (بعد ٥ كم) إلى عمشيت، قرية صغيرة، سكانها ١٠٠٠ منهم كثير من الأغنياء وأكثر دورهم متقنة مبنية فوق رابية حجرية، اشتهرت بأن العالم الإفرنسي أرنست رنان أقام فيها وألف كتابه (حياة يسوع) وقد كانت أخته (هنريت) ترافقه في إقامته هذه وتساعده في عمله، فماتت خلال إقامتها تلك فحزن عليها كثيراً، ولا يزال البيت الذي أقام فيه مقصوداً بالزيارة.

كما أن ضريح هنريت لايزال محفوظاً داخل سور جديد تحت شجرة سنديانة، وفي عمشيت مستشفى للراهبات الإفرنسيات، وفيها دير وكنيستان وكثير من

المغاور المقبرية. وأكثر دورها الحديثة مشيدة بأحجار المباني الأثرية المنقولة من جبيل أو قطوبا.

ثم يستمر طريق طرابلس في محاذاة البحر، ويجتاز عدة تلعات مغطاة بالزيتون والتين. إلى أن يصل في الكم ٤٦ إلى ضيعة مبنية عند مصب وادي حلاوة، فيعبر الطريق هذا الوادي فوق جسر حجري له عدة قناطر. ثم ينحصر الطريق بين الشاطئ وبين منحدر صخري. ـ في الكم ٤٩ ضيعة اسمها البرج ـ في الكم ٥٣ منعطف فجائي نحو الشرق تنكشف منه البترون والساحل المجاور لها ورأس الشقعة. ـ في الكم ٥٤ جسر المدفون وهو على وادي بشاشبا.

في الكم ٥٩ ادة، ضيعة، منها درب دواب ينفصل نحو الشرق ويصل بعد ٤ كم إلى جبيل، قرية صغيرة تستحق التصوير جداً، علوها ٤٠٠ م يشرف عليها نشز مرتفع على قمته حصن من العصور المتوسطة، في داخله وعلى مقربة منه آبار وصهاريج عميقة منقورة في الصخر عجيبة الصنع. ولهذا الحصن خندق منقور في الصخر، وفي الواجهة الشمالية للمداميك السفلى مجموعتان من النقوش العجيبة جداً منها لوحة تصور شخصاً قاعداً وأمامه شخص آخر جاثياً. وثمة على اليسار خمسة أشخاص واقفين، إلا أن كل هذه الرسوم مشوهة للغاية، وفي شمالي الحصن كنيسة قديمة حسنة البناء باسم القديس نهرا، يزورها مرضى العيون للاستشفاء.

وبعد ادة يترك طريق طرابلس إلى يمينه طريقاً فرعياً يصعد إلى ميفوق، ويترك طريقاً آخر يصعد خلال ٣٥ كم إلى دوما، ماراً في الكم ٨ بكفر هايا، وفي الكم ١١ ببكسمايا، ثم بجبلة ثم ببستان العاصي، وفي الكم ٢٥ بكفر خلده حيث يلتقي بطريق أميون ـ دوما.

في الكم ٦٢ البترون. ـ بليدة جميلة ساحلية وهي قاعدة قضاء البترون، سكانها ٤٠٠٠ أكثرهم موارنة وبعضهم أرثوذكس وبينهم عدد ضئيل من المسلمين، مركز قضاء البترون، وفيها محكمة بداية وفصيلة درك، ومكتب برق وبريد وهاتف، ومدارس ابتدائية. وليس في البترون ولا في القرى المحيطة بها ماء نبع. بل يشرب أهلها من الآبار المحفورة حول البيوت والأحياء. وأهلها كانوا يغوصون على الإسفنج ويتاجرون بما يستخرجونه منه ومن الملاحة، وصادراتها الحرير والزيت.

(التاريخ): وكان اسمها في العهد اليوناني الروماني بتريس. وفي رواية يوسيفوس أن مؤسسها الأول هو أثيو بعل ملك صور في عصر النبي إيليا في القرن ١٠ ق.م. على حين أنها أقدم من ذلك بكثير. لأنها قد ذكرت في رقم تل العمارنة إنها من توابع ملك بيبلوس. ولما استولى عليها انطيوخس الكبير لم تكن سوى ملتقى قرصان البحر، وفي العصور المتوسطة سميت بالبترون وجعلت إحدى المدن الأسقفية التابعة لكونتية طرابلس. وكان لكروم البترون شهرة ذائعة في عهد الصليبيين. وتفاصيل تاريخها مشتركة مع جبيل وبيروت وطرابلس، والمظنون أنها خربت بإحدى الزلازل التي تواترت في هذه البلاد الفينيقية.

يزار في شمالي البترون انقاض مدرج روماني لم يبق منه - يا للأسف - سوى قسم قليل. فالأدراج منقورة في الصخر وعلوها نحو ١٢م، وعددها ١١، على شكل نصف دائرة قطرها ٤٠م. أما جدران المسرح فلم يبق منها إلا الأسس المنقورة أيضاً في الصخر، يمتد فوق هذه قطع صغيرة من الكورنيش المنقوش على طراز كورنيشات هياكل بعلبك. وفي شمال الطريق عدة مغاور مقبرية وجدوا فيها أحجاراً صوانية منحوتة من عهود ما قبل التاريخ.

وكان الذاهبون إلى طرابلس قبل سنة ١٣٣٠ هـ التي شق فيها طريق رأس الشقعة يخرجون من البترون بعد استئجار الرواحل، فيسيرون نحو الشمال ويمرون من شرقي قرية كبة وهي من أرباض البترون يجتازون نهر الجوز ويدخلون مضيقاً فيه عقبة كأداء اسمها (عقبة المسيلحة) أو (المسلحة). وهذا وبعد نحو ٣ كم من البترون صخرة عظيمة منفردة منقورة نقراً عمودياً من كل جهاتها بحيث لا يمكن الصعود إليها إلا مشياً، وهذه الصخرة تؤلف مقعداً لحصن صغير تعمدوا بناء جدرانه على شكل غير قياسي كي تتعذر الإحاطة به،.. حتى صار يستحيل بلوغه، وقد كانوا بنوا هذا الحصن في هذا المكان الاستراتيجي لحراسة المرور والعبور في هذا الممر الوحيد بين طرابلس وبيروت، وذلك قبل شق طريق رأس الشقعة. ولا يزال هذا البناء الحربي الهائل سالماً في الجملة حتى مستوى شرفات الجدران المضرسة التي كانت في أعلاه ثم اندثرت. وهو من بناء العصور المتوسطة، ولا يعلم إن كان من صنع العرب أو الإفرنج. واسمه (المسيلحة) تصغير المسلحة، ويشبه في تفاصيله وطرازه

الحصون العربية كقلاع مصياف وشيزر أكثر من مشابهته لحصون الإفرنج، حتى أن المصادر الصليبية لا تذكر كلمة عنه قط. ولعله من القرن ١٨، وكل الترميمات التي جرت فيه لم تبدل في شكله الماضي ولا في مرتسمه الأصلي.

في الكم ٦٤ يعبر جسراً صغيراً فوق نهر الجوز وهو نهر صغير يخرج من مغارة فوق قرية كفر خلدا على مقربة من المسيلحة وسمي كذلك لأنه يجري في واد يكثر شجر الجوز على ضفتيه. وفي جنوبي قلعة المسيلحة تذهب منه قناة إلى البترون فتسقي الأراضي المحيطة بها، ـ في الكم ٦٥ كبة، قرية صغيرة، سكانها ٢٠٠، روم أرثوذكس، مبنية دورها بعضها فوق بعض في سفح هضبة. وفي شرقي هذه القرية فوق تلعة حمامات.

وبقرب هذه القلعة قتل أمير غزير العساني محمد بن منصور سنة ١٥٩٠. ثم يدخلون وادياً منفرجاً على جانبيه تلال عالية منحدرة وموعرة جداً. وبعد سير نحو ساعة يصلون إلى سفح عقبة المسيلحة الكأداء وهذا الوادي بعرض نحو كيلو متر، وهو خصب التربة مزروع وتجري فيه عدة جداول صغيرة، وفي وسط هذا الوادي كنيسة مهجورة باسم المخلص من عهد الصليبيين، فيها مغاور مقبرية منقورة في الصخر، وتحتها كنيسة حديثة باسم مار يعقوب، لكن جدرانها قديمة من عهد الصليبيين أيضاً.

بعد قبة جدار صخري عظيم فيه كثير من الكهوف الأثرية من عصور ما قبل التاريخ، ومغاور مقبرية. وبعد نحو ١.٢ كم، فوق الصخور الممتدة على الشاطئ أطلال برج ناظور قديم اسمه (برج الشعلة) كان يستعمل للإشارات بالنار. ـ في الكم ٦٦، فيبلغ جبل رأس الشقعة. وهو خرشوم عظيم يقف جداره فوق البحر وقفة عمودية شاهقة. وهو قائم بنفسه منقطع عن بقية لبنان يلفت إليه الأنظار من بعيد لهيئته الغريبة ووعوثة مرقاه، ووفرة الأنجم والأشجار الصغيرة الخضراء المتعلقة بأذياله ومنها الآس والبلان والخرنوب وغيرها. وفي هضبته عدة قرى عامرة أكبرها حامات، سكانها ٦٠٠ روم أرثوذكس، وهو حافل بالأديرة ومنها دير سيدة النورية ودير مار الياس ودير حنوش وغيرها، وأكثر هذه الأديرة شيدت فوق أبنية اقدم عهداً منها. وينتهي هذا الخرشوم عند البحر بجدار شاهق يعلو نحو ٣٠٠ متر. وكان القدماء

يسمونه وجه الإله ودعاه الإدريسي أنف الحجر، ويدعى الآن الشقعة ويظهر أن الزلازل غيرت كثيراً من هيئته، وقد افتتح فيه في سنة ١٩٣٩ نفق واسع مستقيم على مقربة من النفقين اللذين فتحا حول سنة ١٣٣٠ يزيد الاطمئنان في اجتيازه. ولدير النورية منظر جميل لعلوه ووقوع البحر تحته، ويكثر هناك صيد السمك الطيب، وقد تأتي ذاك المكان من البحر أنواع كبيرة من حيتان البحر المتوسط. ويذكر أنه في سنة ٥٥٧ انقطع جزء كبير من الرأس المذكور فوقع في البحر فتكون به مرفأ لم يكن هناك من قبل. وقد شق من عهد قريب منكب هذا الجبل وجعل فيه نفق واسع مستقيم، بعد أن كان يسير في منعرجات عديدة، وثمة على اليمين في الكم ٦٨ طريق معبد فتح خلال الحرب العالمية الأخيرة قد شق في الجبل وهو يصعد نحو قرية حامات ذات الكروم والمناظر الجميلة، ثم ينحدر من شرقها في شقوق وأخاديد عريقة فتحت حديثاً وسط جبل ترابي إلى أن ينحدر في منحدرات ومنعرجات عديدة ذات تربة ناعمة كلسية بيضاء ولا يزال حتى يبلغ الهري، وطول هذا الطريق نحو ١٠ كيلو مترات وهو من حسنات الحرب الأخيرة. كما أن السكة الحديدية المحاذية لهذا الطريق من حسناتها أيضاً.

في الكم ٦٨ طريق متوسط الحال يصعد الجبل المذكور إلى قرية حامات، وفيها على بعد ١.٥ كم كنيسة مار الياس، مبنية على شفا المنحدر الجنوبي للهضبة، وفيها منظر غاية في الروعة. وكان طريق طرابلس يبلغ في الكم ٧٠ نقطة علوها نحو ٨٠. وينحرف نحو الشرق ويمر من تحت نفقين صغيرين ويشرع بالهبوط من منحدرات سريعة كلسية، يطل فيها على منظر جميل نحو طرابلس ويدخل في قضاء الكورة وغيره.

في الكم ٧٤ هري، ضيعة، سكانها مسلمون، مبنية على رابية صغيرة فوق الطريق، ومن ثم يدخل الطريق في سهل فسيح محاذٍ للبحر وقد ذكر بلينوس هذه الضيعة. في الكم ٧٦ يعبر نهر العصفور . في الكم ٧٩ شكا الجديدة، قرية ساحلية جميلة، سكانها ٨٠٠ أكثرهم موارنة، وقد كانت من مراكز الفينيقيين، إلا أنه لم يبق لهم أي أثر سوى صخور منقورة في الساحل، وثمة طريق على اليمين يصعد إلى أميون (١٠ كم) وطرابلس (٢٥كم).

في الكم ٨١ أنفة قرية ساحلية جميلة، سكانها نحو ٩٠٠، روم أرثوذكس، مبنية وراء جنوبي قلعة صخرية، وهي من عهد الصليبيين، كانت تؤلف إحدى الإقطاعات الكبرى لكونتية طرابلس، وكان لكبرائها نفوذ عظيم إلى أن نزحوا إلى قبرص في القرن ١٤.

وفي أنفة برزخ يصل بين شبه جزيرتها وساحلها وهو مقطوع بخندقين منقورين في الصخر من عمل الصليبيين، الكبير منها (ذرعه (١٠٠×٣٠) يجتاز كل الصخور في مستوى البحر. وفي المدخل الشمالي للخندق الشرقي بقايا مبانٍ ذات أحجار ضخمة، ولم يبق اليوم من حصن الصليبيين سوى بضعة جدران. وبين الخنادق والقرية يظهر في الرأس الممتد نحو البحر وعلى واجهته عدة آثار صناعية منقورة في الصخر، كالكهوف والقبور وأحواض السمك وأحجار عديدة. وفي القرية نفسها بضعة آثار. كهوف منقورة في الصخر وأربع كنائس بعضها بيزنطية وبعضها صليبية، والأخيرة ما برحت مستعملة.

في الكم ٨٥ على يسار الطريق، وفوق خرشوم داخل في البحر قام دير للروم يدعى سيدة دير الناطور. وعلى يمين الطريق نحو الشرق فوق رابية مشرفة على الطريق من علو شاهق يظهر دير كبير اسمه دير البلمند . في الكم ٨٧ مكان اسمه الحريشة فيه مجاز يصعد في عقبة كأداء خلال ساعة إلى هذا الدير المذكور.

في الكم ٨٨ القلمون . قرية صغيرة، سكانها ٦٠٠، مسلمون، مبنية دورها وسط بقعة خضرة نضرة من بساتين النارنج والرمان وكروم الزيتون والتين. وحرفة أهلها العمل في بساتين طرابلس. مسقط رأس السيد رشيد رضا صاحب المنار.

في الكم، ٨٩.٢ إلى الشرق وعلى بعد مسير ثلث ساعة في منحدرات صخرية، يوصل إلى مغارة (مارينا) التي تظهر عن بعد من لونها البرتقالي وسط الصخور القاتمة. هذه المغارة معبد صخري، في جدارها الجنوبي صور من عهدين متواليين، أقدمها من الطراز البيزنطي، ومعها كتابات يونانية، تمثل الست مارينا. وتمثل الملاك جبرائيل يبشر مريم بحملها بالمسيح، وتمثل قديساً راكباً حصاناً.. الخ، وتزعم الروايات المحلية أن هذه العذراء التي ولدت في قلمون كانت تتزيا بزي الرهبان الرجال وتقيم في دير قنوبين المبني في أعالي وادي قاديشا. ولما صارت من

النساك الحبساء أرضعت طفلاً ضائعاً فأنقذته من الموت. ولهذا صارت الأمهات اللواتي درهن ضعيف يفدن زرافات إلى المغارة التي ماتت فيها القديسة من دير قنوبين ويزرنها.

وبعد قلمون يظل الطريق في محاذاة الساحل، يمر من سفح جبال الكورة التي يظهر على شفاها قرية اسمها (ددة) ثم يمر من قرب عين ماء باسم (ابو حلقة) أمامها وسط البحر وعلى بعد بضعة أمتار ينبوع ماء حلو يفور من تحت الماء المالح. وثمة على اليمين طريق يصعد إلى ددة وإلى فيع وإلى قلعات ودير البلمند (وبعده عن طرابلس ١٨ كم).

ثم يبدأ حلقة يجتاز سهلاً رملياً فسيحاً يرى سهل الجصاص يمتد على طول الشاطىء الغربي الآخذ نحو ميناء طرابلس، وفي الكم ٩٥ يترك على اليمين الطريق الصاعد إلى الأرز، الذي يمر بأميون . وفي الكم ٩٧ بعد اجتياز كروم زيتون وسفح جبل أبو سمرة يبلغ طرابلس، ويدخلها من بين مقبرة باب الرمل.

من بيروت إلى حمص (عن بعلبك)

في السكة الحديدية ١٩٣كم، ينتقل المسافرون في رياق من الخط الضيق إلى العريض، أول المحطات في هذه السكة الحديثة كم ٦,٣ (العلو ٨١) ـ بعبدا ٨,٩ (العلو ٨١) ـ الجمهور ١١,٩ (العلو ٣٨٠) ـ عاريا ١٦ (العلو ٥٥٦) ـ عالية ٢٠,٣ (العلو ٨٢٠) ـ بحمدون ٢٦,٤ (العلو ١٠٧٣) ـ صوفر ٣٠,٥ (العلو ١٢٨٠) ـ نفق المديرح طوله ٢٨٠م. ظهر البيدر ٣٧,٦٠ علوه ١,٤٨٧ وهو في الذروة العليا من هذا الخط ـ المريجات ٤٣ (العلو ١١٩٨) ـ جديدة شتورا ٤٦,٧ (العلو ١٠٠٥) ـ سعد نائل ٥١,٨٠ (العلو ٩١٤) ـ مقلعة زحلة ٥٥,٩٠ (العلو ٩٢٠) ومن هذه المحطة يجتاز القطار سهل البقاع سائراً نحو الشرق ـ رياق ٥٦,١ (العلو ٩٢٩) وهنا يترك خط دمشق وينتقل إلى قطار حلب ـ طالية ٧٨ بعلبك ٩١,٦ (العلو ١١٢٠) ـ محنة ١٠٦,١ ـ لبوة ١٢٢ (العلو ٨٥٦) رأس بعلبك ١٣٧ (العلو ٨٠٧) ـ القاع ١٥٢ ـ القصير ١٦٦,٩ (العلو ٥٤٤) ـ قطينة ١٨٠ (العلو ٥١٩) حمص ١٩٥ (العلو ٥٠٦).

طريق السيارات: ٢٠٢ كم التخطيط القديم في ١٩١ كم التخطيط الحديث وهي جيدة حتى بعلبك، أما ما بعدها فما برح قيد الإصلاح.

من بيروت إلى شتورا ٥١ كم. تقدم وصفه وفي شتورا يترك على اليمين طريق دمشق الكبير المتجه نحو الجنوب الشرقي، ويأخذ على اليسار طريقاً يتجه نحو الشمال الشرقي ويحاذي سفوح لبنان.

في الكم ٥٤,٥ إلى اليمين فرع طوله ٣ كم يلاقي طريق دمشق عند تعنايل ماراً بثعلبايا. وثمة بعد المفرق قرية سعد نايل وفيها محطة قطار. في الكم ٥٦ يترك على اليسار فرعاً يؤدي بعد ٠,٨ كم إلى كسارا وفيها مرصد جوي للآباء اليسوعيين، ومعمل وأقبية عظيمة لصنع الخمور وحول مبانيهم كروم عنب من الأصناف الإفرنجية الصالحة للعصر، ويستمر الطريق موازياً السكة الحديدية من يسارها. في الكم ٥٨,٥ المعلقة، وفيها محطة قطار، ومنها طريق يصعد بعد ١ كم إلى بلدة زحلة.. ومن بعد محطة المعلقة تنحرف السكة الحديدية نحو الشرق متجهة إلى رياق.

في الكم ٦٠ كرك نوح، قرية، سكانها ٤٠٠ أكثرهم روم كاثوليك وبعضهم مسلمون شيعة. وفي وسط القرية مسجد قديم فيه ضريح كبير طوله نحو ٤٠ ذراعاً يزعمون أنه قبر النبي نوح، والحقيقة أنه قسم من قناة قديمة. وكان في هذه القرية حصن روماني رممه الملك الظاهر بيبرس. منقور في الصخر يزوره الشيعة. والكرك لفظة سريانية بمعنى حصن أو معقل. وكانت كرك نوح قاعدة هذه الديار وأشبه بمدينة إلى سنة ١٨٤١/١٢٥٧ التي تملك فيها الأمير بشير الشهابي أرض المعلقة وبنى فيها الشونة (السراي) فعمرت المعلقة وخربت الكرك حتى أصبحت قرية صغيرة تتصل أبنيتها بالمعلقة.

وهي بليدة متصلة بزحلة، سكانها ٤٠٠٠، جعلت في سنة ١٨٦٨ مركز قضاء البقاع واتبعت بدمشق، وظلت إلى سنة ١٩٢٠ حينما انسلخت الأقضية الأربعة عن دمشق وألحقت بما سموه لبنان الكبير.

بعد كرك نوح يترك على اليسار طريقاً (١,٥ كم) إلى قرية الفرزل، سكانها ١٥٠٠ روم كاثوليك، علوها ١١٠٠ وهي في المنقلب الشرقي من سفح لبنان جيدة الماء والهواء، ذكرها ياقوت في معجمه وقال إن فيها الزبيب الجوزاني ويعمل بها الملبن

المسمى بجلد الفرس. فهي قديمة جداً، عرفها الرومان وكانت مركز أسقفية منذ القرن الخامس للميلاد وجاءها الصليبيون فخربها الملك الظاهر لمنع رجوعهم إليها، ثم عمرت بعده بتدفق الأسر الحورانية النصرانية إلى سهول بعلبك والبقاع، ثم خربها الحرافشة فظلت صغيرة على ما هي اليوم، وفيها إلى الغرب الشمالي واد رطب يمكن الوصول إليه مشياً، فيه صخور هائلة ومغاور عديدة تدعى (مغر الحبيس) بعضها فوق بعض. كلها منقورة في الصخر بشكل القلنسوة وداخلها لا يزال مطلياً بالكلس وعليه نقوش حمراء جميلة. وفي جل هذه المغاور صهاريج ماء منقورة. وفي سند الجبل الذي على العدوة اليمنى للوادي باحة واسعة مربعة منقورة نقراً غاية في الاتساق، وفيها مدرج ذو أربعة أدراج يفضي إلى بهو داخلي منقور أيضاً في الصخر الصلد يدخل إليه من باب واسع. ولعل هذا البهو هيكل صخري من العصور الفينيقية القديمة، أو هو معبد لبعل وعشتروت اللذين عبادتهما منتشرة في هذه الديار. وفي فرزل أيضاً بعد اجتياز الوادي المذكور يتسلق الجبل من شرقيه من شعب كئود فيصل بعد ١٠ دقائق إلى نصب غريب الشكل من النقش البارز نحت في قعر كوة على أحد جدران الصخور. ويتألف هذا النصب من شخص ممتطٍ جواداً، ولابس ثوباً طويلاً مستوراً على جسمه، وعلى ظهره معطف يتموج وراءه قد ربط في كل من منكبيه بعلاقة، ورأسه قد أحيط بهالة مشعة، وهو قابض بيده اليمنى على لجام، وبيده اليسرى يقطف ثمرة من شجرة أمامه. وإزاءه في الطرف الثاني من الشجرة صبي يمسك بيده اليمنى عنقود عنب ضخم أما رأسه فمشوه بالمرة.

في الكم ٦٤.٥ يفرق طريق (٤ كم) يفضي إلى رياق، وفيها مفرق ذو شأن كبير للسكك الحديدية القادمة من بيروت ودمشق وحلب. وهذا المفرق جعل لرياق شأناً استراتيجياً هاماً أوجب اتخاذها مركزاً عسكرياً كبيراً عندما بدأت الحرب العالمية في سنة ١٣٣٠/١٩١٤، وفيها الآن محطة طيران عظيمة، وقديماً لم يكن لرياق شأن يذكر إلى أن مدت منها السكة الحديدية إلى حلب في سنة ١٣٢٤هـ، فالتف حولها السكان وتضخمت وما برحت تتضخم وتكثر دورها وحوانيتها حول المباني والمستودعات العسكرية العديدة.

في الكم ٦٥,٣ ابلح، قرية، سكانها ٨٠٠ روم كاثوليك، على يسارها وبعد ١ كم ضيعة مسلمة اسمها النبي الياس حولها كروم عنب جميلة وفيها مسجد صغير ذو قبة باسم النبي المذكور. وفيها آثار وعاديات كثيرة هامة، منها هيكلان الأول في حضيض الأكمة. في الكم ٦٧ على اليسار بعد ١.٦٠ كم طريق إلى نيحا قرية نصرانية فيها التوت والكرم، تقع وراء الأكمة المذكورة وهو روماني مكرس على ما يظهر من كتابة عثر عليها في أطلال أخرى في هذه القرية. إلى الإله هادرنيك السرياني الذي كانت تخدمه العذارى النادمات، وعليه كتابة معناها أن عذراء كرست ذاتها لهذا الإله. وعملت بأمره أن لا تأكل خبزاً مدة عشرين سنة.

عثرت بعثة ألمانية في كنيسة نيحا. على تمثال لجوستر البعلبكي وأرسلته إلى متحف استانبول. وعلى جدران البيوت وفي التصوينات نقوش بارزة وعاديات كثيرة ذات فائدة. ومن نيحا يصعد ماشياً خلال ساعة وربع إلى وادي ضرار نيحا، وفيه الهيكل التالي المسمى قلعة الحصن أو حصن نيحا، علوه ١٣٤٤م، وهو هيكل كان ذا مدخل مزين بأعمدة، ومن الطراز الكورنثي. يتجه إلى الشرق، وقد بني فوق مداميك ترتفع نحو ٣.٥م وطوله ٢٨م بعرض ١٢، وأرضه مرصعة بالفسيفساء وفيه نقوش بديعة ورسوم كثيرة ويشبه لطرازه وشكل بنائه هيكل المشتري في بعلبك ويعود زمنه إلى القرن الأول للميلاد. وقد عثر المنقبون هنا أيضاً على أنقاض كنيسة بيزنطية وقرية ومقبرة صخرية. وكانت نيحا من أول قرى قضاء البقاع.

في الكم ٦٨.٥ على يمين الطريق يلحظ قرية تمنين التحتا، مسلمة، علوها ٩٦٣، وعلى يسار الطريق على بعد ١.٧٠ كم قرية تمنين الفوقا، علوها ١١٠٠، بقربها أطلال باسم حصن نبنوش، وعدة غرف مقبرية. من تمنين الفوقا مجاز يفضي في ٣٠ دقيقة إلى قرية مسلمة اسمها قصر النبع فيها أطلال هيكل روماني ذو نقوش بديعة نادرة.

في الكم ٧١ يترك على اليسار لحب يفضي إلى قرية بدنايل مبنية في سفح الجبل. في الكم ٧٢ بيت شمعة، قرية شيعية، سكانها ٣٠٠ وفيها مخفر درك على الطريق. والقرية في سفح الجبل في الجهة الغربية.

في الكم ٧٤ بعد أن يترك على اليمين ضيعة اسمها حوش الخانين يجتاز السكة الحديدية ويظل محاذياً إياها من يمينها وعن كثب، ثم يعبر نهر الليطاني. وأكثر هذه الطريق خال من الأشجار والزروع، يتخذ مرعى للمواشي فقط.

واكتشفوا حجراً منقوشاً عليه صورة امرأة يعلو رأسها تاج متقن الصنعة وعلى ذراعيها طفل تقدمه ضحية.

في الكم ٧٩ مخفر درك، وعلى يمين الطريق يلحظ قرية طالية، سكانها ٥٠٠ روم أرثوذكس، قاعدة ناحية، وفيها يترك على اليمين لحب يفضي إلى حور ثعلا، ضيعة في سفح الجبل، وقد أعيد هذا اللحب ومد إلى ثنية عين البنية والنبي شام وقرية معربون ومنها إلى قرية سرغايا ثم الزبداني فدمشق .

في الكم ٨٤ بعد ١ كم إلى اليسار قرية مجدلون، سكانها ٣٠٠ روم كاثوليك مسلمون وشيعة ويلحظ فيها أعمدة أثرية وعتبة باب ذات إطارات ضخمة تدل على أنها بقايا هيكل تحول إلى كنيسة فجامع. ـ في الكم ٨٨ بعد ١ كم إلى اليمين قرية دوريس، سكانها ٤٥٠ أكثرهم موارنة. وعلى يسار الطريق يلحظ قبة صغيرة مدورة وهي بناء مقبري صنعه العرب بأحجار قديمة نزعوها من بعلبك.

في الكم ٩٠ بعلبك، علوها ١١٢٠م.

في الكم ٩٣.٥ يترك على اليسار طريقاً يفضي في الكم ١٠ إلى دير الأحمر وفي الكم ٢٥ إلى عيناتا (ستأتي).

في الكم ٩٧ مخنة، ويستمر الطريق في قطع سهول جرداء مطردة المناظر، تتباعد فيه القرى ويقل السكان، وهكذا إلى أن يبلغ خط تقسيم المياه بين نهري الليطاني والعاصي. ومن ثم كل الينابيع ترفد العاصي. والجدول الذي يحاذي الطريق عن يساره هو أصل العاصي.

في الكم ١١٢ ضيعة رسم الحد، ولا يعرف أي حد عناه واضعو هذا الاسم، وترتوي هذه الضيعة بمياه عين أهلا وهي من ينابيع العاصي الأصلية.

في الكم ١٢٠ اللبوة ـ قرية شيعية، علوها ٨٥٦، فيها أطلال هيكل قديم، بدله فيما بعد العرب إلى حصن. وحدثت في اللبوة سنة ٥٦٦/١١٧٠ معركة بين صليبيي حصن الأكراد والترك السلجوقيين دارت الدائرة فيها على الأولين.

تنطبق كلمة اللبوة على العبرانية التي فسرت في التوراة بمعنى المدخل، أي مكان الدخول إلى أرض الميعاد، ويؤيد هذه النظرية كلمة "رسم الحد" التي مرت. وقد ذكرت اللبوة في الكتب الرومانية حيث ترويها جداول عديدة تنبجس عن بعد ٥ كم في الشرق، وفيها أيضاً نبع كبير في أسفل القرية يعد النبع الأصلي للعاصي. وتزعم الروايات أن زنوبيا ملكة تدمر جرّت قسماً كبيراً من مياه اللبوة إلى تدمر بقناة كبيرة. والواقع أن هناك آثاراً لقناة كبيرة في سفح الجبل ما برحت ماثلة نحو الشمال حتى قرب القصير. وفي شمال الآثار المذكورة نفق أثري يجتاز الطرف الأقصى لسلسلة لبنان الشرقي.

قضاء بعلبك، من أوسع أقضية لبنان مساحة، يحده من الشمال قضاء الهرمل، ومن الشرق قضاء النبك وقسم قليل من الزبداني، ومن الجنوب قضاء زحلة ومن الغرب أقضية كسروان والبترون وزغرتا وقسم قليل من كل من قضائي المتن في الطرف الجنوبي الغربي وقضاء طرابلس في الطرف الشمال.

ومن اللبوة إلى نحلة وبعلبك طريق سيذكر

في الكم ٢١٢ النبي عثمان ضيعة شيعية، فيها مسجد. يترك فيها على اليسار لحباً جبلياً فتح حديثاً يشق سلسلة لبنان الشرقي (جبل قلمون) طوله نحو ٥٠ كم ويفضي إلى النبك ماراً بعرسال وخربة يونين وثنية قرنة مريق وفليطا والسحل إلى أن يلاقي دمشق. حمص قبل بلوغه النبك.

في الكم ١٢٤ العين، قرية، سكانها ٦٠٠ أكثرهم مسلمون شيعة وبعضهم روم كاثوليك، فيها عدة عيون وجداول، وبضعة آثار غير ذات شأن.

في الكم ١٢٨ الجديدة، يعبر جدولاً. على بعد ٢.٥ كم وبعد قطع مجاز صخري كئود قرية، (الفاكهة) تقع في بطن مضيق، سكانها ٨٠٠ ثلثاهم روم كاثوليك وثلثهم مسلمون سنية، وهي قرية نزهة، فيها كنيسة ومدرسة ومسجد وتصنع فيها البسط.

في الكم ١٣١ على يمين الطريق (٤ كم) يأخذ إلى قرية رأس بعلبك وهي كبيرة علوها ٨٠٧، سكانها ٢٠٠٠ كلهم روم كاثوليك وفيها كنيسة ومدرسة ودير باسم سيدة الرأس مبني فوق أطلال أثرية.

ربما كانت رأس بعلبك المذكورة في تواريخ الأقدمين أو المذكورة في محاضر المجمع الخلكيدوني، ويلحظ فيها أطلال كنيستين، إحداهما وسط القرية مبنية من مواد منتزعة من بناء روماني. والثانية خارج القلعة إلى غربها وهي كنيسة بيزنطية تشغل داخل هيكل من العهد الروماني. ويلحظ أيضاً بقايا قناطر ماء وقد كانت رأس بعلبك فيما مضى أكبر من الآن بكثير. إلا أن أكثر سكانها هاجروا إلى زحلة تباعاً خلال العصور الأخيرة من توالي الفتن الداخلية. وعلى يسار الطريق يترك عدة طواحين يعلو بعضها فوق بعض بين الأشجار والظلال.

في الكم ١٣٦ يجتاز الطريق السكة الحديدية، وعلى اليمين محطة رأس بعلبك. وفي قربها ينفصل طريق الهرمل من رأس بعلبك إلى الهرمل. ـ ١٦ كم طريق معبدة، في بدء الطريق فرع لهذا الطريق بالكاد يظهر يفضي بعد ٢ كم إلى عين الزرقاء المنبع الأصلي لنهر العاصي، وهي عين كبيرة تظللها أشجار دلب عظيمة.

تنبجس مياهها بشدة وتندفع لتأخذ في طريقها روافد كثيرة ترد من منحدرات لبنان الغربي والشرقي وأخصها ما يرد من نبع اللبوة الذي تقدم ذكره. وإذا ترك الزائر سيارته على شفا الهضبة يهبط إلى بطن الوادي الذي يجري فيه العاصي خلال ٢٠ دقيقة من السير ثم في الكم ١٠ على اليمين مرتفع يتحلى الناظر منه بمشهد غاية في الامتداد نحو المنحدرات السفلية للبنانين الغربي والشرقي، وفي الجو الصافي يمكن أن يستشف منه قلعة حمص. وفوق هذا المرتفع مبني أهرام يدعى قاموع الهرمل أو قائم الهرمل قد ركب فوق قاعدة منفردة ذات ثلاثة أدراج من الحجر البازلتي الأسود. وهو مؤلف من مكعبين متراكبين، يؤلفان نوعاً ما طابقين، الأول منها يحمل كورنيشاً مزخرفاً والثاني يحمل هرماً (وفي أعلى الطابق الأسفل يلحظ وجود نقوش زخرفية تمثل مشاهد صيد. والواجهة الشرقية مزينة برسم خنزير بري كبير مطعون بثلاثة رماح وقد لحق به كلبان ضخمان. وفوق الكلبين يرى أسطوانة محاطة بجبل أو بمجموعة من الأقراص. وهذه الرسوم يعلوها إطار في داخله كتابة من البرونز قد محيت. وفي الواجهة الشمالية غزالان يقابل أحدهما الآخر قائمان على هضبة وتحتهما رمحان متصالبان. كأن في رأسيهما شبكة. وتحت كل من الغزالين قد وضعت أسطوانة. والواجهة الغربية مزينة بثور كبير يهاجمه ذئبان أو دبان

ووراءهما تظهر رماح أو حبال. وفي الجهة الجنوبية التي تكاد تكون خراباً بالمرة لا يلحظ الناظر إلا جثة حيوان، لاشك أنه غزال، وبضعة أدوات. وفي الطابق الأعلى المزين من كل جهة بأربع دعائم قام هرم مربع علوه أربعة أمتار وجوف هذا الهرم مملوء وهذا البناء يحمل على الظن بأنه شامي الصنعة بحت، بني خلال القرن الأول والثاني قبل الميلاد، وأنه كان يحوي ضريح أمير حاكم هذه الأنحاء. وفي الواقع أن طراز هذا البناء لا ينطبق على الطراز اليوناني الروماني المعروف في بلاد الشام.

في الكم ١١ يعبر العاصي من بطن واد سحيق . في الكم ١٦ الهرمل. قرية كبيرة وهي مركز قضاء الهرمل، سكانها ٧٠٠٠ شيعة، قامت فوق ثلاث آكام متفرقة بعضها عن بعض بالحدائق، من الأعضاء الأولى للبنان الغربي. وهي أكبر قرى الشيعة في هذه الأنحاء وفيها أسرة كبيرة ذات وجاهة يدعون آل حمادة، من أكبر الأسر الشيعية وأعرقها. أصلهم من إيران ولما جاؤوا قطنوا في قضاء الكورة في لبنان وطغوا إلى أن أوقع بهم الأمير يوسف الشهابي سنة ١٧١٤ فانتقلوا إلى الهرمل. (وإن قضاء الهرمل يحده من الشمال قضاء حمص ومن الشرق قضاء النبك ومن الجنوب قضاء بعلبك ومن الغرب قضاء طرابلس وزغرتا.

وقد وجدوا في الهرمل أطلالاً أثرية تدل على مكانتها السالفة في العصور القديمة، منها مذبح كان مخصصاً لجوبيتر البعلبكي حفظ الآن في دار الآثار في بيروت.

ومن الهرمل يمكن الانتقال مشياً خلال ساعة إلى عين الزرقاء ويعدها البعض النبع الأصلي لنهر العاصي. وهي عين كبيرة تظللها أشجار دلب عظيمة طاعنة في السن تنبجس مياهها بشدة وتندفع لتأخذ في طريقها روافد كثيرة أخصها نبع اللبوة.

وعلى بعد ٥٠٠م من رأس العين المذكورة وعلى يمين مسيلها المنحدر صخرة عمودية واقفة كالجدار إلى علو نحو ٩٠ م قد نقر فيها مغارة اصطناعية ذات ثلاث طبقات، تعرف باسم مغارة الراهب أو دير مار مارون. نقر فيها في الصخر الصلد بضعة مذابح ودرج وحجرات صغيرة. ويزعمون أن مار مارون أبا الطائفة المارونية اعتزل وأقام في هذا الدير. بينما الصحيح أن المذكور أقام في ديره الذي كان في شمالي حماه على العاصي. وفي جدران هذا الدير مرام تدل على أن العرب بدلوا هذا

الدير حصناً . هذا ومن الهرمل يمكن سلوك لحب صالح (٣٨ كم) يفضي إلى قطينة على بحيرة حمص ماراً بالقصير ١٣ كم وزيتا ١٦ كم وعرجون ٢٣كم. ومن الهرمل يمكن أيضاً أن ينفصل عن اللحب المذكور آنفاً في زيتا ويركب راحلة ويجتاز سفوح جبل أكروم ماراً بهيت (١٣ كم فيصل عقربية (١٨ كم) وحماقيات الشرقية (٢٤ كم) أو وادي خالد إلى المحطة التي على السكة الحديدية، ومنها إلى قرية حديدة التي على الطريق المعبدة بين حمص وطرابلس .

ـ في الكم ١٤٣ القاع، قرية، سكانها ١٠٠٠ أرثوذكس، علوها ٦٢٣ وفيها حصن ما برح سالماً في الجملة..

في الكم ١٥٣ الحدود بين جمهورتي لبنان وسورية، ومن ثم تبعد السكة الحديدية عن طريق السيارات، وتنعرج نحو اليمين في سفوح سلسلة لبنان الشرقي.

وثمة في شرقي السكة الحديدية أطلال بليدة قديمة تدعى جوسية الخراب.

قال القلقشندي في صبح الأعشى عن نهر العاصي. نهر حماة ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقي الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل تركب البلاد بنفسها، ونهر حماه لا يسقي إلا بنواعير تنزع الماء منه ويسمى النهر المقلوب لجريانه من الجنوب إلى الشمال. وغالب الأنهر إنما تجري من الشمال إلى الجنوب، واسمه القديم نهر الأرنط، وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك في الشمال عنها على نحو مرحلة (٤١ كم) وتسمى الرأس، ويمتد من الرأس شمالاً حتى يصل إلى مكان يسمى قائم الهرمل بين قرية جوسيه والرأس، ويمر في وادٍ هناك وينبع من هناك أكثر ماء النهر من موضع يسمى مغارة الراهب، ويمتد شمالاً حتى يتجاوز جوسية، ويمتد حتى يصب في بحيرة قدس غربي حمص، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حمص إلى الرستن ويمتد إلى حماة ثم شيزر ثم إلى بحيرة أفاميا، ثم يخرج منها ويمر على دركوش ويمتد إلى جسر الحديد وذلك جميعه شرقي جبل اللكام (كذا، وصحيحه أن يقول جبل لبنان وجبل النصيرية وجبل القصير) فإذا وصل إلى جسر الحديد انقطع الجبل المذكور هناك، ويستدير النهر المذكور ويعود ويسير جنوباً بغرب ويمر على سور أنطاكية ويسير كذلك مغرباً بجنوب حتى يصب في بحر الروم عند السويدية. وقد قدمنا ذكر هذه الأماكن في (الجولة الأثرية)، فأنت ترى أن القلقشندي يعتبر نبع العاصي

الأصلي من الرأس، وصوابه أن يقول من اللبوة على نحو ٣٠ كم عن بعلبك إلى الشمال ، ويعتبر أن عين الزرقاء ترفده رفداً كما ترفد عين الفيجة نهر بردى وتؤلف أكثر مائه، وطول العاصي من منبعه إلى مصبه ٤٥٠كم. وقد درست إدارة هذا النهر فوجدت أن تفريغه الأدنى في سنة ١٩٣١ بلغ ١٠م وفي ٩٣٢ ٨,٥ م أما في قرقور حيث تنضم إليه ينابيع كثيرة من سلسلتي الجبال المجاورة فقد بلغ ١٩٣١ /١٩/م وفي ١٩٣٢ /١٨/م، أما في أنطاكية بعد انضمام عفرين والنهر الأسود إليه فإن تفريغه الأدنى بلغ ٣٠م في السنتين المذكورتين. ولو استخدمت الطرق الفنية في استثمار مياهه فإنها يمكن أن تروي مساحات أوسع مما يرويها الآن.

في الكم ١٥٦ على اليمين قرية جوسية العمار كان فيها جامع قديم له مئذنة خربوها من عهد قريب للأسف وبنوا بأحجارها جسراً على نهر الحاروث، في قربها عين تنبجس كان ماؤها فيما مضى يمر إلى حمص ويرويها، ولا تزال قناة هذا الماء المحفورة تحت الأرض، وهي جسيمة وطويلة، ظاهرة للعيان، كانت حتى في القرن السادس كما ذكر الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق" تصل إلى حمص، قطعت في زمن مجهول وأديرت على قرية القصير وأرضها فعمرت بها هذه القرية. وحرمت حمص. ولا تزال القساطل الفخارية الحمراء التي كانت توزع ماء هذه القناة ظاهرة في أماكن عديدة في أكثر أنحاء حمص، كما أن خزانها الذي كانت تصب فيه الماء كما كانت في الماضي، أحجموا لما رأوا أنها تجر بعيدة عنه. وعلى ماء هذه القناة في القصر حشد إبراهيم باشا المصري جيوشه قبل أن يهاجم حمص سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢ ويظفر بمعركتها. ويستولي بعد ذلك على شمالي الشام كله. ثم أنه في شمالي جوسية بقليل وعلى اليمين وبين كروم التوت عين الزراعة، كانت مياهها تمر أيضاً إلى حمص كماء جوسية. وثمة شرقي الخط الحديدي وحول العين المذكورة قرية الزراعة، اشتهرت بالمعركة التي حدثت بين الجيشين العثماني والمصري في ذي القعدة سنة ١٢٤٧ والتي حدثت بين الجند الإفرنسي والثوار الشاميين في سنة ١٣٤٤. ويضع الأثري دوسوبين عين جوسية والزراعة مدينة وثلاث جنان هي التي اجتمع فيها كبار قواد الاسكندر بعد موته وأتمروا على تقسيم مملكته المترامية الأطراف بينهم.

في الكم ١٥٧، ربلة، قرية، سكانها ٥٠٠ روم كاثوليك. كان في غربيها وعلى العاصي ربلة القديمة المذكورة في العهد القديم (سفر الملوك ٢٢ ـ ٢٥)، كانت ذات شأن كبير في عهد حزقيال وينشائو وبختنصر، ويظهر أنها كانت قاعدة كورة لائوديسيا التي حولها وأنها كانت هي المدينة المسماة بئوديسية لبنان ظلت عامرة إلى مضي ربع قرن فأخلاها أهلها لوطأة حمى الدواء، وابتعدوا إلى مكان ربلة الحديثة ولم يبق من مبانيها الأثرية سوى بناء مربع الشكل يزعم أهل ربلة أنه كنيسة.

وحول ربلة تنخفض سلسلة لبنان الشرقي ولا تزال حتى تضمحل في السهل، ولبنان الغربي ينتهي في غربي ربلة عند جبل أكروم، وينخفض هو أيضاً عما كان عليه في مرتفعاته حول سهل بعلبك.

في الكم ١٦٢ القصير، فيها محطة قطار، قرية كبيرة، سكانها ٣٠٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم نصارى وهي ذات أزقة مستقيمة ودور قوراء وأفنية فسيحة متباعد بعضها عن بعض ذات جدران عالية، تؤلف النموذج الأول لشكل وتخطيط قرى الشام الشمالية. ذكرها ياقوت في معجمه فقال: ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق. فيظهر أنها كانت في عهد ياقوت صغيرة غير كافية لتكون قصبة هذه الكورة التي كانت في جوسيه، ولم تتوسع إلا بعد أن اغتصت في عهد مجهول ماء قناة حمص. وفي ثورة سنة ١٣٤٤ استولى عليها الثوار الشاميون وقتلوا فيها مهندسين إفرنسيين من عمال إدارة المساحة فنصبت هذه الإدارة عند قبريهما في المحطة حجراً تذكارياً. وفي القصير نهر صغير من روافد العاصي يدعى الحاروث يروى أراضيها المنبسطة. وقد جعلت قاعدة ناحية تحوي قرى وضياعاً كثيرة تمتد إلى سفوح جبال أكروم والهرمل من أعضاد لبنان الشمالي.

وفي غربي القصير على بعد ٥ كم عند زاوية يؤلفها العاصي وأحد روافده اليسرى، تل النبي منر وهو تل صناعي قامت فوقه قرية صغيرة ذات مسجد فيه ضريح هذا النبي المجهول. وقد طبقوا عليه مدينة قادش القديمة التي كانت أحد معاقل الحثيين المخصصة لحراسة تخومهم الجنوبية. حدثت فيها بينهم وبين فراعنة مصر معارك كثيرة أهمها ما أتاه رعمسيس الثاني المعروف باسم سيزوستريس. فقد

جاءهم في سنة ١٢٩٥ ق.م عن طريق الساحل ماراً بنهر الكلب وطرابلس وسهل البقيعة فظفر بهم وأخضعهم ثم سالمهم وصاهر ملكهم. وقد ذكرت تفاصيل هذه المعركة ونقشت على جدران رامسيوم في الأقصر وممونيوم في أبيدوس وأبيسامول وقد نقب الأثري موريس بيزار الإفرنسي تل النبي في سنتي ١٣٤٠ ـ ١٣٤١ فاستخرج آثاراً مصرية عديدة من عهد الفراعنة وغيرهم وهي أوانٍ وأدوات وأسلحة، وأجلها كان نصب من الحجر الحري الأسود نقل إلى دار الآثار الوطنية بدمشق فيه صورة أشخاص ومعبودات منهم الفرعون ستي الأول الذي أقام هذا النصب تخليداً لذكرى انتصاره على موسين ملك الحثيين واستيلائه على قادش سنة ١٣١٥ ق.م، هذا وفي القصير ينحرف طريق حمص المعبد نحو اليمين (الشرق) ويتصل في الكم ١٨٠ عند بشمسين بطريق حمص ـ دمشق الموصوف في كتابنا الجولة الأثرية ص ٣٧٠ وما بعدها، وإذا ظل سائراً نحو شمالي القصير يترك على يمينه قرية ضيعة، وفي الكم ١٧٧ على اليسار قرية كمام وعلى اليمين محطة قطينة.

في الكم ١٨٠ قطينة، قرية مبنية في جنوبي تل ذي شأن أثري لم ينقب بعد، وعلى الضفة الشرقية بحيرة حمص. وصفنا هذه البحيرة في الجولة الأثرية.

وفي قطينة لحب ينفصل نحو اليسار ويذهب إلى الجنوب الغربي ويفضي إلى عرجوم (كم ١٥) وتل النبي في الكم ١٨٧ كفر عايا ـ في الكم ١٨٩ بابا عمرو ـ في الكم ١٩١ حمص.

الطريق من بانياس إلى مرجعيون

بعد الخروج من بانياس (وهي في الكم ٢٤ عن القنيطرة) يصادف في الكم ٢٥ جسراً على وادي الخشبة الذي يتكون من ينابيع بانياس.

في الكم ٢٧ جسر على وادي العسل وهذا أيضاً من روافد نهر الأردن ـ وفي الكم ٢٨.٥ على اليسار، وعلى بعد نحو ٤ كم عن الطريق للخط حرجة من الشجر الكثيف، وفي جانبها تل مستطيل الشكل (تل القاضي) ومكانة هذا الموقع ناشئة من أنه كان يرقب طريق دمشق. ولذلك استولى عليه الصيدونيون قبل مجيء

الإسرائيليين وقد ذكر حديث استيلائهم هذا من أسفار يشوع وأسفار القضاة. ثم أن ستمائة محارب من سبط دان الذين لم تعجبهم القسمة التي أصابتهم من الأرض جاؤوا يجوسون هذه الديار، ويبثون الجواسيس، فعاد هؤلاء وأخبروهم بمستعمرة الصيدونيين الصغيرة. فهجم الدانيون على حين غرة على الصيدونيين قبل أن يستمدوا المعونة من صيدون وذبحوهم عن بكرة أبيهم وبنوا مدينة دعوها باسم أبيهم دان، وكانت دان الحد الشمالي الأقصى لأرض الميعاد. كما كان الحد الجنوبي بئر السبع. ومكانة هذه البلدة جعلتها مطمح أنظار ملوك دمشق الآراميين، فظلوا يرواحونها القتال حتى استولى عليها ابن حدد، وظلت دان في مكانتها إلى أن عمرت بانياس وقلعتها وازدهرت فانحطت دان ومازالت حتى خربت، وظل اسمها، مستعملاً على شكل كلمة (القاضي) وهي تعريب دان.

يقوم تل القاضي فوق طبقتين غير متساويتين من السهل، بحيث إن واجهته الشمالية لا تعلو أكثر من ١٠ ـ ١٢ متراً. وواجهته الجنوبية تشرف على السهل من علو قدره نحو ٣٠ متراً. أما ارتفاعه عن سطح البحر فهو ٢١٦م. وقسم من هذا التل مزروع إلا أن أكثره مغشى بأعشاب وأشواك عالية تحول دون فحص آثاره. وفي جهته الغربية تنفجر مياه غزيرة من ينابيع عديدة تؤلف وسط المرج حوضاً واسعاً مدوراً تحيط به بضعة أشجار، ثم تخرج منه نحو الجنوب نهراً صغيراً أحد الأصول التي تؤلف نهر اللدان أحد روافد نهر الأردن، وليس في ذروة التل إلا قليل من الأنقاض الأثرية وأكثرها بروزاً في جهته الجنوبية بضعة أحجار منحوتة بازلتية من نفس صخر التل.

في الكم ٣٠ يجتاز مسيلاً ينشأ من نبع اللدان. ـ ثم يسير في سفح الجبل الذي تنفجر منه ينابيع عديدة تجتمع كلها في نهر الحاصباني فتؤلف نهر الأردن.

إن لنهر الأردن عدة ينابيع في لبنان وحرمون. وأعلى ينابيعه في جنوبي حرمون (جبل الشيخ) في جوار حاصبيا وارتفاعه عن سطح البحر (٦٠٠م) وهو مؤلف من نحو عشرين فواراً تنفجر من موضع ضيق ويتألف منها حوض عمقه ١٥ قدماً ثم تجتمع مياهها في مجرى واحد وتجري إلى الغرب ثم إلى الجنوب وتسمى بالنهر (الحاصباني) نسبة إلى بلدة حاصبيا، ثم بعد أن تقطع سهل الحولة تجتمع بمياه تل القاضي ومياه

بانياس وهما من أعظم ينابيع الأردن ويتألف منها نهر واحد يصب في البحيرة التي كان يسميها الرومان (ميروم يشوع) واليونان (سمخونيتيس) والعرب (الحولة) أو (الملاحة) أو (بحر بانياس) ثم هو يخرج من طرفها الجنوبي عكراً. ويجري إلى الجنوب فيصب في بحيرة طبريا. ويعبر من جسر اسمه جسر بنات يعقوب، ثم يخرج من بحيرة طبريا ويجري وسط سهل واسع يعرف بالغور إلى أن يصب في بحيرة لوط. ويسلك الطريق خط الحدود الفاصل بين بلاد الشام وفلسطين، فما كان في جنوبي هذا الخط ويدعى سهل الحولة أدخل في حدود فلسطين إكراماً لخاطر الصهيونيين.

في الكم ٣٢ الحدود بين جمهوريتي سورية ولبنان من ثم يستقيم الطريق على خط سوي نحو الشمال الغربي. في الكم ٣٤ جسر جميل فوق نهر الحاصباني بني سنة ١٩٢٨ اسمه جسر أبو زبلة. ثم ينحرف الطريق نحو اليمين ثم يبدأ الصعود والخروج من وادي الحاصباني. - في الكم ٣٧ على اليسار ووسط وادٍ ضيعة سمادة. - في الكم ٣٨ يلحظ نحو الجنوب سهل الحولة وبحيرتها ومستعمرة المطلة الصهيونية التي بناها في سنة ١٨٩٦/١٣١٤ البارون روتشيلد، وهي في أقصى الحد الشمالي لفلسطين. - في الكم ٣٩ على اليسار، يلحظ عن بعد على شفا جدار صخري قلعة (الشقيف (حصن بوفور). - في الكم ٤٢ على اليسار أيضاً فوق عرفة قرية القليعة. - في الكم ٤٤ يترك على اليمين طريقاً جيداً يفضي بعد ٢ كم إلى الخيام، وهي قرية كبيرة ومركز عسكري، تظهر عن بعد فوق أكمة، وثمة على اليسار أكمة مغطاة بشجر التين اسمها تل دبين وهي القديمة. في الكم ٤٥ مفرق طريق مرجعيون - حاصبيا وطريق بانياس الذي نذكره.

إلى حاصبيا - في المفرق المذكور آنفاً يسلك طريق حاصبيا، ففي الكم ٢ من المفرق يلحظ على اليمين قرية إبل السقي يصل إليها بمجاز. - في الكم ٣ يهبط الطريق إلى وادٍ سحيق الذي يجري فيه نهر الحاصباني، وعلى يمين الوادي الجانبي المسمى بوادي شبعا وهو أحد روافد الحاصباني. - في الكم ٦ يبلغ الطريق بطن الوادي الخضر النضر، وثمة أشجار زيتون وتين وغيرها، ثم بساتين حاصبيا، ثم يترك على اليمين مجازاً صالحاً لسير السيارات يوصل إلى راشيا الفخار، وهي قرية

تبعد عن الطريق نحو ٤٠ دقيقة، ويمكن من هذا المجاز بلوغ الهيكل الروماني في قرية الهبارية.

وثمة يلحظ على اليمين سوق الخان، وهو خان عربي قديم شبه خراب بناه أبو بكر أحد ا لأمراء الشهابيين، يقام حوله في كل يوم ثلاثاء سوق عام يتقاطر إليه القرويون من كل هذه الأنحاء. ثم ينحرف الطريق نحو الشمال ويوازي وادي نهر الحاصباني. ـ في الكم ٧ على اليسار وفوق الطريق وفي منكب الجبل كوكبا، قرية مارونية، سكانها ٤٠٠، وفيها كروم زيتون وتين. ـ في الكم ٨ معدن الجمر. ـ وفيه آبار هذا المعدن وهو البيتوم في الاصطلاح العالمي. ويستخرج مخلوطاً بطلبيعته مع الكلس، من آبار وأقبية تحت الأرض ثم يغسل ويكسر. ـ في الكم ٨،٥ يترك على اليسار مجازاً صالحاً ليسر السيارات الخفيفة في الفصول الجافة (أصلح هذا المجاز أخيراً في سنة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ وعبد تعبيداً حسناً) (زفت) يصل بعد ١٨ كم إلى الطريق القادم من مجدل عنجر إلى راشيا .

ثم يقطع طريق حاصبيا جسراً فوق نهر الحاصباني، وهذا النهر ينشأ فوق الجسر لكيلو مترين ويتضخم باجتماع مسائل وادي التيم، ثم يصعد الطريق نحو الشرق في منكب الرابية وهو يدور في منعرجات عديدة، إلى أن يبلغ في الكم ١١ حاصبيا.

حاصبيا، كلمة سريانية معناها الجرار، سكانها نحو ٣٠٠٠، نصفهم دروز، وربعهم الأول أو أقل مسلمون سنة وربعهم الثاني نصارى من مختلف الطوائف، علوها ٧٤٠م، وحينما كانت تابعة لدمشق في العهد العثماني كانت مركز قضاء يتبعه ١٩ قرية تعد من وادي التيم الأسفل التي هي قاعدته. هذا وموقع البياضة جميل يطل على كثير من قرى وادي التيم وترى منه قلعة الشقيف وغيرها من بلاد مرجعيون وجبل عامل والحولة، فإذا أوقدت النار شوهدت إلى مكان بعيد وبعد الاحتلال ألحقت بلبنان في جملة الأقضية الأربعة التي سلختها البياشة الإفرنسية عن دمشق، فجعلتها جمهورية لبنان مركز ناحية تتبع قضاء مرجعيون ثم تركتها كقرية بسيطة فيها مخفر للدرك فقط، وفيها مسجد للمسلمين السنيين وخمس كنائس ودائرة حكومة من بناء حمدي باشا والي الشام سنة ١٢٩٨. وهي مبنية على شكل

مدرج في بطن وادٍ من مراعي وادي التيم اسمه وادي بوحصيص، يمر في جوفه نهر صغير وعلى ضفتيه كروم جيدة من العنب والزيتون اللذين اشتهرت حاصبيا بهما، وكروم التوت والتين. ورأس هذا الوادي الواقع على بعد قليل نحو شرق البلدة قد سد في جهاته الثلاث بآكام شاهقة جعلت مناكبها على شكل مصاطب مدرجة (جلول) تستغل حتى أعلى قممها بالغرس والزرع. ويزاحم الرأس المذكور في الناحية الغربية شنخاب يمتد من الجنوب إلى الشمال ولا يدع للوادي إلا ممراً ضيقاً في الجهة الشمالية. والآكام التي تؤلف هذا المدرج الهائل ترتفع إلى علو نحو ٢٠٠ متر فوق الوادي، في الشمال وفي الجنوب والتي في الشرق تعد أعلى الكل.

وفي مدخل البلدة، قرب الجسر، يلحظ وجود جدران ضخمة لمبانٍ قائمة فوق الصخور تؤلف في مجموعها شبه القلعة مع مئذنة وبرك كبير مربع (في الجنوب الشرقي)، فهذه المباني هي (السراي) أو المسكن القديم للأمراء الشهابيين، ولا يزال مجيئهم إليها ١١٧٢م/٥٧٤ هـ.

بني السراي الأمير علي الشهابي سنة ١٦٠٠، وفي سنة ١٦٦٠ خرب أكثرها محمد باشا الكوبري ثم رممها الشهابيون وسكنوها، وخرب بعضها في سنة ١٨٦٠ فعادوا ورمموها وجددوا فيها منذ عهد قريب آذار ١٨٨٠.

ينتسب الأمراء الشهابيون إلى الحارث بن هشام المخزومي القرشي، قدم هذا من الحجاز أميراً على جيش من عشيرته في حملة الجيوش التي استنفرها أبو بكر الصديق لفتح الشام. وقد سكنوا أولاً في حوران وتولوا الأعمال للأمويين ثم للبنانيين وسموا بني شهاب نسبة إلى الأمير شهاب المخزومي والي حوران المتوفى سنة ١٠٧٣هـ/٩٧٣م، ثم انتقلوا إلى وادي التيم سنة ١٠٦٩ واستخلصوه من يد الإفرنج وتأمروا فيه، إلى أن مات الأمير أحمد المعني في سنة ١١٠٩م بلا عقب، فورث بعضهم مكان آل معن وانتقل إلى دير القمر وساد فيه إلى أواسط القرن الماضي.

وبنى فيها ثكنات الوافدون من وادي التيم وجبال صفد والجبل الأعلى في حلب وجبال لبنان وجبل حوران والفرديس وعين جرفا وبو قمحة وعين قنية وشوبا وعين تنا وميمس والخلوات والكفير. وفي الغرب برغز وكوكبا وقلية ولبابة والذنيبية،

وسكان هذه القرى أكثرهم دروز ثم روم أرثوذكس وبها قليل من المسلمين، السنية والشيعة والكاثوليك.

يسير الزائر إلى سطح الانصباب المقابل إلى أن يبلغ الهيارية، وهي قرية مسلمة، سكانها ٥٠٠ تحف بها بساتين الخوخ والدراق وغيرها في قرب هذه القرية هيكل يواجه جبل الشيخ، وهو خراب وقسم منه أقحم داخل بيت، ذرعه ١٧,١٠× ٩,١٠م، وعلوه من السطح إلى الكورنيش ٨,٢٠م، والواجهة الأصلية لهذا الهيكل تقع في الشرق، فيها عمودان مدوران في الوسط، ودعامتان من الطراز الأيوبي تنتهي بهما الجدران الجانبية. ويوجد في مثل هذه الركائز في الزوايا الغربية للهيكل، وجدران السيللا ما برحت قائمة، ماخلا التي في الجهة الشمالية. وثخن هذه الجدران متران والأحجار التي تتألف منها ذات ضخامة كبيرة وبعضها منقور نقراً محدوداً (أحجار صورية). وفي كل طرف من الهيكل فرونتون، وجوانب اليرونائوس زخارف بفجوات. والمداميك السفلى لبست بمنطقة مزخرفة كما لبس دائر السقف بكورنيشين مزدوجين.

الصعود إلى جبل الشيخ: ينبغي لمن يروم الصعود إلى جبل الشيخ أن يقضي ثلاثة أيام، وأن لا يحاول ذلك إلا بعد دخول شهر تموز أي عقب ذوبان الثلوج.

اليوم الأول. - يصعد من حاصبيا راكباً، فيصل في خلال ثلاث ساعات ونصف إلى شبعا. وهي قرية مسلمة، سكانها ٣٠٠٠، دورها مبنية بعضها فوق بعض في مسند الجبل المدعو بالوسطاني، وفي قربها نبع ماء غزير جداً. ينفجر من مغارة في جوار القرية قد جر الإفرنسيون هذه المياه بقساطل حديدية ووزعوها رغم ممانعة أصحابها من أهالي شبعا وشكواهم في قرى حاصبيا وجديدة مرجعيون وأبل السقي وغيرها، فارتوت هذه القرى بعد أن ظلت قروناً قليلة المياه، وفي أسفل هذه القرية وادٍ باسمها خضر نضر من وفرة مياهه والتفاف بساتينه ذات الأشجار والبقول المتنوعة الجميلة. وفي شبعا كما في حاصبيا يمكن الحصول بسهولة على بغال وأدلة ماهرين بالصعود، كما أنه يمكن أن يبيت في شبعا عند أحد القرويين.

اليوم الثاني. - من شبعا إلى قمة حرمون ٥ - ٦ ساعات. فيسير بادئ بدء في مجاز يمتد باستقامة وادي الخيام، وبطن هذا الوادي ملآن بكروم العنب، وفيه عيون

عديدة. وبعد ٣٠ دقيقة، يوجد شنخاب يقسم الوادي فيسلك المجاز الذاهب إلى عرنة وهذا ينحرف نحو اليمين ويدور حول الشنخاب نحو الشرق. ويتسلق هذا المجاز وسط الكروم ثم يسلك وادياً مائلاً فيه بعض الكثودة، ويلحظ من بدء ثنية، وهذه يبلغها خلال ساعتين. وحينئذ يتبع عرنة نحو الشمال حتى يبلغ قمم حرمون.

ولجبل الشيخ ثلاث قمم الأولى وهي الأعلى تكون في الشمال وتشرف على سهل وادي البقاع وعلى سلسلة لبنان الشرقي والغربي، والثانية في جنوب الأولى وتبعد عنها نحو ٣٠٠ متر تشرف على غوطة دمشق وعلى الوادي السحيق الذي تنفجر منه ينابيع نهر الأعوج. والثالثة في غربي الثانية وتبعد عنها ٤٠٠ متر، أوطأ الكل، إلا أنها تشرف على وادي الأردن. وعلو القمة العليا ٢٧٦٠ متراً عن سطح البحر المتوسط و ٣٢٠٠ عن غور الأردن، وعلى هذا يكون حرمون الجبل الثاني في بلاد الشام، أي أنه يأتي بعد قرنة السوداء أعلى قمم شمالي لبنان وكل بلاد الشام التي علوها ٣٠٠٠ وقد تقدم وصفها، والقمة العليا في حرمون تشبه الشكل المخروطي وتعلو بقية جبال الشام نحو الف متر، ومثل ذلك عن أعلى قمم سلسلة آنتي لبنان فوق الزبداني.

وفي القمة الأولى العليا يمتد النظر نحو الشمال فوق سهل البقاع، وسلسلة لبنان الغربي وسلسلة لبنان الشرقي ووادي الزبداني ويمتد في الشرق فوق بادية الشام الكبرى المحصنة في البعد وفوق جبل حوران، وسهوله، وفي الجنوب فوق وادي الأردن وبحيرتي الحولة وطبريا، وفي الجنوب عند الأفق البعيد جبال الجليل وجبال نابلس حتى جبل الكرمل، وفي الغرب يلحظ في أوقات صفاء الجو البحر المتوسط من رأس الكرمل حتى خرشوم صور ووراء هذه المسافة جبل الجرمق وتومات نيحا وجبل الباروك وجبل الكنيسة، وأخيراً جبل صنين الذي يسد ما وراءه.

وكان اسم حرمون عند الآشوريين وعند العموريين وعند الفينيقيين وذكره العهد العتيق في مواضع كثيرة باسم بعل حرمون. وكان هذا الجبل مقدساً، واجل مراكز العبادة القديمة التي تقام في الأماكن المرتفعة. وكان في نظر الكنعانيين عرش الإله الأعلى ملك الأرض والسحب، ويروي القديس جروم أنهم كانوا حتى في زمنه (٣٣١ ـ ٤٢٠) يصعدون إليه ويقدمون القرابين في قمته. وفي العهد الروماني كان يعد حرمون كالكرمل ولبنان وكاسيوس (الجبل الاقرع شمالي اللاذقية) من

الأماكن المقدسة بل كان يعد إلهاً، وقد شيدوا له في سفوحه هياكل عديدة، ففي سفحه الغربي قلعة بصرى والهبارية وعين حرشا والنبي صفا، وفي شماله عهيا، ورخلة ودير العشائر وبرقش، وفي شرقه قلعة جندل وعرنة وحينه.. الخ. وسماه العرب جبل الشيخ لما وجدوا من الشبه بين قمته البيضاء وهامة شيخ شائب.

وفي أعلى قمته الثانية أطلال بناء من دور الوثنية يدعى قصر عنتر. فشنعوف القمة، وهو بشكل المخروط، يعلو ٥ ـ ٦ أمتار، تحيط به تصوينة (صوان) من الحجر شكلها بيضوي، كان فيها قبلاً مدماكان مؤلفان من أحجار ضخمة منحوتة نحتاً كاملاً ومقحمة وسط الصخر. وقد أضافوا إلى هذا السور المقدس في جهة الجنوب هيكلاً صغير الحجم، تدل نقوشه على أنه من العهد الروماني، وشنعوف القمة نفسه كان مبنياً. إذ يرى بين الجدران الصغيرة التي أقيمت لحمل خشبة الإشارة الحبوذرية، من الصخر كان محفوراً على شكل قمع قطره ٣ ـ ٤ أمتار. وقد عثر العالم الأثري كلرمون غانو على كتابة يونانية وجدوها بين أحجار السور البيض، ذكر فيها ترتيب الاحتفال والعرض الديني الذين كانا يجريان حول الشنعوف المقدس المذكور، وهذا العرض طقس معروف عند الأقوام السامية وآخر آثاره الطواف يقوم به المسلمون حول الكعبة. أما القمع الذي في قمة الشنعوف، فهو يذكر بمذهب معروف بين المذاهب الشامية، باسم (يريد)، وقد دعاه المؤرخ لوسيان المسيساطي باسم (النزول إلى النبع)، وهذا يعني نقل كمية من الماء من حدود البحر أو الآبار إلى قمة الجبل باحتفال فخم، فكانوا ينقلون هذه المياه ويسكبونها في ذلك القمع، ويقصدون بذلك أن رشحات هذا الماء إلى أعماق القمة تؤدي لغزارة جريان الينابيع.

ومن القمة يعود أدراجه إلى شبعا، فيقضي ليلته فيها، وفي اليوم الثالث يعود إلى حاصبيا، أو يهبط إلى راشيا، أو إلى قطنا عن طريق قلعة جندل وفي هذه أنقاض حصن صغير.

من حاصبيا إلى راشيا. من اللحب الصالح للسيارات (٢٨ كم) يسلك السائر لحباً يتجه نحو الشمال، وهو على طريق جديدة مرجعيون بعد الجسر الذي على نهر الحاصباني وعلى بعد ٣,٥ كم من حاصبيا.

ففي الكم ٢ على اليمين حوض ماء جميل محصور بسد، وفيه نبع نهر الحاصباني، بل هو معدود أحد الينابيع الأصلية لنهر الأردن الأعلى. وهو على الأقل آخر نبع دائم، لأن في أعلاه ليس سوى مسائل وادي التيم التي تجف في بعض أقسام السنة. والجدول الذي يشتق من الحوض أو النبع المذكور ينحدر بعد ١ كم في بطن وادي التيم ويؤلف مع هذا الوادي النهر المدعو بالحاصباني.

وفي شرقي الشنعوف المذكور على بعد نحو ١٥ متراً مغارة كانت مبنية بدليل أن فيها عموداً منحوتاً كان يحمل سقفها، يلجأ إليها الآن المقرورون من رواد الجبل.

ويدرج اللحب نحو الشمال الشرقي، في حصن الرابية ويحاذي مهاميز عديدة تنفصل عن جبل بير الضهر. ويعبر جداول عديدة. ويتمتع السائر إذ ذاك بمنظر رائع يتجه نحو كتلة جبل حرمون.

في الكم ٩ يلحظ على العرفة التي على اليسار قرية لبايا ويلحظ في الوادي الأيمن وفوق مهماز ضيعة الذنيبة، وفي الجانب الآخر من هذا الوادي روضة اسمها السفينة.

في الكم ١٢ حوش الناعمة، قرية نصرانية حديثة، هدمت بالمرة في ثورة سنة ١٣٤٤/١٩٢٥ ثم جددت كلها.

في الكم ١٣ على اليسار ضيعة اسمها النبعات وفيها خمار يعمل الخمور. ومن هنا مجاز جيد للدواب، ذو ميل شديد نوعاً ما يفضي صعوداً بعد ٣٠ دقيقة إلى قرية النبي صفا وفي شمالها يرى بقايا هيكل ذرعه ٢٢×١١ متراً وهو خراب جداً. لم يبق منه سوى المداميك العليا للجدار الشمالي والزاوية الشمالية الغربية منه، وتاج عمود من الطراز الأيوبي يحمل طرف فرونتون مثلثي الشكل قد خرب اليوم. أما بلاط باحة هذا الهيكل فلا يزال سالماً. وتحت البناء ينفذ من درج ذي بضع درجات إلى عدة غرف بعضها ملآن، تتألف من أحجار جيدة النحت مرصوفة بدون طلاء وبدون فواصل بينها. وبلاط الباحة العليا يؤلف سقف هذه الغرف، وهي محمولة بكورنيشات ضخمة. وفي جنوبي القرية يوجد بضعة نواويس.

في الكم ١٧ يلحظ على اليسار فوق عرنة قرية كفر مشكة، يوصل إليها لحب صالح، وإذا انفصل السائر نحو يسار كفر مشكة يصل أيضاً في ٤٠ دقيقة من مجاز رديء إلى قرية النبي صفا التي تقدم ذكرها.

يترك على اليسار لحباً صالحاً يلاقي بعد ٨ كم طريق مضائق الليطاني الذي يأخذ من راشيا إلى مشغرة. وهذا المجاز يمر بين قريتي كفر مشكة على اليسار، وكوكب (على اليمين) ثم يجتاز معبراً فيشرف عليه حينئذ من علو ٣٠ متراً قرية مجدل بلهيص الجاثمة على جبل اسمه الجبل الغربي.

ثم إن طريق راشيا ينحرف نحو اليمين ويجتاز سهلاً أجرد فيه رجوم وأوعار. ثم يلحظ على اليسار قرية كوكب التي هوجمت وخربت في ثورة ١٩٢٦ وهي الآن تجدد وفيها شجرتا سنديان عظيمتان محترمتان.

في الكم ٢٠ على يمين المجاز عين اللبوة. يلحظ فوق نشز صخري راشيا وقلعتها ـ في الكم ٢٢ يلاقي مرة أخرى طريق مجدل عنجر وراشيا ـ في الكم ٢٨ راشيا.

من حاصبيا إلى راشيا من مجاز الدواب ٤.٥ ساعة

يعبر هذا المجاز وادي حاصبيا فوق جسر، ثم يرى الفتى هضبة متمعجة فوق رابية مغروسة بالزيتون، ويبلغ بعد ربع ساعة قرب غابة صغيرة، وثمة ثنية تدعى رأس زغلة فيها منظر جميل نحو حاصبيا. ومن ثم يهبط المجاز فجأة في درك شاق رديء. ثم يلف حول أحد أعضاد جبل الشيخ تارة من جلول وتارة من منحدر ضعيف. ثم يعبر في الدق ٤٥ جدولاً اسمه نهر أبو دجاجة، ثم بعد ساعة يبلغ ميماس التحتى. ثم تزداد كؤودة المجاز فيمر بعد ساعة من قرب حوض ماء جميل ويحاذي خلال ساعة وربع الحدود الشمالية لقرية ميماس الفوقى.

ثم يترك على اليمين مجازاً شديد الكؤودة يوصل في ٢٠ دقيقة إلى قرية خلوة الكفر، وفي شرقي هذه على بعد ١٠ دقائق غابة سنديان باسم النبي شيت في طرفها آثار مبانٍ خربة، وثمة تحت شجرة عظيمة ضريح حجري عليه رأس صبي مزخرف. ويظن البعض أنه مدفن الدرزي مؤسس المذهب الدرزي.

ومن ميماس الفوقى يدور مجاز الدواب وهو هنا جيد - حول التلعات الحاملة لخلوة الكفير، ثم يصل في ساعتين وبعد هبوط مدرج إلى بطن واد كبير كثير الحصى. ثم يعود للتصعيد والتجمع بين كروم الزيتون فيلحق بعد ساعتين وربع كفير الزيت، قرية كبيرة، سكانها ٨٠٠ أكثرهم روم أرثوذكس وهي مسقط رأس الأستاذ فارس الخوري رئيس المجلس النيابي السوري ومن ثم يصعد المجاز في مشقة بين كروم العنب إلى أن يصل في الساعة ٢ والدقيقة ٤٠ إلى العرنة التي في شمالي الكفير. وفي الساعة ٣ يعبر وادياً صغيراً في مبدئه قرية عين عطا، سكانها ٦٥٠ أكثرهم دروز ولها مجاز إلى اليمين يوصل إليها في ٣٠ دقيقة. ويترك على اليسار مجازاً آخر يوصل إلى سفينة.

ومن ثم يهبط المجاز نحو عين حرشة في دركات شاقة إلى أن يصل في الساعة ٣,٣٠ إلى بطن الوادي وإذا ترك المجاز نحو اليمين يمكنه أن يصل في ٣٠ دقيقة إلى هذه القرية، ليبلغ العرنة التي تشرف عليها وفي ذروتها على بعد ١٦٠٠ متر عن القرية هيكل روماني. وهو هيكل يعد أكثر هياكل سفوح جبل حرمون سلامة فجدرانه الأربعة ما برحت قائمة. وهو بناء صغير يتجه نحو الشرق، ذرعه نحو ١٢× ٨ متراً وعلو سطحه ذي الكورنيش يبلغ ٥,٧٠ متراً. أما السقف فساقط. ويلحظ في هذا الهيكل باب مزخرف زخرفاً متقناً. والكورنيش مزين برأسي أسد بينهما رأس نمر. وفي فجوة تشبه الحنية في الطرف الغربي نصب امرأة من الزخرف الناتئ تحمل على رأسها قرنين. (وهي لا ريب تمثال عشتروت) وقد شوه وجهها. وفي واجهته مدخل الهيكل في الشرق يلحظ وجود بضعة نواويس وكتابة فوق الصخر.

وإذا عاد إلى مجاز راشيا عن طريق عين حرشة يسلك بادىء بدء بطن وادٍ في الساعة ٣,٤٠ ثم يبتعد عنه ليجتاز مهمازاً وجدولاً. ثم يتسلق المجاز نشزاً مرتفعاً جثمت فوقه قرية بيت لهيا، فيجتازها، ثم يلحق بعد مرور حقول مزرعة العرنة التي في جنوبي بكفية التي يلحظ حدودها فقط. ثم يرتقي المجاز عقبة مدرجة بين كروم التوت والتين فيبلغ أخيراً في الساعة ٤ راشيا.

من حاصبيا إلى بانياس

راجلاً أو راكباً فالمسافة نحو ٥,٣٠ دقيقة أما إذا أراد اختصار الوقت والتعب يركب سيارة إلى راشيا الفخار من طريق جديدة مرجعيون ومن لحب سوق خان راشيا الفخار .

يسلك بادئ بدء خلال ساعة ونصف طريق جديدة مرجعيون، وفي الوقت الذي يشرع هذا الطريق بالدوران حول خط العرف التي تحيط بوادي نهر الحاصباني في الشرق، ينفذ نحو اليسار في مرج يقع بين تلك العرف وكتلة خلوة البياضة. ويمر المجاز بين كروم الزيتون والعنب متجهاً نحو قرية (أبو قمحة) فيتركها إلى اليسار (٤٥ دقيقة) ثم يهبط نحو وادي شبعا ويعبره خائضاً ليلحق لحب السيارات في سوق الخان في راشيا الفخار ويظل سالكاً هذا اللحب حتى العرنة التي تحمل قرية راشيا الفخار. ومن ثم يتركه ليسلك على اليمين بين كروم العنب المجاز الأول الذي يصادفه. وهذا المجاز يتجه نحو الرأس الرفيع المستور بالغابات في قرية الخريبة، فيصله في الساعة ١ والدقيقة ٤٥ ومن ثم يأخذ مجاز المارنة (في الساعة ٢ و ٤٥ دقيقة) ومن هذه القرية يصعد في الساعة ٣ ثنية صغيرة منها منظر جميل نحو سهل الحولة وجبل هونين الذي يشرف عليها من غربها. وبعد هذه الثنية يعود للهبوط في الساعة ٣ وربع إلى واد نضر اسمه وادي سرايب، يسقى بجدول يجتازه وبعد هذا الوادي يعود للصعود (في الساعة ٣,٢٥) إلى هضبة جميلة مغروسة بالسنديان الأخضر، وهي تمتد تحت أقدام الأعضاد الأخيرة لجبل الشيخ وتشرف على وادي نهر الحاصباني، ثم يهبط (في الساعة ٤) إلى ينبوع عين الخرويعة. وفوق هذه العين تقوم خربة تدعى قلعة بصرى في جهة الشمال الشرقي فوق قمة أكمة مرتفعة أكثر من ٣٠٠ متر يمكن الوصول إليها خلال ٤٥ دقيقة وهذه الخربة مجموعة هياكل متهدمة بالكلية، يلحظ بضعة أعمدة وأبواب مزخرفة بنقوش بارزة.

وبعد عين الخرويعة يترك المجاز على اليمين نبع ماء ثم يدور حول الحضيض الغربي لجبل الشيخ ويعبر وادي العسل، فتظهر حينئذ أمامه قلعة الصبيبة . ثم يجتاز

بقعة ذات غابات وزروع حسنة ويبلغ في الساعة ٥ و ١٥ دقيقة وادي الخشبة وبعد ١٠ دقائق يصل إلى قرية بانياس.

من راشيا إلى وادي الزبداني ومحطة التكية (٦ ساعات) في مجاز دواب، يجتاز سهل عجا أو مستنقع قرية عجا، ثم يدخل وادي تكية الطويل الذي وقعت فيه معركة بين إبراهيم المصري والدروز كانت الدائرة عليهم.

رحلة إلى وادي العجم والجولان

دفعني حب التجوال إلى زيارة قضاء وادي العجم، وأصعد إلى قمة جبل الشيخ، وأهبط منها نحو أوعار الجولان، وأبلغ منابع الأردن في بانياس وسهل الحولة وبحيرة طبريا، وأصل إلى المكان الذي رقص فيه جيش الروم عقيب معركة اليرموك وكنت حسب عادتي لا أكتفي.

ساقتني التقادير مرة لزيارة قضائي وادي العجم والجولان. وتجولت فيهما وبحثت عن شؤونهما الجغرافية والتاريخية والعمرانية شأني في كل أرض حللتها، وقد أحببت أن أنشر خلاصة ما رأيت وما بحثت عنه ليطلع عليه من فاتتهم رؤية هذه الأماكن التي لم توصف بعد في كتبنا العربية على هذا النسق:

تقرير قرية مورك

الموقع شمالي حماة، ٢٨ كم على الطريق العام المؤدي إلى حلب، من قرى ناحية طار العلا.

الحدود شرقاً العطشان، معان، سكيك، شمالاً خان شيخون غرباً اللطامنة جنوباً لحايا، الطيبة، صوران، تبعد عن محردة ٢٠ كم وهي في سهل فسيح، وفيها تلان أثريان (تل الحبي) و (تل الشيخ علي) وهو أكبرهما، وقد نقب فيه سنة ١٩٣٨ الدكتور فعثر على قبور تعود إلى القرن ٢٠ ق.م

الأودية، وادي الدورات في جنوبي أراضي القرية، يفصلها عن أراضي صوران ووادي خنزير وادي السعف ووادي العميق في الشرق، تعد مورك مع صوران وكفر

زينة واللطامنة والطيبة من القرى الزراعية المهمة، وأهلها مجدون وقد اشتهرت ببطيخها الجيد الضخم.

المساكن، قباب مخروطية، ٥م، لا نافذة ولا شباك، سوى الباب، نفوسها ١٨٠٠.

obeikandi.com